احمد بن طولون

رواية تاريخية غرامية

وهي الحلقة الثالثة عشرة من روايات تاريخ الاسلام

تتضمن وصف مصر وبلاد النوبة في أواسط القرن الثالث للهجرة
على زمن احمد بن طولون ويتخلل ذلك وصف أحوالها
السياسية والاجتماعية والادبية . وعلاقة الاقباط
باهل الدولة وما كانوا يضمرونه في نفوسهم
أو يجول بخواطرهم . وما بين النوبة
ومصر من العلائق السياسية ووصف
أحوال البجة وغير ذلك

تأليف

جرجي زيدان

منشيء الهلال

مطبعة الهلال

سنة ١٩٣١

مقدمة الطبعة الاولى

(سنة ١٩٠٩)

هذه هي الحلقة الثالثة عشرة من روايات تاريخ الاسلام وهي خاصة بوصف مصر في ولاية أحمد بن طولون (توفي سنة ٢٧١ ﻫ) وهو اول أمير استقل بادارة حكومة مصر تحت رعاية الدولة العباسية وبنى لنفسه بلدا سماه القطائع بين المقطم والفسطاط لا يزال من آثاره الى اليوم جامع ابن طولون في الصليبة

وبذلنا الجهد في تمثيل مصر في القرن الثالث للهجرة من حيث علائقها السياسية مع بغداد واحوالها الاجتماعية وعلاقة الاهلين بعضهم ببعض. ومثلنا ما بين الاقباط والمسلمين من الاختلاف وبينا اسبابه وأسباب الخلاف بين أهل الدولة الاتراك والعرب وما كان يجول في خواطر كل من الفريقين بالنظر الى الآخر

وهذه هي الرواية الثانية من سلسلة روايات الاسلام المختصة بمصر . اما الاولى فهي رواية أرمانوسة المصرية التي تمثل فتح مصر على يد عمرو بن العاص

ويسرنا ان اقبال القراء على مطالعة هذه السلسلة يزداد في كل يوم فقد أعيد طبع اكثر حلقاتها غير مرة ونقل معظمها الى اللغات الشرقية في الهند وفارس وتركستان كما فصلنا ذلك في مقدمة عروس فرغانة بالسنة الماضية

ونحن في كل حال لا ندخر وسعاً فيما نظنه مفيدا لقراء العربية . وقد ظهر لنا ان سبك التاريخ في قالب الرواية جزيل الفائدة في تحبيب التاريخ الى الناس وترغيبهم في المطالعة على الاجمال . وهذا ما نرمي اليه في تأليف هذه الروايات والله حسبنا ونعم الوكيل

الفصل الاول

دميانة

خرجت دميانة من منزل ابيها في قرية طاء النمل بكورة سخا (مديرية الغربية) في أصيل يوم من أيام سنة ٢٦٤ للهجرة ومشت تسترق الخطى في البساتين تلتمس كنيسة هناك بنيت لصلاة أهل تلك الناحية والقرى المجاورة. وكانت دميانة تذهب للصلاة فيها كل صباح ولاسيما في أيام الآحاد والاعياد لكنها أرادت الذهاب في ذلك الاصيل لتخلو بقسيسها وتسر اليه امراً خالج ضميرها واقلق راحتها وهي ترى في الاعتراف راحة أو مشورة أو مؤاساة . ولو كانت والدتها حية لاستغنت عن مكاشفة القسيس بالشكوى اليها . وأما والدها مرقس فلم تكن ترتاح الى مطارحته مافي خاطرها لانه كان مخالفاً لها في الطباع والاطوار - كانت هي تقية ورعة تصلي كل صباح وهو لايعبأ بالدين ولا يدخل الكنيسة الا نادراً . وكانت تكره المسكرات وهو يتعاطاها مع ميل الى المجون والتهتك لايهمه الا التمتع بملاذ الجسد من الطعام والشراب والتأنق فيهما . توفيت امرأته وابنتها دميانة لا تزال طفلة ولم يكن له منها سواها فلم يتزوج ليس مراعاة لها واحتفاظا بكرامتها ولكنه رأى الزواج قيداً ومشغلة فعمد الى التسري واقتناء الجواري اقتداء بسراة المسلمين في ذلك العهد - عهد البذخ والترف والقصف . والمسلمون وجدوا في بعض قواعد الاسلام متسعاً للتسري واقتناء الجواري فاقتدى بهم بعض الاقباط من أهل الثروة ومرقس في جملتهم

وكان مرقس (ابو دميانة) من أصحاب القرى وأهل الثروة لا يشغله طلب الرزق عن شيء من ملاذ الحياة فيقضي نهاره بالاكل والشرب بين الاصدقاء والخلان الذين على شاكلته. وكان العقلاء ينتقدونه ويقبحون عمله لا سيما الذين عاشروه من الصبا وعرفوا حداثة عهده بالثروة لانه ربي

في صباه متوسط الحال لايزيد دخله على الكفاف ثم جاءته الثروة فجأة فصادفت منه قلباً شرهاً ونفساً ضعيفة فاتجهت قواه الى التمتع بالمشتهيات الحيوانية

أما دميانة فقد ربيت في حجر والدتها الى الثامنة من عمرها وأخذت عنها الفضائل والتقوى وتعودت الصراحة في القول وصدق اللهجة والاتكال على الله والمحافظة على الصلاة اليومية. وماتت أمها على غرة وهي غائبة ولو شهدت موتها لسمعت منها حديثاً يهمها ويكون له شأن في مستقبل حياتها . فاصبحت دميانة بعد وفاة والدتها وحيدة لا انيس لها في تلك القرية لان سكانها أكثرهم من الفلاحين الذين يشتغلون في أرض ابيها وهم تابعون للارض ينتقلون معها من مالك الى مالك أو من متقبل الى متقبل على نحو ما كانت عليه الحال يومئذ في أكثر البلاد . ففي المملكة الرومانية باوربا كانت الارضون تنتقل من بارون الى بارون وينتقل فلاحوها معها ويسمونهم سيرف (Serfs) وهو ما يعبرون عنه في العربية بالقن (الجمع اقنان)

فلم تكن دميانة ترتاح الى معاشرة بنات الفلاحين وان كانت لا ترى بدأ من مخاطبتهن والالتفات اليهن بالاحسان والبشاشة والملاطفة وهن يتقربن اليها بالهدايا والخدمة . غير أن ذلك لم يكن ليشبع نفسها الكبيرة ولم تكن تجد باباً للتعزية بالمكاشفة أو المطارحة على عادة بنات المدن بمن يتألفهن من الصواحب أو الجارات أوذوات القربى. فكانت اذا طرأ عليها أمر يقتضي مكاشفة شغلت نفسها بالصلاة فيعزيها ذلك ولو الى حين

أما ذلك اليوم فاحست بانقباض صدرها وضاقت ذرعاً عن كتمان ما في نفسها وهي تحسبه مخالفاً لقواعد التقوى وشرط التدين فقضت معظم النهار في التفكير منفردة في غرفتها حتى اذا مالت الشمس الى الاصيل لاح لها أن تبوح بسرها الى قسيس القرية الاب منقريوس وكانت تأنس به لطول عهده في خدمة تلك الكنيسة ولكبر سنه . وأهم من كل ذلك ان الاعتراف للقسيس قاعدة متبعة عندهم

فخرجت في ذلك الاصيل وحدها تمشي في البساتين كأنها تتمتع بمناظر الطبيعة وتنظر في الاغراس وصبيان الفلاحين وبناتهم يقفون احتراماً لها أو يفرون خجلا منها وبعضهم في شاغل عنها بثور يسوقه الى مربطه أو حمار يحمل عليه قضباناً أو فاكهة الى بيت مولاه . فمشت دميانة تظهر انها مهتمة بتلك المناظر وهي بالحقيقة في شاغل عنها بما يتردد في فكرها من الامر الذي تهم بكشفه للاب منقريوس . فلم تكن تسمع غناء الغلمان وهم يحصدون الزرع ولا صياح الاديك ولا رفرفة الاطيار التي تلتقط الحب : ولما دنت من الساقية الكبرى على ضفة النيل لم تنتبه لانينها أو طقطقة اخشابها ولا خوار ثورها اذ يستحثه الغلام على الدوران

وكانت دميانة في نحو العشرين من عمرها ربعة القامة سمراء اللون مع صفاء ونضارة كبيرة العينين سوداء الحدقتين مع ذكاء ووداعة صغيرة الانف صغيرة الفم ممتلئة الشفتين لها ميسم ينم عن صدق طويتها ورقة احساسها . في اذنيهـا قرطان من ذهب يمثلان ابا الهول . وقد ضفرت شعرها الاسود ضفيرة واحدة ارسلتها الى ظهرها وغطت رأسها بنقاب من الحرير نسيج دمشق اهدته اليها امها في طفولتها وقد طرزت لها على حواشـيه بعض الدعوات والآيات باللغة القبطية . وارتدت ثوباً من القباطي الرقيق واسع الاردان التفت فوقه بمطرف من الخز مما كان يحمله تجار فارس الى الفسطاط واحتذت نعالا محوكة من الخوص وقدد الجلد معاً . وفي عنقها قلادة من الذهب في وسطها صليب محجر

الفصل الثانى

الـكنيسة

وكانت المسافة بين المنزل والـكنيسة نحو ميل قطعت معظمه على ضفة النيل وعيناها تتنقلان بين الماء واليبس على غير انتباه فمرت بها عدة قوارب تحمل تبناً أوحبوباً أو غيرذلك من الغلال وهيلم تنتبه لها ولا لصراخ نوتيتها ولا لفقش الماء أو نقر الريح على اشرعتها ولـكنها انتبهت فجأة الى سفينة تختلف عما تعودت مشاهدته في ذلك النيل لـكبرها واتقان بنائها وزخرفها وكبر شراعها وما فيها من الغرف والنوافذ كأنها بيت سابح فوق الماء يشبه ما يعرف اليوم بالذهبيات . فعلمت أن مثل هذه السفينة لا تخلو من بعض السراة وربما كان فيها بعض أصدقاء ابيها فلا تريد أن يراها أحد منهم.وكانت قد أشرفت على الـكنيسة فاسرعت اليها مهرولة تتوارى بين جذوع الشجر وأغصانها حتى دنت من باب الـكنيسة فاستترت وراء نخلة بين يدي الباب قديمة العهد جذعها هائل الـكبر . والتفتت نحو النيل لتعيد نظرها الى تلك الذهبية لعلها تعرف أصحابها . فتفرست في الراية المنصوبة في مقدمها فرأت عليها كتابة بالعربية وهي لا تقرؤها — وأهل القرى كانوا الى ذلك العهد لا يعرفون العربية لقلة اختلاطهم بالعرب لان المسلمين كانوا لا يزالون من زمن الفتح يقيمون في معزل عن أهل البلاد إما في الفسطاط مقر رجال الدولة ومن يلحق بهم من الحاشية والاعوان أوفي أطراف البلاد بالمضارب والخيام . ولم ينزلوا القرى الا بعد قدوم المأمون الى مصر في أوائل القرن الثالث للهجرة اذ جاء لاخماد ثورة انتشبت هناك فاذل القبط وأمر المسلمين بنزول القرى فابتنوا فيها القصور وحولوا بعض الـكنائس الى مساجد [1]

فلما رأت دميانة تلك الراية علمت انها لبعض رجال الدولة أو بعض

---

(١) المقريزي ٢٦١ج ٢

الخاصة منهم أو الجباة من القبط قد خرجوا لجمع الخراج والجزية . ولولا علمها بتقرب والدها من صاحب الخراج لخافت أن يكون عليه بأس من اصحاب تلك الذهبية. ولوكانت تقرأ العربية لقرأت على تلك الراية اسم احمد المادرانى متولي الخراج وهو صاحب النفوذ الاكبر عند ابن طولون صاحب مصر . وانتبهت بغتة لما جاءت من أجله فتحولت نحو الـكنيسة ودخلت بابها الغربي

وكان لتلك الـكنيسة في أول امرها بابان احدهما غربي والآخر شمالي. فلما نزل المسلمون في القرى بعد قدوم المأمون واحتاجوا الى أماكن للصلاة ابتني بعضهم المساجد وحول آخرون بعض الـكنائس الى مساجد. أما تلك القرية فنزل فيها رجل من الشيعة العلوية يقال له ابو الحسن البغدادي جاء من بغداد فى جملة أصحاب المأمون وأحب المقام بمصر فاستأذنه في البقاء هناك فاذن له وظل مدة يقضي فروض الصلاة في منزله . وكان معتدلا منصفاً فلم ير أن يسلب أهل تلك الناحية كنيستهم فاتفق مع صاحبة القرية وهي يومئذ مارية القبطية المشهورة ان يقتطع من الـكنيسة جانباً يتخذه مسجدا يصلي فيه كما فعل المسلمون بالجامع الاموي لمـا فتحوا دمشق . فاذنت له فقسم الـكنيسة شطرين بحائط واصبح البـاب الشمالي خاصاً بدخول المسلمين وليس منهم هناك الا ابو الحسن البغدادي وحاشيته وظل الباب الغربي مدخلا للنصارى

دخلت دميانة من ذلك الباب ومشت في الدهليز باحترام وخشوع حتى اقبلت على واجهة الهيكل وعليها الايقونات الملونة والاستار المصورة فرسمت علامة الصليب وعرجت الى ايقونة مريم العذراء في جهة اليمين وهي تمثل العذراء تحمل طفلها في شكل جميل . وقد جلبت هـذه الصورة من القسطنطينية . فجثت دميانة امامها وأخذت تصلي بحرارة وخشوع . وتمثل لها الامر الذي جاءت من أجله فخفق قلبها تهيباً من الخوض فيه فتجلدت واخذت تتضرع الى أم الاله ان تقويهـا وتسددها ولمست وجه الصورة باناملها ثم مسحت بها وجهها تبركا بكرامتها

وهي في ذلك سمعت تمتمة القسيس في الهيكل للصلاة التي اعتاد اقامتها هناك قبل الغروب كل يوم ويندر أن يحضرها احد. وتنسمت رائحة البخور ورأت ضوء الشموع فازدادت خشوعاً وتهيباً لانفرادها في ذلك المكان المقدس . ولم تر القسيس لان باب الهيكل كان مغطى بستارة من الديباج المزركش صنع دار الطراز في تنيس . ولما فكرت فيما قدمت من اجله اكبرته وحدثتها نفسها أن تعدل عن مكاشفة القسيس بسرها وهمت بالرجوع واذا بالقسيس قد ازاح الستار ووقف بباب الهيكل وبيده الصليب والانجيل وهو يتلو الصلاة فلم تتمالك عن التقدم نحوه واحناء رأسها تحت الكتاب فقرأ فصلا من الانجيل بالقبطية على جاري العادة فتشددت ورجعت الى عزمها على الاعتراف

فلما فرغ القسيس من الصلاة مد يده اليها فقبلتها وأحس القسيس بارتعاش اناملها . وكان الاب منقريوس شيخا طاعناً في السن عرف دميانة منذ طفولتها وهو الذي كلل أمها وعمدها هي وكان عطوفا عليها وهو طيب السريرة صادق التدين مع سذاجة وصفاء طوية وقد اطلع على أسرار اعترف له بها اصحابها زادته اشفاقا على دميانة ورعاية لها ــ وقسيس الشعب الذي يطلع على اسرار رعاياه اذا كان صادق التدين طيب السريرة كان وجوده بركة وسعادة لانه يستخدم تلك المعرفة للتوفيق بين بنيه وازالة ما يكدر صفوهم من سوء التفاهم . اما اذا كان طماعاً منافقاً فانه يكون شرا عظيما عليهم لانه يستخدم تلك الاسرار لسلب الاموال والتمتع بالسيادة وغيرها من مطالب العالم

أما الاب منقريوس فكان شيخاً جليلا قد ابيض شعره واسترسلت لحيته . لامطمع له في شيء من حطام الدنيا وانما همه خدمة رعيته والتوفيق بينهم . فلما رأى دميانة على تلك الحال فى ساعة لم يتعود أن يراها فيها بالكنيسة ابتدرها بالكلام ليجرئها على بث شكواها فقال « كيف أنت يا ابنتي ؟ »

فهمت بالكلام فسبقتها العبرات فاطرقت حياء ووجلا فقال « ما بالك

تبكين ؟ . . . ان من كان في مثل حالك من التقوى والاعتقاد بالسيد المسيح لا ينبغي له ان يحزن أو يخاف »

فتشددت وقالت « نعم يا سيدي صدقت وأنا قد جئت الآن لاعترف لك بأمر اتعبني وأقلق ضميري فهل تسمعه ؟ »

قال « كيف لا ؟ . . تفضلي الى كرسي الاعتراف » قال ذلك وتحول الى كرسي بجانب الهيكل يقعد عليه لسماع أقوال المعترفين وأمرها ان تقعد على كرسي بين يديه . وبعد ان تلا بعض الصلوات أو الطقوس التي تتلى في مثل هذا الوقت قال لها « قصي خبرك يا دميانة ولا تخافي فانك تخاطبين نفسك ومهما يكن من خطارة سرك فانه يبقى مكتوماً لا يعلم به أحد كأنك تناجين الله في ضميرك »

فأطرقت دميانة خجلا وقد بدا الاصفرار في وجهها وسكتت فقال « قولي يا ابنتي قولي »

الفصل الثالث

الاعتراف

فرفعت بصرها اليه وتناولت يده وقبلتها وبللت قفاها بدموعها فاجتذب يده منها وقال « قولي يا دميانة لا تخافي يا ابنتي . . . ولا أظنك تقولين شيئاً أجهله لاننا معاشر القسيسين لا يخفى علينا شيء من أسرار الرعية بما وهبنا السيد المسيح من سر الاعتراف وواجباتنا ان نستخدم تلك المعرفة في الاصلاح بين الناس وتخفيف متاعبهم . وانت تعلمين اني بمنزلة ابيك وقد عرفتك وانت طفلة وعرفت والدتك من قبلك ولا تخفى علي خافية من أحوالك »

فلما سمعت قوله صاحت « تعرف ما في نفسي ؟ صحيح تعرف ؟ قل بحياة قدسك . قل ما تعلمه وخفف عني مشقة القول »

فتنحنح القسيس ومسح فمه ولحيته بمنديله وقال « لا يا ولدي لا يجوز ان أبدأ بالقول ولكنني قلت لك ذلك لاهون عليك التصريح »

فقالت « أتعرف جارنا أبا الحسن البغدادي نزيل هذه القرية »

قال « كيف لا أعرفه ؟ أليس هو صاحب هذا القصر بجانب قصر أبيك ؟ »

قالت « نعم هو . . انه بالحقيقة من أهل اللطف والانس وأراه يحب القبط ويلاطفهم ويحاسنهم خلافاً لسواه من أهل الدولة »

فلم ير القسيس رابطة بين ما سمعه وما كان يتوقع ان يسمعه ولكنه ظنها تتدرج في الحديث على سبيل الاسترسال فقال «أراك تحسبين اضطهاد أهل الاسلام للاقباط قاعدة من قواعد حكومتهم .. والواقع ان ذلك يختلف باختلاف الرجال فقدكان المسلمون في أوائل دولتهم بمصر أكثر الناس رعاية لنا ورفقاً بنا واحتراماً لعاداتنا وطقوسنا وقد تخلل ذلك اضطهادات كان الحق في بعضها علينا لطمع كبارنا بأموال الدولة والامساك عن دفع الخراج أو الجزية ومنها السنة التي جاء بها المأمون وقد عاقبنا أشد العقاب مما لا محل لتفصيله الآن . أما أبو الحسن فهو رجل عاقل ومعتدل . عرفت اعتداله على الخصوص من تساهله في معاشرتنا واقتناعه بجزء من هذه الكنيسة لصلاته وقد رأينا غيره يحولون الكنائس الى جوامع (١) » ثم سعل وبلع ريقه وقال «وهناك سبب آخر لتقربه منا لا أظنك تعرفينه .. وهو ان أبا الحسن هذا ينتمي الى طائفة من المسلمين يقال لها الشيعة العلوية يضطهدها رجال الدولة لانها تخالف مذهب الخليفة وأمرائه كما كان حالنا قبل الاسلام اذ انقسمت الكنيسة الى ملكية ويعقوبية وكانت دولة الروم تنصر الملكية لأنهم على مذهبها وتضطهد اليعاقبة حتى تمنى هؤلاء خروج هذه البلاد من حوزتها وقد حصل . . ألا تذكرين يوم جاءت أوامر المتوكل خليفة بغداد الى قبط مصر منذ بضع عشرة سنة . . أظنك لا تذكرين ذلك لانك كنت طفلة — انه بعث الى عامله بمصر يهدم الكنائس المحدثة بعد الاسلام ونهى

(١) المقريزي ٢٦١ ج ٢

أن يستعان بهم في الاعمال أو ان يظهروا الصلبان في شعانينهم وأمر ان يجعل على أبوابهم صور شياطين من الخشب وأن يلبسوا الطيالسة العسلية ويشدوا الزنار ويركبوا السروج بالركب الخشب بكرتين في مؤخر السرج وأن يرقعوا لباس رجالهم برقعتين تخالفان لون الثوب قدر كل واحدة اربع أصابع ولون كل واحدة غير لون الاخرى ومن خرجت من نسائهم تلبس ازاراً عسلياً ومنعهم عن لبس المناطق وغير ذلك(١) وما زالت هذه الاوامر جارية حتى تولى ابن طولون فابطلها

« والشيعة قد اصابهم في ذلك الوقت من الاضطهاد نحو ما اصابنا فان ابن الخليفة الذي نحن بصدده كتب الى عامله بمصر ان لا يقبل علوي ضيعة ولا يركب فرساً ولا يسافر من الفسطاط الى طرف من اطرافها وان يمنعوا من اتخاذ العبيد الا العبد الواحد ومن كان بينه وبين أحد من العلويين خصومة من سائر الناس قبل قول خصمه فيه ولم يطالب ببينة(٢)

« وطبيعي يا ابنتي ان الذين يقاسون الذل معاً يتآلفون ويتحابون ولو بعدت أصولهم وتباينت مذاهبهم »

وكان القسيس يتكلم ودميانة تظهر الاصغاء وفكرها يشتغل في تهيئة عبارة تبدأ بها شكواها أو تبث بها غرامها. فلما فرغ من كلامه قالت « وسعيد المهندس ضيف ابي الحسن أو ابنه أو مولاه هل تعرفه ؟ »

فنظر القسيس اليها خلسة فوجد سحنتها تغيرت وامتقع لونها وأبرقت عيناها فادرك ان ظنه لم يكن مخطئاً فاراد أن يشجعها على التصريح فقال « وأنت . . . ألا تعرفينه يا دميانة ؟ »

فلما سمعت سؤاله نزلت عن الكرسي وجثت بين يديه وأخذت تبكي وتهم بالكلام فيمنعها البكاء فصبر عليها حتى هدأ روعها فقال « اظنك تحبينه . انه شاب حميد الخصال بارع ماهر »

فتنهدت دميانة وهي تمسح دموعها وقالت « نعم يا ابتي ... اني أحبه . وهذا هو الامر الذي جئت لاعترف به واستغفر الله من أجله . . احببته

(١) تاريخ التمدن الاسلامى ١٣١ ج ٤ (طبعة ثالثة) (٢) المقريزي ٣٣٩ ج ٢

رغم ارادتي يا سيدي وأنا لم اخاطبه بعد . وانما كنت اشاهده داخلا الى منزله أو خارجاً منه وربما حياني بكلمة أو اشارة لاتتجاوز الكلمةوجوابها ولكنني كنت اسمع بخصاله ومناقبه ومهارته بالهندسة . ولم يتفق لى اني اجتمعت به في مكان لان أبي لا يريد ان يرى أبو الحسن أحداً من اهله النساء فحجبنا عنه كما يحجب ذاك نساءه عن رجالنا وقد فعل حسنا فان في ذلك دفعاً للشر وكثيراً ما حاولت البعد وغض الطرف لعلي انسى فلم اقدر »

قالت ذلك وعادت الى البكاء

فقال القسيس « تبكين لانك احببت سعيداً . . . وهل الحب محرم ؟ »

قالت « انما ابكي لاني احببت رجلا لاسبيل لي اليه وان كنت لم احبه بارادتي . ولكنني احسبني اخطأت خطيئة عظمى لاني احببته وهو مسلم »

ففهم القسيس سر اضطرابها فأنهضها وأجلسها على الكرسي بجانبه وهو يبتسم فلما رأته يبتسم خف اضطرابها ولبثت تنتظر ما يقوله فقال « وما الذي جعلك تحسبينه مسلماً ؟ »

قالت « لان اسمه سعيد ولم أعرف أحداً سمي به غير المسلمين وقد سمعت أنه يلقب بالفرغاني وهذا أيضاً من ألقاب المسلمين وزد على ذلك اني لم أره في هذه الكنيسة ورأيته مقيما مع ابي الحسن كاحد أولاده . . »

قال « اما اسمه فابو الحسن سماه سعيداً وليس ما يمنع تسميته به . وكذلك اللقب فانه لقب به نسبة الى أحد اساتذته المسلمين الذين أخذ الهندسة والرياضيات عنهم في بغداد مدينة العلم لانه سافر اليها مع ابي الحسن وتلقى العلم فيها . وأما الصلاة في الكنيسة فانه لم يتخلف عنها إلا وهو غائب عن القرية في عمل او سفر ولعله كان يأتي متأخراً فلا ترينه »

قالت والدهشة بادية في محياها « ليس هو مسلماً ؟ »

قال « كلا يا ابنتي انه مسيحي مثلك »

فلما سمعت قوله وثبت من مجلسها رغم ارادتها وحملقت بالقسيس وقالت « مسيحي نصراني مثلنا ! »

قال « نعم مسيحي يا ابنتي »

قالت « هل أنت مؤكد ذلك ؟ »

قال « لا ريب عندي في نصرانيته وقد جلس على هـذا الكرسي واعترف لي مراراً »

قالت «جلس على كرسي الاعتراف ؟ واعترف لك ؟ . . وأطلعك على مكنونات قلبه ؟ .. آه . . هل اعترف لك انه ؟ . . » وهمت أن تسأله اذا كان اعترف بحبه لها ثم تراجعت خجلا وعلمت ان سؤالها يخالف قانون الاعتراف فاطرقت وسكتت

فقال « يكفي انك عرفت انه مسيحي »

فتنهدت وقالت « نعم يكفي » ثم رفعت رأسها نحو السماء وقالت « اشكر الله على ذلك » وغلب عليها الفرح حتى ضحكت والدمع يقطر من عينيها وهي تردد قولها «هو مسيحي .. سعيد مسيحي » ثم انتبهت الى ان مسيحيته لا تكفي وحدها لاطمئنان قلبها في الحصول عليـه . فسكتت وجعلت تتشاغل بمسح عينيها واصلاح نقابها ثم قالت « وهل يعـد حبي له خطيئة يا أبانا ؟ »

فاجابها القسيس « ان الحب الطاهر يا دميانة ليس خطيئة بل هو من الفضائل التي يثاب الناس عليها ونظراً لما اعلمه من تقواك وتعقلك لا أخاف تورطك وخروجك عن الحدود التي وضعتها الكنيسة »

فقالت «معاذ الله ان أفعل مايخالف تعاليم الكنيسة ولكن هل تظن والدي .. » قالت ذلك ومنعها الحياء عن الكلام

فادرك انها تسأل اذا كان والدها يمانع في زواجها به فقال «ان والدك صعب المراس ولا أدري اذا كان يرضى به بعلا لك .. »

فقالت «اذا كنت قدسك في مكان والدي هل ترى سعيداً لائقاً بي؟»

قال « اني أراه أهلا لك لانه من خيرة الشبان تعقلا وذكاء ومهارة ولاسيما الآن فانه قد أحرز ثقة صاحب مصر احمد بن طولون نظراً لمهارته في فن الهندسة ففضله على مهندسي مصر كافة أظنك تعلمين سبب ذلك »

قالت « كلا . . وما هو ؟ »

قال «لما أفضت حكومة مصر الى ابن طولون هذا وهـو تركي الاصل وجنده أتراك وسكان الفسطاط (قصبة المسلمين بمصر) عـرب لا يرضون الرضوخ له لانهم هم أصحـاب الدولة ومنهم ظهر النبي صاحب الشريعـة الاسلامية وكانوا في أول الاسلام يعدون الاتراك والفرس وغيرهم من الامم الاخرى أقل منهم مرتبة وكانوا يسمونهم الموالي . فلما تغلب العنصر التركي في بغداد على أيام المعتصم انحط شأن العرب وخرجت مقاليـد الدولة من أيديهم وتولاها الاتراك أو الفرس أو غيرهم فاصبح العرب ينظرون الى هؤلاء بعين الغدر والحسد . وعلم ابن طولون ذلك فلم يعد يأمن القيام بينهم فعزم على أن يبني لنفسه بلداً خاصاً يجعله معقلا له ولجنده فابتنى بين الفسطاط والمقطم قطائع أنزل فيها رجاله وبنى قصراً له فاعوزه المـاء لان القطائع بعيدة عن النيل ومرتفعة عنه لا يسهل الاستقاء بها فاراد أن يجر الماء اليها فلم يجد من يستطيع ذلك الا سعيداً فانه تعهد له بجره وقد وضع له رسماً هندسياً لم يستطعه سواه وباشر العمل وأظنه فرغ منه الآن وجرى المـاء الى القطائع في جهة تعرف بالمغافر وعمـا قليل يحتفل ابن طولون بمشاهدة هذا الماء يجري فاذا رأى العمل متقناً كافأ سعيداً مكافأة يحسده عليها كثيرون »

فسرت لاول وهلة سرور المحب بما يناله حبيبه من الرقي ثم انقبضت نفسها مخافة أن يحول ذلك الرقي دون مرادها وهي الى تلك الساعة لم تعلم رأيه فيها وان كان قلبها يدلها على تبادل المحبة بينهما. فأصبحت كثيرة الشوق الى مقابلته لترى ما يبدو منه ولا تعرف وسيلة للاجتماع به لانه كان يقضي معظم أيامه في الفسطاط أو القطائع

وعلم القسيس انها قد فرغت من الاعتراف فوقف ووقفت فرفع يده على رأسها وباركها وصلى ودعا لها فقبلت يده والصليب الذي يحمله وخرجت وانصرف هو الى غرفة يقطنها بلصق الكنيسة ولم يعرض عليها من يوصلها الى بيت أبيها وقد أمسى المساء لعلمه انها لا تخرج الا وخادمها العم زكريا معها . ولم يدر انها أتت وحدها خلسة في ذلك اليوم

الفصل الرابع

سعيد

ولما خرجت من الكنيسة كانت الشمس قد غربت وأخذت الاظلال تتكاثف ولكن القمر كان في ربعه الاول . ظلت بضع دقائق تتردد بين ان تطلب من القسيس من يوصلها الى بيت أبيها أو تسير وحدها وكانت وهي تفكر في ذلك تخطو بغير انتباه حتى تجاوزت تلك النخلة وأطلت على البساتين . وأشرفت على النيل وقد اكمد لون مائه من ظل السماء لكن سطحه زاد لمعاناً لتكسر ضوء القمر على وجهه المتجعد كأن الزمان أثر فيه فتكمش مثل تكمش وجوه الشيوخ . فعولت دميانة على المسير وحدها وهي تستغيث بأم الاله صاحبة تلك الكنيسة وحامية تلك الناحية ان لا يراها أحد حتى تدخل غرفتها

وهي في ذلك سمعت وقع حوافر جواد تعودت ان تسمع مثله ماراً بجانب منزل أبيها وسمعت صهيل الفرس تخفق قلبها لعلمها انه فرس سعيد ولانها ستلتقي به منفردة في ذلك الليل هناك وهي لم تتعود هذه الحرية ولا سبق لها مخاطبة سعيد بغير التحية بين يدي والدها وزد على ذلك انها خارجة من ذلك الاعتراف وقد تنبهت شعائرها فوقعت في حيرة بين ان تتوارى عن الطريق حتى لا يراها أو تقف له وتغتنم تلك الفرصة لمعرفة ما في نفسه منها وكلا الامرين شاق عليها

وهي تتردد وتعمل فكرتها رأت الفارس أصبح أمامها وحالما وقع بصره عليها عرفها فترجل بأسرع من البرق وتقدم وهو ممسك لجام الفرس بيساره ووقف بين يدي دميانة وقفة احترام وتخشع وعليه لباس السفر وعلى رأسه بدل القلنسوة أو العمامة الكوفية والعقال وقد التف بعباءة من الحرير فوق

القباء والسراويل . وكان أسمر اللون بيضي الوجه عسلي العينين مع وداعة وذكاء قصير الحاجبين صغير الفم خفيف الشاربين واللحية تلوح الصحة في محياه ويتدفق الذكاء والحدة من عينيه — واتفق وقوفه مواجهاً للقمر فظهرت تلك الملامح ظهوراً واضحاً وزادها ضوء القمر هيبة

أما هي فكان الضوء واقعاً على جانب رأسها فاكتسب وجهها من تكسر الاشعة واختلاف كثافتها على تقاطيعه رونقاً . وكانت عيناها قد ذبلتا من البكاء بين يدي القسيس فزادتا ذبولا عند رؤية سعيد لما جاش في خاطرها من لواعج الحب وما يتنازعها من عوامل الدهشة والرجاء والخوف فوقفت كالصنم لا تتحرك . لكنك لو جسست يديها أو سمعت حركة قلبها لظننتها بطارية كهربائية عليها مرجل يغلي ماؤه ويتدفق بخاره لما يبدو لك من أدلة ذلك في ارتعاش أناملها وخفوق قلبها واصطكاك ركبتيها

أما هو فتقدم نحوها بخشوع ووقار وكلها — وطالما تمنى ان تسنح له مثل هذه الفرصة إذ لا حرج عليه اذا خاطب الفتاة يعرض عليها خدمة لانفرادها هناك في ذلك العشاء فقال « هل تأذن سيدتي دميانة بمخاطبتها »

فلم تجب بلسانها وانما أجابت بعينيها ولم تحركهما فقال « أراك وحدك هنا ولعل خادمك أبطأ عليك فهل تأمرين ان أكون في خدمتك الى المنزل أو حتى يأتي الخادم فأتشرف بهذه الخدمة »

فأطرقت وهي تصلح طرف نقابها وقالت بصوت تخامره بحة «أشكرك يا سيدي وأخشى ان يكون في ذلك تعب عليك »

قال « كلا . . وإذا خفت التعب لان الطريق طويل فاركبي هذا الفرس وأنا أقوده وأرعاه ولا بأس عليك منه »

فقالت وقد استأنست بتلطفه واستدلت منه على انه يضمر لها مثل ضميرها له « لقد بالغت في التلطف يا سيدي بل يكفيني حظاً ان أمشي الى جانبك فأكون في ظلك لا أخشى بأساً ولا أخاف تعباً « قالت ذلك وهي تكاد تشرق بريقها من شدة الاضطراب وتشاغلت بالمسير وهي تتعثر بثوبها وركبتاها ترتعدان

الفصل الخامس

المشاكاة

فتبعها سعيد وهو يقود جواده وقد رأى المقام ذا سعة ليشكو لها ما يكنه ضميره فقال « اذا سرنا معاً فانا أكون في ظلك يا سيدتي لانك صاحبة هذه الارض ومالكة رقاب أهلها وقلوبهم وما أنا في شيء من مثل ذلك كما تعلمين »

فالتفتت اليه ونظرت نظرة عتاب وقالت « لا تقل يا سيدتي »

فقال « وماذا أقول اذاً ؟ »

قالت « قل يا دميانة وهذا يكفي »

فلما سمع قولها تهلل وجهه فرحاً وقال « هل تاذنين بذلك . . . هل تأذنين أن أسميك باسمك فقط ؟ »

قالت «بشرط أن تأذن لي أن أدعوك سعيداً »

قال «أنت صاحبة الاذن الاول ويكفيني حظاً انك أذنت أن أكون في خدمتك هذا المساء في أثناء الطريق .. على أني أرى مسافة هذه الخدمة قصيرة فهل يتاح لي يا ترى أن تطول مدتها ؟ »

فتراجعت ونظرت اليه نظرة تغني عن خطاب طويل وقالت « لا تقل خدمة فانما هي رفقة »

فقال « وهل تأذنين أن تطول هذه الرفقة يادميانة » قال ذلك وفي غنة صوته معنى لا يعبر عنه بالكتابة

فأدركت تلميحه وفهمت مراده فأخذ الهيام منها مأخذاً عظيماً وسرها تصديه لهذا السؤال فنظرت الى وجهه على ضوء القمر وعيناها شاخصتان بيسمه وقالت وصوتها يرتجف « طول الحياة . . . » وغلب عليها الحياء وتوردت وجنتاها وأطرقت تنتظر جوابه فلما أبطأ خافت أن تكون قد

تسرعت بهذا التصريح فتباطأت فى المسير فطاوعها سعيد فى التباطؤ ولحظ استغرابها سكوته فقال « قد تستغربين سكوتي يا دميانة بعد أن سمعت كلمتك الثمينة التي قلدت بها عنقي ... انما سكت من الدهشة والاكبار لاني شعرت بالانتقال فجأة من مصاف الاشقياء الى مراتب أهل السعادة . . . ان هذه الكلمة يا دميانة كتاب كبير ومجلد ضخم ... بل هو وحي سماوي نزل على قلبي فأناره وأراني مستقبلا مجيداً لم أكن أحلم به وفوق ما كنت أطمع بمثله . . . بل هي روح حلت في ميت آمالي فبعثته من القبر . . . مرت بي أحلام الصبا يا دميانة وحدثتني نفسي بضروب من السعادة تخطر فى اذهان الاحداث ويندر أن ينالوا عشر معشارها فلم يخطر ببالي سعادة كالسعادة التي اكتنفتني عند سماع هذه الكلمة الثمينة... انها أبلغ ما نطق به الشعراء وأسمى ما خطر على بال بشر .. طول الحياة ..؟ أطال الله حياتك يادميانة حتى تطول أسباب سعادتي ..» ثم تراجع وقد انتبه لتسرعه في تفسير قولها والتفت اليها وهي تنظر اليه وقد حدقت بصرها في وجهه كأنها تهم أن تحتضنه باجفانها فأحس بسهم أصاب قلبه وانه غلب على رشده فقال «اخشى يادميانة اني تسرعت في مرادك . هل تعنين ما فهمته ؟ . . أم غلب علي الوهم ففهمت ما أعناه ؟ »

فتنهدت تنهداً عميقاً وقالت « أبعد ما تراني فيه من دلائل ال...تغالطني وتطلب مني زيادة الايضاح ... اشفق على عواطفي واكتف بما تراه من اضطرابي . . . وبعد ما ظهر لي من احتفائك بتلك الكلمة ومغالاتك في قيمتها . كيف لا أعني ما فهمته . . نعم انك قد فهمت مرادي كأنك تقرأ أفكاري .. ولا عجب فانك مقيم في قلبي

فلم يتمالك أن صاح من الفرح والدهشة « مقيم في قلبك ؟ حبذا المقام ان لم يكن فيه تثقيل عليك . . ماذا أقول يا دميانة وقد غلبتني على أمري وضيقت على أبواب الكلام .. فأعترف بعجزي عن الخوض في هذا البيان وأكتفي بعبارة بسيطة فأقول اني أحبك حباً يكفي للتوفيق بين الملكية واليعاقبة ونزع ما بينهما من الضغائن . أو التأليف بين الاقباط والمسلمين

حتى يصيروا أمة واحدة . ولا أطلب منك التصريح بما في قلبك فقد عرفته وأخشى ان اسمع كلمة أخرى تأخذ بلاغتها بعقلي . . »

وكانا يتشاكيان ويتكاشفان الاسرار وهما يسيران والفرس يسير في اثرهما لا يسمع لحوافره وقع كأنه شعر باتقاد ذينك القلبين وأدرك حاجة صاحبيهما الى السكينة فشارك الطبيعة بالهدوء تهيباً من سلطان الحب واكراماً لذينك الحبيبين في ذلك المساء المقمر . وأما الحبيبان فكانا ينقلان الخطى وهما لا يعلمان الى أين يسيران ولو مشيا على تلك الحالة اياماً لحسباها لحظات قليلة فكانا في شاغل عن حفيف الورق وتنادي الفلاحين و نباح الكلاب وصهيل الخيل كأنهما في عالم آخر

الفصل السادس

العم زكريا

وهما في تلك الغفلة رأيا شبحاً مقبلا يعدو من جهة بيت مرقس . رآه أولا سعيد فقال « أرى شبحاً مقبلا اظنه رجلا هل تعرفينه »

فالتفتت وتفرست فيه ثم قالت « انه خادمي العم زكريا . . وأظن والدي استبطأني فبعث يتعجل مجيئي »

فعلم سعيد انه لا بد له من مفارقتها فقال « ان هذا العم سيأخذك مني او بالحري سيفصل بيننا »

فقطعت كلامه قائلة « موقتاً ان شاء الله »

فردد قولها « موقتاً ان شاء الله » مراراً ثم اجتذب اللجام حتى اقترب الفرس منه وقال وهو يحك جبهة الفرس « والآن انت ذاهبة الى بيت ابيك وستلهين عني بالخدم والجواري وبمعدات السعادة واما انا فلا انيس لي الا خيالك »

قالت « لا يشغلني عنك شاغل بعد ما دار بيننا » وكأنها ارادت اتمام

الحديث فمنعها الحياء فقاطعها قائلا « لا تطول مدة الفراق ان شاء الله
قالت « ذلك يتوقف على رأيك و . . . »
قال « أنا ذاهب في الغد الى الفسطاط لارى ما يأمر به اميرنا ابن طولون بعد فراغي من بناء العين وجر المياه وسيعين يوماً يحتفل به بجرها وسأنال المكافأة وأرجو أن تسرك . وعند ذلك اتقدم الى الامر الذي جرأني عليه من فضلك. فاستودعك الله الان » ومد يده اليها فمدت يدها فصافحها وضغط على اناملها وأحس ببرودها فاجابته بمثل ذلك وأومأت الى القمر وهي تنظر في عينيه ولم تقل شيئاً ففهم مرادها وقال « وانا استشهد هذا الكوكب السيار على عهدنا » والتفت فرأى العم زكريا يتباطأ بمشيه عمداً كأنه علم ما بينهما وأراد مساعدتهما عليه . فلما رآهما يتصافحان تقدم اليهما وحياهما بتأدب وسكينة

وكان زكريا كهلا اجروداً اصله خصي اسود ربي في صباه عند ملك النوبة ثم تنوقل بالهدية حتى وهب لدميانة ليلة ولادتها على أن يكون في خدمتها الى آخر حياته . وقد أخلص لها الخدمة ــ وهؤلاء الخصيان إذا صدقوا في حبهم كانوا أقرب مودة لاسيادهم من الاخوة أو الوالدين وكانت دميانة تأنس بزكريا وتكرمه وتناديه « يا عماه » وكان يعرف سعيداً معرفة جيدة ولم يفته مايكنه لدميانة ولا ما في قلب دميانة مع انها لم تذكرله شيئاً من ذلك . وكان يرى بينهما تناسباً ويتمنى أن يتم اقترانهما ــ فلما التقى بهما في تلك الخلوة بادرها قائلا « لقد شغلت بالنا يا مولاتي لغيابك ولو علمت انك التقيت بمولاي المهندس الماهر لما تحملت مشقة السعي اليك ولكن سيدي والدك قد أمر بالبحث عنك لتعجيل مجيئك »

قالت « يحق لكم استبطائي ولكنني شعرت بحاجة إلى الصلاة والاعتراف فجئت الى الكنيسة وطال وقوفي امام صورة سيدتنا والدة الاله فغابت الشمس قبل خروجي واتفق مرور جارنا الشهم فترجل عن فرسه ومشى معي »

فابتدرها زكريا قائلا « فوجب علينا شكره على هذه الاريحية »

والتفت الى سعيد وقال «أشكرك يا سيدي على تحملك هذه الثقلة فاذا شئت اركب فرسك الى منزلك وأنا أمشي في خدمة مولاتي الى البيت فانا على مقربة منه »

فنظرت دميانة فاذا هي بجانب بيت أبيها ولم تكن تحسب نفسها قريبة بهذا المقدار فبغتت وجعلت تصاح من شأنها وتهدىء روعها لئلا يبدو حالها لابيها. أما سعيد فودعها وركب فرسه وتحول الى منزل أبي الحسن وما زال يلتفت نحوها ويشير مودعاً حتى توارت عن بصره

أما دميانة فما مشت خطوات قليلة حتى رأت الانوار في حديقة بيت أبيها ووقع نظرها على ضفة النيل التي تليه فرأت أنواراً عديدة لم تعهد مثلها هناك فقالت «ما هذه الاضواء التي أراها في النيل ؟ »

قال « هذه سفينة المادراني صاحب الخراج وأهلها أضياف عندكم »

فتذكرت انها شاهدتها تخترق عباب الماء في أصيل ذلك اليوم فقالت « ما لنا والمادراني . لا أذكر انه يزورنا ولا أعرف وجهه فما الذي أتى به اليوم »

قال « هي سفينة المادراني ولكن المادراني لم يأت فيها »

قالت « من أتى بها اذاً ؟ »

قال « اسطفانوس ابن المعلم يوحنا كاتب المادراني وهو صديق سيدي والدك .. قد جاء في هذه السفينة الفخيمة مبالغة في الابهة »

فلما سمعت اسم اسطفانوس تغير لونها ووقفت وقد جمد الدم في عروقها . ولم يجهل العم زكريا سبب تلك البغتة ولكن تجاهل وقال « هيا بنا ياسيدتي فقد طال انتظار والدك قدومك »

قالت « طال انتظاره قدومي ؟ وهل يهمه امري ؟ وعنده من السراري والجواري ما يشغله عن هذه اليتيمة المسكينة التي ذهبت سعادتها بموت والدتها . . رحمك الله يا اماه » قالت ذلك وحرقت أسنانها وهي تقول « وما غرض هذا الشاب الجاهل من هذه الزيارة

يا ترى... أظنه جاء لمعاقرة الخمر مع والدي وتمضية الوقت بالمجون والخلاعة على جاري العادة »

فتأثر زكريا مما شاهده من حرقتها فاراد تشجيعها فقال « وما الذي يهمك من ذلك يا مولاتي ؟ »

قالت « كيف لا يهمني أمر والدي يا عماه ؟ ألا يهمني أن يكون من معاقري الخمر وأهل المجون ؟ هل رأيته ذاهباً الى الكنيسة أم هل سمعته يصلي؟وما الذي أبقاه لآخرته وأنت تراه يقضي أوقاته في الخلاعة والمجون وهو لذلك لا يصاحب الا من كان على شاكلته . . ما قولك برجل يتخذ اسطفانوس هذا صديقاً حميماً له ينفق امواله عليه ؟ »

فقطع كلامها قائلا « ألا تعلمين لماذا يصاحبه ويكرمه ؟ لا يخفى عليك سعة أملاك سيدي والدك وما يلحقها من الخراج الكثير وهذا الشاب ابن كاتب الخراج وله دالة على المادراني بواسطة ابيه فيخدم اباك في تخفيف مبالغ الخراج وقد مضت عدة اعوام لم يدفع أبوك من الخراج شيئاً »

قالت « بئس الاقتصاد . . أراه ينفق عليه في المآدب والعزائم والهدايا فوق ما اقتصده من الخراج . . ثم ان الخراج حق للحكومة لا ينبغي امساكه عنها فنكون قد سرقناها ان أهل الذمة والضمير لا يقبلون بذلك »

الفصل السابع

المائدة

وكان زكريا يمشي بين يديها وهما يسيران الهوينا لاتمام الحديث قبل الوصول الى المنزل فاستغرب تعقلها وصدق نظرها لانه سمع منها قولا لم يسمعه الا من كبار الرجال المتفانين فى نصرة الحق والعدل. ثم تذكر تقواها وتدينها فادرك ان ظنها ناشيء عن قول المسيح « اعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله » — وفكر في امرها وما يهمها من أمر أبيها فاستوقفها وقال

« ان الذي يهمك من هذه الشكوى أمران الاول انك تخافين ان يبذر والدك أمواله فيضيع حقك من الارث و . . . »

فقطعت كلامه قائلة « ان المال لايهمني كثيراً ولكن لدي امر آخر أهم منه »

فقال « لوصبرت لأتمم حديثي لاستغنيت عن هذا البيان . . والامر الثاني انك تكرهين اسطفانوس وتكرهين عشرته وتخافين أن تؤول صداقة والدك الى تمكين عرى القرابة معه فتعود العائدة عليك وانا أعلم انك تبغضين هذا الشاب كما تبغضين جهنم . . . »

فسرها ان العم زكريا فهم مرادها وعرف مايكنه ضميرها واحسن التعبير عن مقدار بغضها اسطفانوس وبالحقيقة ان اباها لمح لها مرة انه يحب اقترانها به فلم تجبه على أنها لاترى كل ذلك شيئاً يستحق الذكر بالنسبة الى حرمانها من سعيد ولا سيما بعد الذي سمعته في تلك الليلة . وهمت أن تبوح بذلك لزكريا فمنعها الحياء . وكان زكريا يمشي بجانبها والمصباح بيده فلما آنس منها الاطراق والسكوت والتفكير رفع المصباح الى وجهها وتفرس فيه وهو يبتسم وقال « وقد قرأت في وجهك شيئاً آخر » وتنحنح وسعل وصبر هنيهة ثم قال « ان سعيداً رجل شهم وهو وحده أهل لك . . . »

فلما سمعت قوله بهذه الصراحة زادت ضربات قلبها وتولاها الخجل ولم تجب فابتدرها هو قائلا « وهذا الامر على خطارته لا ينبغي ان يهمك كثيراً . . انك ستنالين كل ما تريدين باذن الله ونعمة يسوع المسيح. (وكان العم زكريا نصرانيا مثل سائر أهل النوبة في ذلك العهد)— ستنالين سعيداً وسيذهب اسطفانوس هذا مخذولا وستكونين صاحبة هذه الثروة وحدك أي وقت شئت . . انما يجب علينا ان نتوخى التؤدة والحكمة والله المستعان » قال ذلك وأمارات الجد بادية في صوته ولو استطاعت دميانة التفرس في وجهه لرأت في عينيه معاني لا يعبر عنها بالنطق على انها فهمت قوة عزمه من لحن صوته كأنه يتكلم عن ثقة وسلطان لكنها حملت قوله

يحمل التحمس لها تخفيفاً عنها لانه يحبها ويريد راحتها

فقالت « اني لا افتر عن الصلاة والدعاء مساء صباح اتوسل الى السيد المسيح أن يبعد عني هذه التجارب وأرجو أن يصغى لطلبتي » وقد سرها تصدي العم زكريا للاخذ بناصرها فزادت استئناساً به واركانا اليه وهي تعتقد صدق ولائه واخلاصه . ومشيا حتى اقتربا من الدار ففتح لهما البواب فدخلا فاطلا على حديقة قد انيرت بمصابيح ملونة معلقة باغصان الشجر . وقد مدت المائدة تحت شجرة كبيرة تدلت المصابيح من أغصانها كالعناقيد وعلى المائدة الاقداح والاباريق وفيها أصناف الخمر يتخللها أطباق الفاكهة والاطعمة وباقات الرياحين . فتحولت دميانة نحو غرفتها وظل زكريا في طريقه حتى أقبل على سيده وكان جالساً على وسادة عالية بجانب المائدة وبجانبه صديقه اسطفانوس وقد لعبت الخمر في رأسيهما

الفصل الثامن

مرقس واسطفانوس

وكان مرقس كهلا متصابياً يؤلمه التفكير في كهولته واذا خطر له انه قارب الستين من عمره غالط نفسه وزعم أن اباه أخطأ في تعيين عام ولادته فكيف اذا سئل عن سنيه . على أنه كان شديد الغضب ممن يطرح عليه هذا السؤال ويعده وقاحة أو اهانة مثل كثيرين من كهول هذا الزمان الذين يشق عليهم أن يعرف الناس مقادير أعمارهم واذا ظهرت سن أحدهم ظهوراً لاسبيل الى انكاره يسره أن تظهر استغرابك لما سمعته وتقول له « يظهر انك اصغر سنا من ذلك كثيراً » فيعد قولك تقريظاً له فيثني على حسن ظنك فيه كانك اطريت مناقبه فذكرت مآثره في المجتمع الانساني أو تفوقه في العلم على اقرانه أو ابلاءه في الدفاع عن وطنه . . !

وكان صاحبنا مرقس من أهل هذه الطبقة وقد زاده تمسكا بظواهر

الشباب انصرافه الى ارضاء سراريه واكتساب اعجابهن فكان لا يدخر وسعاً في اخفاء علامات الكهولة واصبح منذ انصراف الشباب اذا ابيضت شعرة فى شاربيه أولحيته أو رأسه نزعها. فلما تكاثر الشيب عمدالى الخضاب يسوديه « وجهه » بدلا من أن يكون الشعر نظيفاً كما خلقه الله يطليه بكلس أسود كما تطلى الجدران بالكلس الابيض أو يصبغه بالعقاقير كما تصبغ الجلود أو الانسجة فهو يخدع الناس لانه يريهم من حاله غير ما هو عليه وذلك من قبيل الرياء لكنه مستحسن عند الاكثرين . واكثرهم لو توسم فيك مداجاة أو خداعاً لاحتقرك وتجنب عشرتك وفاته انه يداجى الناس بخضابه فيريهم من احواله غير الواقع — يوهمهم أنه شاب وهو كهل وانه اصغر سناً مما هو كانه سئل عن عمره فكذب مع انه يكره كل انواع الرياء والكذب الا الخضاب فانهم يعدونه من قبيل المبالغة في اصلاح الهندام وأول شروط الهندام النظافة. . . وابعد الخاضبين عن الهندام من يخضب شاربيه ويترك شعر رأسه ابيض

على ان بعض الكهول لا يريد بالخضاب ايهام الناس انه شاب وانما هو يكره الشعر الاشمط . أما مرقس فانما أراد بالخضاب الاحتفاظ بمظاهر الشباب بين يدي أهله ولذلك كان اذا أحس بانحطاط فى قواه لسبب من الاسباب عمد الى المنبهات فشرب الخمر واكثر فيطعامه من اللحوم الحارة والافاويه وتنشق العطور ولازم الراحة والخمول وهما من بواعث السمن فانتفخ وجهه وجحظت عيناه وغلظت عنقه وتعالى صدره وبطنه فاصبح لقصر قامته اذا لبس السراويل والقباء يكاد يكون عرضه يساوي طوله. واذا تفرست في وجهه رأيته لا يبرح ضاحكا مسرورا كأن الطبيعة طوع ارادته لايخاف مستقبلا ولا يرهب قدراً مخبأ . انما همه ان يتمتع بالحياة جهد طاقته فلا يسره الا مجالسة المنهمكين على شاكلته وينفر من أحاديث الجد . بل هو لا يقوى على اعمال الفكرة برهة بغير أن يمل ويضيق صدره ولعل السبب في ذلك تعوده الابتعاد عن التعب بعد ان اتته تلك الثروة الهائلة فاصبح لا يفتقر الى العمل

وكان من جملة أدلة رغبته في المحافظة على الشباب أنه لا يصاحب الكهول لانهم يغلب فيهم الرزانة والبعد عن المجون والتهتك فكان يعاشر الشبان ويقلدهم في حركاتهم وسكناتهم فيجالسهم ويشاربهم ويؤاكلهم وكان حديثه طلياً فكها يتخلله كثير من النكات والمغامز اللطيفة فاذا سمع نكتة ضحك لها وقهقه طويلا

وكان اسطفانوس من جملة عشرائه الشبان وهو في نحو الخامسة والعشرين من عمره وكان مرقس عشير أبيه من قبله — واما والد اسطفانوس فكان رجلا عاقلا وجيهاً اسمه المعلم حنا ترقى في مناصب الدولة حتى صار كاتباً للمادراني صاحب الخراج ونال نفوذاً كبيراً وجمع ثروة حسنة وقد احسن كل عمل عمله الا تربية ابنه اسطفانوس لانه كان ضعيفاً من جهته أو لعل الذنب ليس له بل للفطرة لانك اذا تدبرت أحوال الناس في تربية ابنائهم قلما رأيت للتربية تأثيراً في ذلك وما هي الا كالصقل للمعدن تجلو ظاهره ولا تغير جوهره . ومهما يكن السبب فقد شب اسطفانوس على الانهماك باللذات والاخلاد الى الرخاء ولم يكن مضطراً الى العمل ولا فيه ميل اليه فنشأ في عيش سهل لاهم له الا ماذا يأكل أو يشرب وكان وحيداً لابيه وله دالة عليه لا يطلب امراً الا ناله . وعرف مرقس ذلك فازداد رغبة فى تقريب اسطفانوس منه فضلا عن توافقهما في الطباع وقد استفاد من عشرته اغضاء جباة الخراج عن تحصيل خراج اطيانه عدة اعوام

وكان اسطفانوس يتقرب من مرقس لثروته وقد شاهد دميانة من صغرها فاحبها . وكان جميل الخلقة معجباً بشبابه وعنده ان الانسان انما تقاس منزلته بمقدار جماله — وقد يصح هذا الزعم في النظرة الاولى وربما تعداها الى ما بعدها فانك ترى اكثر الناس يأخذون الامور بظواهرها . وكم من غبي لولا جمال طلعته وفخامة شكله لمات جوعاً ولكنه يجد بين البسطاء مرتزقا ويلقي بينهم من يصغى الى قوله ويأتمر بامره . بل ترى الجماعات من النساء والرجال والاطفال يصغون ويأتمرون — كم بين سكان القرى من كهنة اغبياء اذا ذكر الرعية فضائلهم اسمعوك الاطناب بتلك القامة الطويلة والوجه الجميل

واللحية الكبيرة والكف البيضاء السمينة والصوت الرخيم أو الجهوري . وقد يقتصرون على هذه الحسنات فلا يهمهم شيء من علمهم او ادارتهم أو تدينهم . فبين هؤلاء وامثالهم من زعماء العامة جماعات لولا فخامة مظاهرهم لماتوا جوعاً

واعتبر ذلك في غير العامة ممن تأخذهم الظواهر فينخدعون بها ولاسيما في اختيار الازواج -- فكم من فتى غره الطرف الكحيل والخد الاسيل والقد الرشيق وكم من فتاة خدعها جمال الطلعة وفخامة المظهر وقد يكون وراء ذلك ما يبكي العيون ويدمي القلوب . ولم يخل عصر من شبان يعولون في التزوج على جمالهم (فقط) وكان اسطفانوس من هؤلاء وقد طمع بدميانة لجمالها ومالها وهو يعتقد ان امرها راجع الى ابيها فجعل يتزلف اليه بالخدمة أو باطراء ذكائه وطلاوة حديثه ويحاول التغلب على رأيه من موضع الضعف فيه فيطنب بما في وجهه من نضارة الشباب وان من يراه يحسبه لم تتجاوز سنه الثلاثين . وكان من الجهة الاخرى يحسب رضا الفتاة مضمونا ان لم يكن لجاه أبيه أو لخاطر أبيها فلجماله فكان اذا زارهم أصلح من شأنه وتطيب ولبس احسن ثيابه وأثمنها وكانت دميانة تنفر من ذلك الهندام وتعده من قبيل التخنث أو الخلاعة ولا سيما بعد ان عرفت انهماك الشاب في المسكر ولكنها لم تكن تظهر له احساسها فاذا لم يعجبها مجلسه دخلت غرفتها تصلي وتقرأ أو تجالس بعض جواري القصر ممن ربينها من صغرها

الفصل التاسع

الدعوة

فلما أطل العم زكريا على مرقس واسطفانوس وهما على المائدة قال مرقس «أين كانت دميانة .. وما الذي اعاقها ؟ »

قال « كانت فى الكنيسة تصلي وتعترف وقد عادت »

قال « ادعها الى هنا لتتناول بعض الفاكهة »

فاشار مطيعاً وذهب اليها فرآها واقفة أمام المرآة الفضية وهي تبدل ثيابها وتتأهب للرقاد فقال لها « ان سيدي يطلب حضورك »

قالت « قل له اني ذهبت الى الفراش »

قال « اذا قلت ذلك لا يصدقني لانه رآك داخلة.. ولا أرى بأساً من جلوسك هنيهة معه ثم تعتذرين بالنعاس وتذهبين »

فاطاعته والتفت بمطرفها وخرجت الى الحديقة فاستقبلها أبوها ضاحكا



دميانة بلباس البيت تقرأ في كتاب الصلاة

مازحاً وقال « لقد طال غيابك في الكنيسة يا دميانة . . ألا تشبعين من الصلاة ؟ »

قالت وهي تجلس على وسادة في طرف البساط المفروش هناك « ان الصلاة لذيذة يا أبي » قالت ذلك وابتسمت تلذذاً بذكر الصلاة

فقال « فاذاً ستفرحين كثيراً اذا عرفت اننا ذاهبون غداً الى شبرا لحضور الاحتفال بعيد الشهيد » وضحك

فاطرقت وقد علمت من غنة صوته انه يعبث بها ويعرض بعبا لغتها بالصلاة ولما سمعت ضحكه قالت « ان عيد الشهيد عيد مبارك وفيه فضل وبركة لانه يبشر ببدء الفيضان إذ يلقون فيه التابوت وأصبع الشهيد وحالما يحل في النيل يأخذ ماؤه بالفيضان(١) لكنني أعلم أن الاحتفال به أصبح بطريقة لا ترضي الله إذ يتخذه بعض الناس فرصة لاراقة الخمور والتمتع بالشهوات»

فقال وقد تناول تفاحة جميلة ودفعها اليها « ما لك وللناس نحن نذهب لحضور الصلاة والاحتفال باخراج التابوت و . . »

فتناولت التفاحة من يده وقطعت كلامه قائلة « ولكن مثل هذا الاحتفال تتزاحم فيه الاقدام وتتحاك المناكب ويختلط الحابل بالنابل فلا يجد المرء موطئاً لقدميه »

فنظر اليها وهو يستخف بما تقوله وقال « كانك تحسبيننا ذاهبين لنقف مع الرعاع والعامة ... اننا ذاهبون مع صديقنا اسطفانوس في سفينة صاحب الخراج . . . اظنك شاهدتها راسية على الشاطىء فنركبها وفيها الغرف والمطابخ للطعام والنوم ونخترق بها النيل فنقف حيث نشاء وننظر الازدحام ونحن في سعة ونشاهد الاحتفال في راحة .. فيجب علينا ان نشكر صديقنا اسطفانوس على هذه الدعوة »

فلما سمعت دميانة قوله وعلمت أنها ذاهبة مع اسطفانوس استعاذت بالله وتراجعت حتى بدا التردد في عينها . أما اسطفانوس فتذرع بشكر مرقس الى الكلام فقال « العفو يا مولاي انما يجب علي ان اقدم فرائض الشكر إذا تنازلت السيدة دميانة ورضيت بالذهاب معنا »

فلم يزدها هذا التلطف الا نفوراً ووقعت في حيرة بين أن تقبل الدعوة فتقضي بضعة أيام مع اسطفانوس وهو ثقيل على قلبها أو أن ترفضها ولا تأمن أن يلح عليها والدها فتضطر للذهاب مرغمة فظلت ساكتة فقال أبوها « ما بالك لا تتكلمين يا دميانة الست مسرورة بهذه السياحة أو الزيارة »

(١) المقريزي

فسبقها اسطفانوس الى الـكلام وقد تناول الابريق بيده وأخذ يصب منه الخمر في قدح من الزجاج المنقوش وقال « لاحاجة إلى سؤالها فقد قالت انها لا تريد الذهاب » وفرغ من الصب فادنى القدح من فيه وقد أرسل رأسه الى الوراء فاسترق نظرة اليها بين القدح وكمه فرآها لا تزال مطرقة تتلاهى بالتفاحة بين اناملها وقد غلب الحياء عليها حتى توردت وجنتاها

فتصدى مرقس للجواب عنها وبيده اليمنى القدح يبعده عن فيه بعد أن شربه وأخذ يمسح باليسرى شاربيه وفمه وقال « كيف فهمت أنها لا تريد الذهاب وهي أرغب الناس في الصلاة والاحتفالات الدينية .. وكانت تخاف الازدحام فبعد أن علمت بذهابنا على الدهبية كما ذكرنا لاأظنها ترى مانعاً .. وفي كل حال فهي تذهب مع أبيها حيثما سار »

فادركت دميانة أنه يعرض بسلطته الابوية وأنه سيأخذها رضيت أم لم ترض فرأت الموافقة أليق فالتفتت الى اسطفانوس وقالت « ظننتني رفضت الذهاب . . ولا رأي لي بوجود والدي فاذا أمر اطعت »

فبش لها أبوها وقال « بورك فيك يا ولدي ولـكنني لا أحب أن اضغط على فكرك . . . فبنـاء على ذلك نحن ذاهبون غداً على الدهبية . . كوني على استعداد »

الفصل العاشر

ابو الحسن البغدادي

أمااسطفانوس فاظهر الارتياح وابرقت عيناه وأخذ يتصدر ويعالج مجلسه ليستلفت انتباهها الى جمال عينيه وعظيم هيبته وهي لاتزداد بذلك الا نفوراً منه حتى ضاقت ذرعاً من تلك الجلسة وهمت بالنهوض وإذا بالعم زكريا اقبل مسرعاً وهو يقول « ان جارنا أبا الحسن بعث يستأذن في السهرة عندنا »

فلما سمع مرقس ذلك بغت وقال دعه يدخل الى المنزل من الباب

الآخر ونحن قادمون لملاقاته وأوقد القاعة الكبرى بالشموع جيداً »

قال ذلك ونهض وأخذ يمسح شاربيه ولحيته ويصلح هندامه ودعا اسطفانوس للدخول معه وتركا دميانة لتذهب الى غرفتها من طريق آخر لئلا يراها الضيف أو الجار — ولم يكن الحجاب يومئذ شائعاً عند القبط أو لعله كان في أول شيوعه . وسببه على الغالب ان المسلمين كانوا يحجبون نساءهم عن النصارى كما يحجبونهن عن سواهم . فلما كانت اقامتهم لا تزال في المدن لم يكن لذلك تأثير على القبط . فلما نزلوا القرى وجاوروا القبط اصبح القبطي اذا زار جاره المسلم رآه يحجب عنه امرأته وسائر نسائه فاصبح هو يفعل ذلك اذا زاره المسلم فيحجب اهله عنه . وتوقل ذلك في الاعقاب بتوالي الاجيال حتى صار عادة شائعة

أما دميانة فلا تسل عن خفوق قلبها عند سماعها اسم أبي الحسن وعزمه على الزيارة في تلك الساعة وكانت زياراته نادرة قلما يأتي الا لغرض — وتذكرت مقابلتها سعيداً في ذلك المساء فحدثتها نفسها انه ربما أتى لشيء يتعلق بها وأصبحت شديدة الشوق لمعرفة ما اذا كان سعيد آتياً مع أبي الحسن . ووقفت هنيهة تفكر في ذلك بعد ذهاب والدها واسطفانوس ثم تحولت من جهة أخرى تطلب غرفتها وهي تتوقع أن يأتي زكريا ليطمئن بالها — فتشاغلت بتبديل ثيابها حتى أتى فسألته فقال « لم يأت غير أبي الحسن يا سيدتي وهذه الزيارة لاسطفانوس وليس لوالدك فقد سمعت أبا الحسن يقول انه لما علم بوجود اسطفانوس ابن المعلم حنا في القرية اغتنم الفرصة للسلام عليه »

فاجابت دميانة بقلب شفتها السفلى وهي تظهر الاعجاب تهكما واستخفافا ولسان حالها يقول « ما شاء الله . . . ابن المعلم حنا . . . شيء عظيم . . . وزيارته فخر كبير ! »

فلحظ زكريا ذلك منها فقال « لا تستخفي به يا مولاتي فان اباه يكاد يكون صاحب النفوذ الاول وليس اكثر نفوذاً منه الا المادراني صاحب الخراج »

فتشاغلت عن سماع كلامه وقطعت حديثه قائلة « هل جاء أبو الحسن وحده ؟ »

فابتسم وقال « نعم وحده »

فقالت « اراني محتاجة الى الرقاد »

قال « الا تتناولين العشاء ... هل أعده لك ؟ »

قالت « لا أشعر بالجوع »

فتركها وخرج

أما ابو الحسن فقد كان كهلا جليل القدر مع انس ولطف جاء في ذلك المساء بلباس البيت عليه جلابية من الحرير المخطط فوقها عباءة رقيقة وعلى رأسه طاقية حولها عمامة صغيرة . وكان مرقس واسطفانوس قد سبقاه الى القاعة وهي غرفة واسعة مفروشة بالبسط الثمينة والسجاد الجميل وعلى نوافذها ستائر من الديباج المطرز صنع تنيس مما يندر اقتناؤه في القرى . وعلى جدران القاعة صور دينية وفي الوسط مشمعة كبيرة قد انيرت شموعها وحول الابسطة وسائد مطرزة بقرب الجدران

فلما اقبل ابو الحسن خف مرقس لاستقباله والترحيب به فسلم ابو الحسن عليه ثم سلم على اسطفانوس وقال له « لقد آنست قريتنا يا معلم اسطفانوس »

فقال « ان الانس بجوارك يا سيدي »

ودعاه مرقس الى الجلوس على وسادة قدمها له فقعد عليها . وبعد ان تبادلوا التحية والسلام مراراً قال أبو الحسن « لماذا لا يأت المعلم حنا والدكم لقضاء بضعة ايام يستريح فيها من عناء الاعمال ويبعد عن غوغاء الفسطاط »

قال وهو يشمخ بانفه افتخاراً بوالده « ان الشواغل عنده كثيرة ياسيدي اذ لا يخفى عليكم أهمية مركزه وقد الف الشغل حتى غدا لا يرى راحة الا به وكثيراً ما اتوسل اليه ان يخرج للتنزه فلا يرضى »

قال ابو الحسن « وأظنه الآن مشتغلا على الخصوص بحسابات الخراج والعشور لهذا الفصل »

قال « نعم . . لا أدري متى يفرغ من العمل . . فان كل أيام السنة شغل عنده حتى اننا لا نراه في منزله إلا نادراً واذا جاء المنزل تهافت عليه الوجهاء بين زائر يستشيره أو صاحب حاجة يتوسل اليه أو متخاصمين يحكمونه . . . » قال ذلك بلحن التفاخر وبدا الاعجاب في وجهه — فهو يفاخر الناس بحكمة أبيه ووجاهته ونسي انه غر خامل قد يكون سبباً في ذهاب تلك الوجاهة — ذلك دأب كثيرين من أبناء الوجهاء لا يضيع احدهم فرصة يدخل فيها اسم والده في الحديث واذا سنحت له تلك الفرصة استأثر بالجلسة وأخذ يعدد مناقب الوالد ووجاهته فيقص على سامعيه من نوادره ومعجزاته ما يثقل سمعه ويعسر تصديقه وقد يتلطف فى الاستطراق الى التحدث بوالده على اسلوب يوهم به السامعين ان ذكر الوالد جاء عرضاً ثم يعمد الى القص والاطراء — ذلك هو شأن صغار الاحلام ضعاف الرأي واسطفانوس واحد منهم

الفصل الحادى عشر

العرب والقبط والترك

وكان ابو الحسن من كبار العقول واسعي الصدر يغضي عن هذه الصغائر وينظر الى جوهر الحديث فقال « أظنكم تقيمون في الفسطاط الآن »

قال « كنا نقيم هناك لكننا انتقلنا الى بابلون بجانب الفسطاط لان الفسطاط كثيرة الازدحام ووالدي يحب الراحة في ساعة الرقاد »

قال « لا أظنه تركها من الازدحام فقط ولكنكم تفضلون الاقامة في بابلون لان سكانها من القبط فتكون على مقربة من أماكن العبادة » قال ذلك وتبسم

فأدرك اسطفانوس اشارته فقال « ان الانسان يقدر ان يعبد ربه حيثما كان والقبط الآن كما لا يخفى عليك في راحة وطمأنينة في ايام اميرنا الحالى »

فتنهد ابو الحسن وأطرق فابتدره مرقس قائلا « احمد الله ان الاحوال تبدلت وأدرك حكامنا المسلمون ان محاسنة القبط أولى »

قال « أتحسب ما كان يرتكبه بعض الامراء المسلمين من ظلم القبط ونكايتهم كانوا يأتونه بأمر الخلفاء أو انه من قواعد الدين الاسلامى؟ كلا . ان الاسلام لا يأمر الا بالحسنى يدلك على ذلك ما كان من رفق المسلمين في صدر الاسلام على أيام الخلفاء الراشدين رحمهم الله وان النبي عليه الصلاة والسلام قد أوصى بالقبط خيراً . وانما هي مطامع بعض الولاة لا يريدون بها التعصب على دين بل هم يلتمسون من ورائها ابتزاز الاموال . . ولو أرادوا بها غير ذلك لما أصابنا نحن الشيعة ما تعلمونه من الاضطهاد . . حتى منعونا ركوب الافراس والخروج من الفسطاط وحظروا علينا اتخاذ العبيد الا العبد الواحد واذا كان بيننا وبين احد الناس خصومة قبل قول خصمنا فينا بلا بينة » وسكت ابو الحسن ريثما بلع ريقه ثم استأنف الكلام قائلا « حتى هذا الوالى احمد بن طولون فانه انما يريد بالمحاسنة مطمعاً لنفسه : : »

فاعترضه اسطفانوس قائلا « وكيف ذلك يا سيدي ؟ . وقد أحسن جوار القبط ورفع عنهم كثيراً من المظالم فلو كان طامعاً لزادها او ابقاها على الاقل »

قال « ان ابن طولون داهية كبير النفس ومطمعه عن تعقل ودهاء . . ألا ترى انه لم ينزل في الفسطاط ؟ فلماذا . لماذا ترك قصر الامارة والمسجد فيها وابتنى لنفسه وجنده قطائع خارج الفسطاط بجوار المقطم فأنفق فيها الاموال الطائلة ؟ »

فأطرق اسطفانوس ولم يحر جواباً . فأجابه ابو الحسن قائلا « اعلم يابنى ان ابن طولون هذا تركي الاصل وهذا العصر عصر الاتراك . وبعد ان كانت الدولة للعرب وكان أمراؤها وقوادها من العرب اخذت السيادة تتحول عنهم الى الاتراك حتى اصبحوا اهل النفوذ والسطوة في بغداد وسامراً ومنهم

اكابر الولاة والامراء والاطراف . . . . وأظنكم لاحظتم انحطاط شأن العرب في مصالح الدولة في الفسطاط نفسها . ولذلك أصبح الولاة الاتراك يعدون العرب منافسيهم ويخافون انتقامهم فلا يأمنون القيام بينهم فاخذوا يبنون المنازل الحصينة لانفسهم خارج المدن التى يقيم فيها العرب . . بدأ بذلك الخليفة المعتصم فخرج باتراكه من بغداد وابتنى لهم مدينة سامرا . . والفسطاط كما تعلمون بلدة عربية فلما استتب الحكم لابن طولون وعزم على الاقامة هنا ابتنى القطائع بين الفسطاط والمقطم مع بعد الماء عنها فاضطر لانفاق الاموال الطائلة في جر المياه . . وأظنكم تعلمون ان حبيبنا سعيداً قد أخذ على نفسه جر الماء الى القطائع واخبرني أن الامير انفق في ذلك مالا كثيراً »

فقال مرقس « صدقت ياجانار العزيز . . والذي لاحظته انا ايضاً أن اميرنا المشار اليه يطمع بما لم يطمع به سواه من الامراء السابقين . . يطمع بان يستقل بحكم مصر لنفسه »

فقطع ابو الحسن كلامه قائلا « قد استقل بها وقضي الامر وغلب على ابن المدبر صاحب الخراج الذي كان يسوم الناس الخسف والذل ويأخذ الاموال بغيرحساب سبحان من انقذكم منه .. »

قال مرقس « نشكر الله على ذلك وينبغي أن نشكره على شيء آخر ايضاً كان له دخل في تحسين احوالنا وتخفيف الضرائب عنا »

قال « اظنك تعني الكنز الذي عثر عليه ابن طولون فى الجبل .. ان عثوره على الكنز سد كثيراً من حاجاته فخفف المظالم عن الناس »

قال ابو الحسن « ان المال المذكور خفف الضرائب . . اما محاسنته القبط وتقريبهم اليه فسببها رغبته في اكتساب الاحزاب لما قدمته منسوء ظنه بالعرب فاتخذ القبط حزبا له وكذلك قل عن الشيعة فانه يرى في محاسنتهم سياسة ودهاء »

قال مرقس « فهو يبني القطائع اذاً خوفا من مساكنة العرب بالفسطاط ؟ ماشاء الله . . شيء جميل »

فضحك أبو الحسن وقال « والقبط يسكنون بابلون خوفا من العرب أيضاً . . حتى اصبحت قصبة هذه الديار الآن ثلاث مدن الفسطاط للعرب المسلمين والقطائع للاتراك المسلمين وبابلون للقبط . . »

الفصل الثانى عشر

الخطبة

ثم سكتوا جميعاً لحظة فاراد مرقس من باب المسايرة والمجاملة ان يفتح الحديث فقال لابي الحسن « اظن سعيداً في القطائع يشتغل بجر المياه ولو كان هنا لزارنا معك »

فاستبشر ابو الحسن لفتح ذلك الحديث فقال « بل هو هنا وقد جاء بالامس واخبرني انه فرغ من بناء العين وسيعود قريباً للاحتفال بجر الماء اليها وهو يتوقع من نجاحه في ذلك تقدما كثيراً »

فقال « ولماذا لم يزرنا معك »

فسعل ابو الحسن ومسح لحيته بكمه استعداداً للحديث وقال « لم يأت لانه وصل الساعة وهو تعب . . . وهناك سبب آخر اغتنم وجود حبيبنا اسطفانوس واعرضه لديك . . »

فتطاول الرجلان نحوه لسماع ما يتلوه فقال ووجه خطابه لمرقس « لا تخفى عليك منزلة سعيد عندي فهو مع كونه نصرانياً قد اتخذته صفياً لى واحبه أكثر مما يحب الوالد ولده وهو كما تعلم ماهر الهندسة ولم يوجد فى مصر كلها من استطاع الاقدام على بناء تلك العين سواه »

فصادق مرقس واسطفانوس على قوله بحركات الرأس و العينين فقال أبو الحسن يخاطب مرقس « اظنك تعرف سعيداً . . كيف تراه ؟ »

قال « أراه شابا جميلا وهو ماهر في الهندسة ويحبه كل من عرفه »

قال « هل تحبه أنت ؟ »

فقال « كيف لا أحبه ؟ »

قال « بناء على ذلك وقد قلت لك اني بمنزلة والده وقد جئت بالنيابة عنه لألتمس منك امراً أرجو من الحبيب اسطفانوس أن يساعدني في الحصول عليه »

فخفق قلب اسطفانوس لانه أدرك الغرض المطلوب ولكنه تظاهر بالاجابة وقال « اني طوع أمرك يا سيدي »

فقال أبو الحسن « جئت أخطب اليك ابنتك دميانة الى حبيبي سعيد فهل تخذلني وترفض طلبي . . ؟ »

فوقع ذلك الطلب وقوع الماء الحار على بدنيهما واجفلا وسكت اسطفانوس أما مرقس فاجاب جواباً مضطربا وهو يظهر المجاملة فادرك أبو الحسن اضطرابه وتردده ولم يهمه ما سمعه من المجاملة لانه قرأ الانكار في عينيه واكتفى بما لحظه — واهل الاحساس يقرأون الفكر في خلال الانكار وبعضهم يدرك مرادك قبل ان تتكلم . وكان ابو الحسن من هؤلاء فأيقن بفشل مهمته لكنه تجاهل وقال « أنا أعلم ان الجواب على سؤالي يقتضي تروياً ونظراً فامهلك ريثما تتبصر فيه »

فاحس مرقص عند هذا الاعتذار كأنه كان في سجن وافرج عنه ولو كان فيه شجاعة ادبية لقال له «انها مخطوبة» اذ قد سبق ووعد اسطفانوس بها ولكنه استثقل التصريح وحسبه خشونة فلما سمع كلام أبي الحسن ابتسم وقال « طبعاً سأنظر في الامر والذي يقدره الله يكون »

واسرع أبو الحسن حالا الى تغيير الحديث فانتقل الى مواضيع مختلفة ثم وجه خطابه الى مرقس قائلا « ارجو من فضلك يا جارنا العزيز أن تساعدني على الحبيب اسطفانوس فاني احب أن يؤانسني لزيارة وان تتفضل أنت معه »

فتصدى اسطفانوس للجواب قائلا « اشكرك يا سيدي . . . كنت أود ذلك من صميم قلبي لولا اني عائد غداً باكراً »

قال « الى اين . ! لقد تعجلت الرجوع وأنت لم تأتنا الا الساعة »

قال « نعم جئت لآخذ المعلم مرقس معي وأعود . . »

قال « تأخذه ؟ الى أين ؟ »

فضحك مرقس وقال « لا تخف . . ليس الى السجن ولا الى الصلاة . . »

فقطع اسطفانوس كلامه قائلا « بلى الى الصلاة الست ذاهباً لحضور عيد الشهيد ؟ »

قال « اننا ذاهبون لحضور الاحتفال ولا بأس من حضور الصلاة . . »

فقال ابو الحسن « اظنكم ذاهبين في هذه الدهبية ..لمشاهدة الاحتفال الآتي في سبيل النيل »

الفصل الثالث عشر

عيد الشهيد

فرأى اسطفانوس من اللياقة ان يدعوه لمرافقتهم فقال « ان منظر الاحتفال في النيل بهيج جداً فهل تتفضل وترافقنا في هذا السفر ؟ وهذا الاحتفال مع كونه نصرانياً فان المصريين على اختلاف اديانهم يشتركون فيه لانه بالحقيقة احتفال وطني . . »

فاستغرب أبو الحسن قوله وقال «هل هو عيد شم النسيم أو النيروز أو فتح الخليج حتى يكون وطنياً .. ! »

قال « كلا ولكنه يعد وطنياً باعتبار ان الاحتفال به خلف احتفالا وطنياً كان شائعاً في مصر قبل دخول العرب هذه البلاد . . اظنك تسمع بضحية النيل الفتاة الجميلة التي كان أسلافنا يزفونها الى النيل ويلقونها فيه كل سنة استدراراً لمائه .. »

فقاطعه أبو الحسن قائلا « نعم سمعت حديثها ولكن المسلمين ابطلوا هذه العادة على ما أعلم »[١]

قال « نعم ابطلوها ولكن القبط ما زالوا يخافون غضب النيل اذا لم يزفوا اليه شيئاً فابدلوا الضحية المشار اليها باصبع من اصابع شهدائنا الاولين تلقى في النيل كل سنة قبيل فيضانه فيحتفلون بذلك في الثامن من بشنس ويضعون الاصبع في تابوت يلقونه في النيل فيأخذ بالزيادة من ذلك اليوم . . »[٢]

وكان أبو الحسن مطرقاً يسمع فلما فرغ اسطفانوس من وصفه أظهر السرور بما استفاده وأجابه أنه كان يود أن يجيب دعوته ويرافقه في تلك المشاهد الجميلة ولكنه يحب البقاء في المنزل اكراماً لسعيد لانه قادم من سفر وربما لحق بهم بعد حين الى أن قال « واذا لحقنا بكم نعرف دهبيتكم من رايتها . أليست هي راية المادراني ؟ »

فخاف اسطفانوس اذا ألح في الدعوة ان يرافقه في الدهبية وربما جاء سعيد معه وقد أصبح لا يطيق رؤيته غيرة منه على دميانة فاكتفى بقوله « نعم هي للمادراني وأرجو ان تلحقوا بنا فيكون حظنا كبيراً » وسكت وانتبه أبو الحسن بغتة انه اطال الجلوس قبل العشاء فاعتذر وانصرف . ولما خلا اسطفانوس بمرقس نظر اليه نظرة استعطاف واستفهام فضحك مرقس واتخذ هذه الفرصة وسيلة لاظهار تفضله على اسطفانوس وقال « لا تخف ياعزيزي ان دميانة لو طلبها ابن طولون وكان نصرانياً لماسمحت بها لسواك »

فاثنى اسطفانوس على تفضله وحسن رأيه فيه ووضع يده على كتفه وضع تحبب كأنه يحاول ضمه وقال « بارك الله فيك يا أخا الرجال . . . ان والدي طالما اثنى على لطفك فضلا عن العلائق الودية القديمة بين عائلتنا »

فاغتنم مرقس ذكر والد اسطفانوس فقال « ولكن والدك المعلم حنا ينسى القديم ولا يذكر غير الجديد . . قد سررنا كثيراً بتقدمه في ديوان

(١) اقرأ رواية ارمانوسة المصرية (٢) المقريزي

الخراج حتى أصبح كاتباً للمادراني ولكن سرورنا قلما افاده ولا هو افادنا»

فعلم اسطفانوس أنه يعرض بأمر يريده من أبيه فقال « لاتظن والدي ينسي اصحابه ولا أظنك نسيت تخليه عن البقايا التي كانت متأخرة على قريتك من أيام الظلم

فقطع كلامه وقال « انه فعل ذلك بأمر ابن طولون كما تعلم ... على اني لا أشك بأن والدك لا يدخر وسيلة في التخفيف عنا . . ولي عنده ملتمس لا يكلفه تعباً سأقصه في وقت آخر »

وكانا يتكلمان وهما خارجان من القاعة بعد أن ودعا أبا الحسن عند بابها الآخر وكان الخدم قد اعدوا الطعام فوضعوه على المائدة حالما علموا بخروج ابي الحسن من القاعة فقعد الصديقان ساعة أخرى على الطعام والشراب وذهبا الى الفراش

الفصل الرابع عشر

الصعود في النيل

ونهض الخدم في صباح اليوم التالي يهيئون الفاكهة واللحوم والخضار والخمور لتحمل الى الدهبية تنفق في أثناء السياحة في النيل ـ وصعود النيل في ذلك الفصل (الربيع) جميل جداً لان السفينة تجري فيه هادئة لايزعجها نوء ولا يكدر ركابها رائحة البحر المالح فلا يخافون خطراً ولا دواراً يقضون نهارهم يتمتعون بمناظر الطبيعة . فاذا توسطوا النيل تمتعوا بمنظر الضفتين وما وراءهما من السهول الملونة بين خضراء وحمراء وصفراء باختلاف حال الزرع من درجات النمو أو النضج . واذا جاوروا احدى الضفتين استأنسوا تارة بأنين السواقي وخوار ثيرانها وطوراً بمعاء الماعز تسرح في بساتينها وآونة بغناء الغلمان الذين يرفعون الماء بالشادوف يوقع كل منهم ألحانه على حركات شادوفه . وترى هنا غلاماً راكباً حماراً يسوق أمامه بقرة وهناك رجلا

يسوق بعيراً ويعترض منظر السهول الخضراء كبار الشجر وأكثرها من النخل الباسق كأنه مظلات مغروسة في الارض أو هي كما وصفها الشاعر بقوله:

وللنخيل منظر مهيب تراع من جماله القلوب
فوق الضفاف ظلها رهيب صفاً بصف زانها الترتيب
من كل جبار عظيم القدر
تحسبها مردة طوالا تحت مظلات زهت جمالا
في النيل جاءت تبتغي اغتسالا سحرها النيل فان تزالا
واقفة هنا بفعل السحر (1)

ويزداد منظر الشاطئين جلالا وفخامة في الليل ولا سيما إذا كانت الليلة مقمرة وقد هدأت الطبيعة وسكنت الرياح وأوت الطيور الى أوكارها وتكسرت أشعة القمر على سطح الماء كما وصفها ذلك الشاعر بقوله :

والنيل يجري تحتنا غزيراً تهزنا موجاته سروراً
كما تهز غادة سريراً قد نام فيه طفلها قريراً
في مأمن من عاديات الدهر
والبدر يلقي وجهه في الماء سبائكاً من فضة بيضاء
تلمع إذ تموج بالهواء كأنها السيوف في الهيجاء
ما بين كر دائم وفر

وقد يتكاثر النخيل في بعض الاماكن حتى تتألف منه غابات غضة تتغنى فوقها الطيور وتتخللها أكواخ الفلاحين

ناهيك بما يقع عليه بصرك من الابنية الفخمة من بقايا الفراعنة وأكثرها في الصعيد . اما الصاعد في السفينة الى الفسطاط فلا يقع بصره من تلك الآثار الا على الاهرام الكبرى وقد يرى أبا الهول . تسير السفينة نهاراً وترسو ليلا ولا سيما في الربيع إذ يكون النيل في معظم انخفاضه وفي قاعه صخور يعرف الربان مواضعها في النهار ويخشى ان يخدعه بصره أو تخونه ذاكرته في الليل فلا يسيرون في النيل الا نهاراً

(1) من قصيدة في وصف ليالي مصر لالياس فياض

قضى ركاب دهبية المادراني أياماً في طريقهم من قرية طاء النمل الى شبرا وقد تباطؤوا عمداً حتى يصلوا الى الاحتفال فى ابانه . وكانوا يتمتعون بمناظر الضفتين على نحو ما ذكرنا الا دميانة فقد كانت تقضي معظم نهارها منفردة تصلي أو تتذمر وزكريا يؤانسها ويعزيها وقد ندمت على مجيئها وفضلت ان يغضب والدها يوماً أو يومين ولا تحمل نفسها ما لا طاقة لها به من تكلف اللطف والمسايرة على الطعام أو في غرفة الكلام . وكانوا قد نصبوا في الدهبية مظلة جميلة فرشوا أرضها بالطنافس وزينوا جوانبها باغراس الرياحين والازهار يجلسون فيها للحديث أو الشرب أو التفكه أو غير ذلك فدميانة لم تجلس هناك أبداً ولم يظهر ذلك غريباً لدى أبيها لانه تعود ان يراها منفردة في البيت تقضي أوقاتها بالصلاة أو القراءة أو تشغل نفسها بأمور بيتية لا تهمه . أما اسطفانوس فكان لا يدخر وسعاً في اجتذاب قلبها بتسقط ما يجول في خاطرها تارة بتقديم الفاكهة أو الزهور وآونة باستلفات انتباهها الى منظر جميل أو موقف غريب لعله يسمع منها تحبباً أو تلطفاً أو كلمة تدل على وقوعها في شرك جماله أو الافتتان بحديثه أو ذكائه

طاء النمل والفرغاني : نبهنا رصيفنا جرجس أفندي فلتاؤوس صاحب المجلة القبطية في مقالة انتقادية نشرها في الجزء الثامن من السنة الثانية لمجلته — الى ان طاء النمل الوارد ذكرها في هذه الرواية بالصفحة الاولى السطر الاول هي طنامل الواقعة في مديرية الدقهلية وقد قلنا انها في الغربية سهواً فنشكره على ذلك — أما ملاحظته عن تسمية الاقباط غير الملكيين باليعاقبة فقد جارينا بها مؤرخي العرب وغيرهم من الكتاب القدماء . وكذلك ملاحظته على اعتراف دميانة فقد ذكر ان الاعتراف منعه بعض البطاركة وانه كان نادراً في ذلك العصر فندوره لا يمنع وقوعه لدميانة بين يدى قسيس قرية أبيها وخصوصاً في رواية غرامية لا يطلب فيها التحقيق : وقد ذكر ان ابن الكاتب الفرغاني سمي بذلك نسبة الى فرغانة احدى قرى مصر وليس نسبة الى أحد أساتذة المسلمين الذي أخذ الهندسة عنهم كما ظننا فاذا كان قوله مبنياً على نص تاريخي صريح عولنا عليه والا فلا تزال المسألة تحتمل وجهين . وفي كل حال اننا نشكر لفلتاؤوس افندى عنايته في الانتقاد خدمة للعلم والادب ونرغب اليه ان يزيدنا انتقاداً فنزيده شكراً وامتناناً اذ يظهر من عبارته وأسلوبه انه انما يلتمس خدمة الحقيقة بلا لمز ولا وخز جزاه الله خيراً — والانتقاد لا يخلو من فائدة في كل حال

أو الاعجاب بمنصب ابيه ونفوذه ... وكان يحسب ركوبه في دهبية المادراني يكفي وحده لرفع منزلته في عيون الناس . ولو كان من أهل الشعور والاحساس لادرك من أول مقابلة انها لا تطيق رؤيته ولا تريد عشرته ولو اظهرت اللطف احيانا عملا بادب العشرة أو احتراماً لرأي ابيها . فقد كان عليه ان يشعر بنفورها ولكن احساسه كان قليلا

الفصل الخامس عشر

شبرا

أطل ركاب الدهبية على شبرا في ظهر يوم صفا جوه فلم تقع ابصارهم الا على خيام مضروبة وأعلام منصوبة وبين ذلك شجر النخيل يناطح السحاب على ضفتي النيل وفي الجزر بينهما . فاغتنم اسطفانوس تلك الفرصة وتقدم الى دميانة وكانت مشتغلة بنفسها واقفة قرب السارية تتلاهى بما يقع عليه بصرها في الضفتين تحاذر ان تلتقي به أو يقابل وجهها وجهه فراراً من سماع حديثه فلما رأته يمشي اليها استعاذت بالله وقد علا وجهها الاحمرار فتلاهت بصليب معلق في عنقها كانت شديدة الحرص عليه لانه هدية من بعض راهبات دير المعلقة كانت قد زارت طاء النمل لجمع النذور واهدته اليها وهي تعتقد فيه القداسة والكرامة . فلم يبال اسطفانوس بارتباكها أو لعله حسبها استحيت من مقابلته كما يستحي الحبيب من محبه . واغتنم انفرادها عن سائر أهل السفينة ليطارحها الغرام واحب أن يتدرج الى ذلك باسلوب لطيف فقال « لا أدري أأهنئك بهذا الصليب يادميانة أو أهنئه بك »

ففهمت مراده واغتنمت خطأه لتوبخه فقالت « ابمثل هذا الكلام يتحدثون عن صليب السيد المسيح ؟ »

فظنها تداعبه وتطلب زيادة التصريح فقال « لا أعني صليب المسيح وانما

اعنى هذا الصليب فانه نال مقاما يتحسر عليه كثيرون» قال ذلك وتنهد وقد ابرقت عيناه ووقف يتوقع جوابها

أما هي فتوردت وجنتاها وشق عليهـا ما يجول في خاطره فارادت ان تغير الموضوع فقالت « بالحقيقة اني لم اشاهد احتفالا مثل هذا » ووجهت نظرها الى تلك المضارب

فلم يشعر بما ينطوي عليه هذا التغيير من الاحتقار وسر لانها فتحت بابا للـكلام فقال « انه احتفال باهر ولذلك أحببت أن تحضريه فجئت في خدمتك بدهبية صاحب الخراج وسننزل بعد قليـل في فسطاط نصبوه لنا خاصة . . . الا ترينه بين يدي تلك الجميزة الـكبيرة ؟ » وأشار بيده الى شجرة كبيرة أمامها صيوان ثمين نصب ببابه علم يشـبه العلم المنصوب على السفينة

فعلمت دميانة انه صيوان المادراني وشق عليها النزول فيه مع اسطفانوس وهي تكره رفقته وتعلم فوق ذلك انها ستلاقي هناك ما تكرهه من موائد المدام واباريق الراح فقالت وقد بدا في وجهها الاشمئزاز « لا . . لا . . اسمح لي ان لا أذهب . . »

فابتدرها قائلا وفي صوته غنة العتاب « لا تخافي يادميانة لست ذاهبة اليه وحدك فان والدك ذاهب معنا »

فرفعت كتفيها وهزت رأسها اشارة للرفض ولم تتكلم

فلم يكتف الشاب بذلك فقال « وان كنت لاتصدقين فالساعة يأتى صديقي والدك ويقول لك ذلك »

فتراجعت والتفتت التفات من سمع صوتاً استلفت انتباهه فرأت العم زكريا قادماً نحوها وهو يهم أن يكلمها فتوجهت اليه بكليتها فاذا هو يقول لها « ألا تزالين عازمة على زيارة هذه الـكنيسة يا مولاتي ؟ » وأشار الى كنيسة في شبرا نفسها يحتفلون باخراج التابوت منها كل عام

ففهمت انه ينتحل وسيـلة لتخليصها من اسطفانوس فقالت « كثيراً اشتهيت زيارتها والتبرك بها ولا سيما في مثل هذا الاحتفال »

فقال « ان السفينة لا تلبث ان ترسو عند الشاطىء وقد استأذنت والدك في الامر »

فقالت « لقد احسنت يا عماه » ومشت فى اثره لتبديل ثيابها وتركت اسطفانوس على مثل الجمر وقد احس انها تتعمد احتقاره فكظم ما في نفسه وذهب الى مرقس فقص عليه ما قالته دميانة فقال « وهل ساءك ذلك ؟ . ان بعدها في مثل هذا اليوم نعمة لان وجودها معنا في الفسطاط لا يوافق هوانا . . ألعلنا جئنا لحضور الصلاة ؟ وهي لا يلذ لها ان تحضر موائد الشراب ـ دعها تذهب لصلاتها ونحن نذهب الى مجلس أنسنا وسماع الغناء والضرب على العود والنفخ بالمزمار . . انه نادر المثال فلا ينبغى اضاعته »

فلم يحر اسطفانوس جواباً ولكن قلبه ما زال يتقد غيظاً . أما مرقس فتظاهر انه كان يود ان ترافقه دميانة فتحول اليها وقد ترملت بعطرفها ولفت رأسها بخمارها ووقفت تنتظر وقوف السفينة فلما رأته توجهت نحوه احتراماً له فابتدرها قائلا « بلغني انك ذاهبة الى الكنيسة مع ان صاحبنا اسطفانوس قد أعد لنا فسطاساً خاصاً لجلوسنا »

قالت « اني افضل الذهاب الى الصلاة الآن وربما وافيتك في المكان الذي تعينه »

قال « لا أحب ان الجئك الى امر لا تحبينه . . افعلي ما بدالك . . ولكن متى تفرغين من الزيارة ؟ »

قالت « لا ادرى الآن ولعلى آتيكم نحو الغروب »

فقال « حسناً . . وانا مطمئن عليك لوجود العم زكريا معك . . سيري بسلام » قال ذلك وتحول الى صديقه

الفصل السادس عشر

كنيسة شبرا

ففرحت دميانة بالنجاة ووقفت تنظر الى ما هنالك من القوارب والحراقات السابحة في النيل على عرضه وفيها الناس زرافات ووحداناً وقد مدت فيها الموائد للطعام والشراب . وما من حراقة الا وفيها أوعية الخمر وأطباق الفاكهة. وقد تزاحم الناس رجالا ونساء من اصحاب اللهو وارباب الملاعب والمخنثين والخلعاء وعلت ضوضاؤهم وهم المغنون والمغنيات والراقصون والراقصات وقد خلع بعضهم العذار وهتكوا برقع الحياء. كانوا يرتكبون في ذلك الاحتفال انواع القصف ويجاهرون بما لا يحتمل من المنكرات حتى تثور الفتن وتقتل الناس ويباع من الخمر خاصة في ذلك اليوم بما ينيف على مائة الف درهم أو خمسة آلاف دينار . وقد ذكروا ان واحداً باع في يوم واحد باثني عشر الف درهم فضة من الخمر . وكان اعتماد فلاحي شبرا دائماً في وفاء الخراج على ما يبيعونه من الخمر في عيد الشهيد [1] فيجتمع في ذلك الاحتفال عالم عظيم براً وبحراً لا يحصيهم الا خالقهم بعضهم في القوارب والحراقات والبعض الآخر في الخيام

وما زال ربان الدهبية يزاحم القوارب والحراقات والناس يوسعون لها لانها حراقة صاحب الخراج حتى دنت من الشاطيء وقد مالت الشمس نحو الاصيل فتسارع البحارة الى انزال الركاب

وتأهبت دميانة للنزول واذا هي تسمع بعض الناس يقول «هذه سفينة الوالي ... انظروا انظروا ... انها سفينة ابن طولون ؟ »

فلما سمعت ذلك اجفلت والتفتت فرأت بقرب الضفة الاخرى من النيل سفينة فخمة عرفت انها هي التي يعنونها لكنها لم تشاهد عليها الراية .

(١) المقريزي ٦٩ ج ١

وتذكرت علاقة حبيبها سعيد بابن طولون فقالت في نفسها ألعله على ظهر هذه السفينة؟ واطالت النظر اليها ترجو أن ترى مايدلها على ذلك فلم تستطع تمييز شيء ولكنها سمعت الناس يظهرون استغرابهم مجيء هذه السفينة وهم بين مستصوب ومخطىء ولم تنتبه دميانة الا والعم زكريا يناديها أن تنزل فنزلت وتوجهت وهو معها ولم تتمالك عن الالتفات الى تلك السفينة فرأتها تقترب نحو الشاطىء فوقفت تنظر اليها فرأت دهبية المادراني تتقهقر الى الوراء لتخلي مكاناً لتلك ترسو فيه فترجح لها انها سفينة الوالي وان لم تشاهد العلم عليها واستطالت وقوفها فاستحيت ومشت نحو الكنيسة فمشى زكريا أمامها وهو يوسع لها الطريق بين الباعة وأهل الشعوذة والغوغاء فقطعت مسافة طويلة بين الخيام وقد تصاعد الغبار وعلا الضجيج وهي مطرقة لا تلتفت يميناً ولا شمالا حتى وصلت الى الكنيسة وقد تزاحم الناس في صحنها وقل بينهم من جاء للزيارة أو للصلاة . أما هي فمازالت سائرة حتى دخلت الكنيسة فما لبثت أن تنسمت رائحة البخور الممزوج بدخان الشموع حتى انتعشت وتخشعت فاستفهمت عن الصلاة متى تكون فقيل لها انهم يبدأون بها نحو الغروب ويتولى رآسة القداس أسقف الفسطاط وكان من كبار الاساقفة وقد عهد اليه أن يترأس القداس هناك لقربه من شبرا ففرحت دميانة بذلك لان القداس سيكون فخما

وأحبت أن تغتنم ساعة الانتظار لمشاهدة التابوت الذي فيه اصبع الشهيد فقيل لها انه موضوع في حجرة مقفلة بجانب الكنيسة لا يخرجونه الا في حينه فاكتفت بالصلاة تشغل بها نفسها حتى يبدأ الاسقف بقداسه فتحولت الى ايقونة ولادة السيد المسيح وأخذت تصلي بحرارة وتطلب ما تشعر انها في حاجة اليه وهي لاتحتاج الى شيء أشد من حاجتها الى التخلص من الشراك التي نصبت لها فتوسلت الى الله أن ينقذها من اسطفانوس لانها ترى من نفور قلبها انه ليس النصيب الذي اعده الله لها

الفصل السابع عشر

الدهشة

كانت تصلي وتتضرع ولا يلتفت احد اليها لاشتغال كل واحد بشؤون نفسه والعم زكريا قاعد في بعض جوانب الكنيسة بحيث يرى دميانة ويشاركها باحساسها وان لم يسمع قولها فانه كان مطلعاً على مكنونات قلبها كما رأيت – وهي مستغرقة في تضرعاتها سمعت سعالا أجفلها لانه وقع في اذنها وقوعاً نبه عواطفها واستلفت قلبها فحولت وجهها الى جهة السعال رغم ارادتها فرأت سعيداً مقبلا نحوها فتسارعت دقات قلبها وتولتها الدهشة واصطكت ركبتاها وتوهمت انها ترى ذلك في الحلم لانها لم تكن تتوقع قدوم سعيد في تلك الساعة . فلما وقع نظرها عليه ابتسمت ووقفت لا تدري ماذا تفعل

أما هو فمشى نحوها وهو يبتسم ويقول « اظنني ازعجتك يادميانة ... سامحيني »

قالت « لم تزعجني يا سعيد ولكنك ادهشتني بهذا اللقاء على غير انتظار . . ألعلك أتيت لحضور قداس الاسقف ؟ »

قال « وأي اسقف ؟ . كلا وانما جئت لاراك »

قالت « جئت لتراني . ؟ . ومن انبأك أني هنا ؟ »

فتنهد وقال « علمت من وقوف سفينة المادراني بجانب قريتكم ومن دعوة ذلك الشاب لحضور الاحتفال بعيد الشهيد »

فادركت أن ابا الحسن اخبره بذلك بعد قدومه الى بيت والدها في تلك الليلة . وعلمت ان سعيداً لم يوافها الى هناك الا غيرة منه عليها فانبسطت نفسا واحست بزيادة ميلها اليه فقالت « وكيف اتيت ؟ . . هل تنوي البقاء

هنا الى صباح الغد ؟ وأين انت مقيم . . وكيف . . . » وتلعثم لسانها من شدة الفرح

فقال « أتيت في سفينة الوالي احمد بن طولون »

قالت « ان قلبي دلني على ذلك منذ رأيت تلك السفينة . . وهل ابن طولون فيها ؟ »

فأطرق سعيد وسكت لحظة ثم قال همساً « هو فيها لكنه لا ينوي الظهور للناس وقد أوصاني ان اكتم مجيئه لانه جاء بناء على ترغيبي . فقد دعاني في هذا الصباح ليكلمني بشأن العين والاحتفال بجر الماء اليها فذكرت له الاحتفال بعيد الشهيد وما يجري فيه من الغرائب ورغبته في مشاهدته ليلا فرضي وأركبني معه على ان يشاهد ذلك سراً فلما رست بنا السفينة استأذنته فيزيارة الكنيسةريثما يخيم الظلام ويبدأ الاحتفال فجئت ومررت بالفسطاط الذي كنت أحسبك فيه فرأيت والدك وصاحبه في زمرة من الشاربين والمغنين فعلمت انك أتيت الكنيسة فجئت كما ترين . . »

فقالت « انها منة لا أستحقها . . فاذاً أنت باق هنا الى الصباح ؟ »

قال « سأبقى في السفينة عن بعد . . كيف انت الآن ؟ »

فهاج سؤاله أشجانها فأطرقت وتنهدت وأرسلت دمعتين رآهما سعيد تتدحرجان على خديها فأحس كأنهما جذوتان وقعتا على قلبه فقال « ماذا أرى . ما بالك .. ما الذي يخيفك يا دميانة ؟» وأدرك سبب بكائها فاستأنف الكلام قائلا « لاتخافي إذا كنت كما اعهدك لا تخافي . . ان ذلك الغلام يرجع القهقرى كما رجعت سفينته امام سفينتي الليلة . ان المكان الذي أضع قدمي فيه لا يستطيع هو ان يلثمه . . » قال ذلك وبانت في محياه امارات الاريحية والانفة

فغلب عليها الاعجاب به ولكنها ما زالت تخاف اباها فانقبضت نفسها . على انها أظهرت الاطمئنان وقالت « انت ذاهب الآن . . . راجع الى السفينة ؟ »

قال « لا بد من ذهابي قبل الغروب . . الا اذا امرتني بالبقاء لامر

تخافينه فابقى ولا يهمني رضي الوالي او غضب »

قالت « أما بقاؤك معي فهو غاية مرادي كما تعلم » . وتوردت وجنتاها وأتمت الحديث قائلة « ولكنني لا أريد ان تغضب ابن طولون وهو الذي قدمك ورفع منزلتك ولكنني . . » وسكتت

قال « أتحسبين بعدي عنك يطول ! اننا لا نلبث ان نحتفل احتفالنا بجر مياه العين هذين اليومين حتى نجتمع ويكون اجتماعنا دائماً ان شاء الله . . هذا اذا كنت تريدين ذلك من صميم فؤادك »

فتنهدت وقالت وهي تخفض صوتها لئلا يسمعها احد من الغوغاء « تسألني اذا كنت أريد ذلك ؟ هذا أمر لا أجاوب عنه . . سل قلبك يدلك عليه ولكن ماذا افعل » وشرقت بدموعها

فأدرك غرضها فقال « قد علمت مرادك . . اما هذا المغرور الذي يتطاول اليك فاذا كنت ثابتة على العهد رجع بخفي حنين ومهما توهم من طول باعه بواسطة صاحب الخراج فان صاحب مصر اطول باعاً وابعد نفوذاً . . وهذا يكفي »

وهما في ذلك رايا الناس في هرج فالتفتت دميانة فرات العم زكريا مسرعاً نحوها وهو يقول « ان الرجل آت »

قالت « اي رجل »

قال همساً « اسطفانوس »

فلما سمعت اسمه تراجعت وامتقع لونها ونظرت فرأت اسطفانوس داخلا وهو يتمايل ويزيح الناس بيده ويمشي مشية الخيلاء فبغتت حتى كاد الدم يجمد في عروقها خوفاً من عاقبة ذلك اللقاء وسعيد حاضر

الفصل الثامن عشر

عواقب الذل

أما سعيد فلاحظ بغتتها واضطرابها فهبت فيه الحمية وعزم على التفاني في الدفاع عنها فتقدم حتى وقف حيث يعترض اسطفانوس اذا تحول نحو دميانة وقد ثارت الاريحية فيه حتى كاد الشرر يتطاير من عينيه . وبعد هنيهة وصل اسطفانوس وهو يترنح من السكر ولما وقع نظره على سعيد في تلك الحال طار سكره وثارت الغيرة فيه وأخذه العجب بمنصب ابيه بعد أن رأى الناس يوسعون له ويحترمونه فاشار الى سعيد ان يتحول من طريقه فلم يجبه فمد يده وهم ان يزيحه من الطريق وهو يقول مخاطباً العم زكريا بانتهار « ما هذا الوقوف هنا الى هذه الساعة .؟ ان مولاك ينتظركما وقد غربت الشمس »

أما سعيد فلما رأى يد اسطفانوس ممدودة اليه دفعها عنه بعنف فتقهقر اسطفانوس حتى كاد يقع على الارض وعظم ذلك عليه في مشهد من الناس فعاد اليه وقد أشرع يده كأنه يهدده وقال « ما هذه الوقاحة ؟ . . اني لا اخاطبك . امش في سبيلك »

فدفع سعيد يد اسطفانوس عنه وقال « امش انت . عد الى مكانك حتى تفرغ من سكرك »

فأكبر اسطفانوس هذه الاهانة ومد يده الى جانبه كأنه يحاول أن يستل خنجراً فابتدره سعيد بلطمة على خده فدار دورة وقلب على قفاه وسمع لوقوعه صوت استلفت انظار الجمهور فارتبكت دميانة بنفسها وخافت وقوع الفتنة وامسكت سعيداً بيده وتوسلت اليه أن يتركه ويمضي لسبيله خوفاً من الفضيحة فقال « لا خوف عليك ان المسألة لا دخل لها معك » وتقدم الى اسطفانوس وهو يتململ للقيام وأراد ان يدوسه بقدمه فتهافت الناس ومنهم من يريد الدفاع عن اسطفانوس لوجاهته ولا يعرفون سعيداً

فاراد بعضهم أن يرده فصاح سعيد « ارجعوا والله لولا حرمة هـذا المعبد لارقت دماءكم على بلاطه »

فلما رأوا الشـدة تراجعوا وعمدوا الى اللين وكان اسطفانوس قد نهض ورجع الى رشده وأدرك عجزه عن مناوأة سعيد فلجأ الى الحيلة فحول غضبه الى عتاب ووجه خطابه الى سعيد قائلا « اني لم اكلمك فلماذا تتعدى علي . . ان والد هذه الفتاة استبطأ غيابها فكلفني ان استدعيها فكأنك ظننتني اريد بها سوءاً فأخذتك الغيرة عليها لانك جار أبيها على ما اذكر فتعرضت لي ؟ . . »

فلما سمع سعيد تحيله ورأى جبنه ازداد احتقاراً له فقال « مهما يكن السبب فان مثلك لا يليق ان يأتي بهذه المهمة وهو متمتع من السكر . . . فاذا كان والد الفتاة يطلبها فليأت هو لاستدعائها وأنا واقف هنا في خدمتها حتى يصل »

فضحك اسطفانوس جبناً ورياء وقال « كانك لم تصدق قولي . اسأل العم زكريا فانه يعرفني . . ثم اني لم أخاطب السـيدة نفسها وانما خاطبت خادمها »

فتقدم العم زكريا لفض المشكل بأسلوب لطيف وخاطب سعيداً قائلا « اشكرك يا مولاي . . والمعلم اسطفانوس يشكرك أيضاً على غيرتك وتفضلك ولعلك لا تعرف علاقته بسيدي فاننا جميعاً في ضيافته اليوم » ثم وجه خطابه الى اسطفانوس قائلا « وأظنك يامولاي تعلم ان المهندس سعيداً من ابناء طائفتنا وهو جارنا في المنزل وعزيز على سيدي ولم يتصد لك الا لامر أنت ترغب فيه . . . »

فقطع اسطفانوس كلامه وعمد الى المداجاة والملاينة قائلا « قد علمت أنه من طائفتنا وان كان مقيماً مع ابي الحسن . . ولـكنه لم يمهلني ريثما افهمه مرادي فنحن اذاً اصدقاء » وضحك

فأتم العم زكريا كلامه قائلا « وأما سيدتي دميانة فانها ستبقى هنا لحضور قداس الاسقف الليلة وأنا معها ولا خوف عليها »

فقال « اذا كان الامر كذلك فقد انقضت مهمتي وها أنا راجع لاخبر صديقي المعلم مرقس بذلك » والتفت الى سعيد وقال « أنا ذاهب يا صاحب فهل أنت باق هنا ؟ »

فاستغرب سعيد ما رآه من جبن الرجل وذله وصغر نفسه وأجابه بلا اكتراث « نعم أنا باق »

فتحول اسطفانوس وخرج وهو يقول « استودعك الله »

فظل سعيد واقفاً حتى خرج اسطفانوس ثم هز رأسه والتفت الى دميانة وقال « انه لخلق غريب .. هذا هو منافسي فيك . وكنت أود البقاء في خدمتك الى آخر الليل لولا اضطراري للرجوع الى السفينة وقد غابت الشمس وأخاف ان يغضب الوالي وانت لا ترضين ان يغضب »

فوقعت دميانة في حيرة وقد زاد احتقارها اسطفانوس واحترامها سعيداً وقالت « لا أريد ان يغضب الوالي .. سر بحراسة الله »

قالت ذلك والنبيه يلحظ من لحن صوتها انها لم تتم قولها فأدرك سعيد ذلك فنظر اليها وعيناه تتكلمان وهي تحييه بعينيها وكلاهما يحاذر ان يلحظ الناس حاله . ولولا اشتغال الجمع بشؤونهم لم تتح لهما فرصة للكلام . فلما رأته دميانة ينظر فى عينيها أدركت انه يستفهمها عن مرادها فقالت ثانية « سر بحراسة المولى ورعاية السيد المسيح »

قال « فهمت ذلك من قبل ولكنني أحسبك تضمرين شيئاً آخر »

قالت « لا أضمر شيئاً سوى اني . . . » ففهم مرادها وقال « لا تبالي بشيء فما هي الا بضعة أيام حتى يخلو لنا الجو فاذا فرغت من جر الماء وفزت برضاء الوالي فان صاحبنا هذا لا تبقى له جسارة للكلام بشأنك — ويظهر انه لم يعد يجسر على ذلك منذ الآن ألم تري جبنه وخوفه ؟. كوني مطمئنة لا تخافي . استودعك الله »

فمد يده وودعها وخرج

أما اسطفانوس فعاد وهو يتعثر باذياله وأخذ يهيء الاعذار لما بدا من خذلانه ويضمر الاذى لسعيد بأية وسيلة كانت

أما دميانة فوقفت بعد خروج سعيد جامدة وقد ندمت على مجيئها الى الكنيسة لعلمها بأخلاق اسطفانوس . وادرك العم زكريا قلقها فأخذ يخفف عنها ويحقر أمر اسطفانوس في عينيها ويهون عليها غضبه وانه لا يستطيع أمراً . ثم علت الضوضاء في الكنيسة وتصاعدت رائحة البخور وتعالت أصوات الترتيل وصلصلة المباخر فتوجهت الانظار نحـو الاسقف داخلا بأثوابه الكهنوتية تتلألأ وبين يديه الشمامسة والمباخر بالشموع فاشتغلت بسماع القداس عن هواجسها لانها كانت تجد في سماعه لذة عظيمة

قضت في الصلاة وسماع القداس برهة وهي تفهم كل ما يقال لان الصلاة كانت لا تزال كلها في القبطية وهي تفهمها جيداً وكان الظلام قـد أسدل نقابه فازدادت أنوار الشموع ظهوراً وكثر الزحام حتى تضايقت دميانة في موقفها ولحظ العم زكريا تضايقها فاستمهلها ريثما ذهب الى شماس يعرفه واستأذنه في كرسي ترتاح عليه السيدة دميانة بحيث تسمع الصلاة بعيدة عن الضوضاء فاجاب الشماس طلبه ودعاها الى كرسي بجانب الهيكل بعيد عن الناس فجلست عليه ووقف العم زكريا بين الحضور وهو يراعيها وينتظر اشارتها

فلما جلست هناك اشرفت على الجماهير واكثرهم من أهل القرى والعمال بين مصغ للقداس ومشتغل بالحديث وفيهم النساء والاطفال والضوضاء غالبة لشدة الازدحام ومع تلذذها بما تسمعه من التراتيل الروحية فان صورة سعيد ما زالت تعترض تصوراتها فاذا تذكرت ما دار بينهما اختلج قلبها وتذكر اسطفانوس فتنقبض نفسها . وهي في ذلك رأت الجماهير يتفرقون وقـد فتحوا في وسطهم طريقاً دخله جماعة يحملون تابوتاً عليـه رسوم كنائسية حتى اذا توسطوا الكنيسة وضعوه على منضدة قائمة هنـاك وتخشع الناس لرؤيته وتقـدم الاسقف بالمباخر بين يديه وأخـذ يتلو الصلوات والادعية ويتضرع الى الله أن يقبل احتفالهم ويبارك النيل اذا القوا التابوت فيـه والناس يؤمنون على دعائه

الفصل التاسع عشر

الرجوع

ولما فرغ الاسقف من الصلاة وأخذ الناس ينفضون ويخرجون نظرت دميانة الى العم زكريا في المكان الذي عهدته فيه فلم تجده فارتبكت في أمرها وأجالت نظرها في الجميع لعلها تجده بينهم فلم يقع بصرها عليه فازداد قلقها وخافت أن يخرج الناس كلهم ولا تراه لكنها ما عتمت أن رأته داخلا بسرعة فسري عنها ولما دنى منها سألته عن سبب غيابه فقال «فكرت فيما نعمله بعد انقضاء القداس وانا أعلم انك لا تحبين الذهاب الى فسطاط اسطفانوس فذهبت الى والدك واستأذنته برجوعنا للمبيت في الدهبية»

ففرحت لهذه الفكرة وقالت «وهل اذن لك بذلك؟ »

قال « نعم . هيا بنا اذا شئت »

فنهضت ومشت في أثره حتى خرجت من الكنيسة فرأت ما أدهشها من الانوار الكثيرة في الخيام على الضفتين وفي الجزر وفيها المصابيح والمشاعل وقد تزاحم الناس وعلت ضوضاؤهم بين غناء ونداء وعربدة وقهقهة واستلفت نظرها على الخصوص ماشاهدته من الانوار السابحة في النيل على الحراقات فانها كانت كثيرة وفي كل حراقة جماعة يشربون ويعربدون ويصيحون وقد اختلط حابلهم بنابلهم رجالا ونساء

فاضاء العم زكريا مصباحه ومشى بين يدي دميانة في طريق قليل الزحام بعيد عن الشاطىء حتى اذاقابل الدهبية تحول نحوها وهي تقتفي اثره وعيناها شائعتان في عرض النيل وتتفرس بالسفن لعلها تميز سفينة ابن طولون فلم تجدها . وما زال العم زكريا حتى صعد بها الى دهبيتهم وما صدقت انها دخلت غرفتها وبدلت ثيابها وجلست للاستراحة فاتاها زكريا بطعام تناولت

بعضه وهي لا تشعر بالنعاس فصعدت الى مجلسها في اعلى السفينة واعادت نظرها في الحراقات والسفن وهي تبحث عن سفينة ابن طولون وتظهر أنها تتفرج بمنظر الحراقات فتحققت غياب السفينة ولكن اذنها كانت تنفر مما تسمعه من العربدة في السفن حولها ففضلت الذهاب الى سريرها

وأفاقت في اليوم التالي عند الفجر على صراخ الناس عند خروج الاسقف والكهنة بالتابوت . حملوه على قارب وحوله الازهار والرياحين وقد أخذ الكهنة بالتراتيل والادعية والقارب يخترق النيل حتى اذا وقف في مكان يعرفونه انزلوا التابوت في الماء ثم أعادوه واخذت جماهير الناس تتفرق براً وبحراً

ولم تشرق الشمس حتى رأت والدها عائداً مع اسطفانوس في حالة تشمئز منها النفس من السكر وهما يحاولان اخفاء حالهما حياء من دميانة وهي تتجاهل ما تراه وتتشاغل بشئونها

أما اسطفانوس فذهب تواً الى غرفته وبدل ثيابه ولبس ثوبا نظيفاً وبالغ في التطيب والتعطر ولكن رائحة الخمر المتصاعدة من فيه مازالت متغلبة على كل طيب واغتنم اشتغال مرقس عنه واتى الى دميانة وكانت وحدها جالسة على وسادتها فلما رأته قادماً استعاذت بالله ولكنها عزمت على التجلد. أما هو فلما أقبل عليها التى التحية وهو يتضاحك واللؤم باد في وجهه وقال « بالحقيقة ان جاركم رجل شريف غيور »

فلم تجبه ولكنها تشاغلت باصلاح خمارها لعلمها انه يتذرع بما قاله الى الايقاع بسعيد وهي لا تطيق ذلك . فلما رآها ساكتة قال « لماذا لا تجيبيني يادميانة . . ؟ ألعله أوصاك ان لا تكلميني . . ؟ »

فنظرت اليه شزراً وقد انكرت هذا التعريض وبان الانكار في عينيها وعمدت الى تغيير الحديث فقالت « هل جاء والدي ؟ اين هو ؟ »

قال « نعم انه جاء وهل تريدين أن أقص عليه ما جرى بالامس في الكنيسة ؟ »

قالت وقد غلبت عليها الانفة « كما تشاء . افعل ما بدا لك »

فضحك وقال « لا . لا أقول شيئاً لاني لا احتاج الى نصرته في هذا الامر . ان اسطفانوس ابن المعلم يوحنا كاتب المادراني لا يصبر على ما سمعه من ذلك الجار العزيز . . »

فلم تستطع صبراً على كذبه وريائه فقالت « ولماذا صبرت على ذلك بالامس ؟ »

قال اتريدين ان أبارزه في الكنيسة . . « وكأنه ادرك انه لا ينبغي له ان يبوح بما عزم عليه بين يديها فقال « ذلك حديث مضى . . وقد اعجبتني غيرته على جارته . ولكنه أظهر طيشاً وحمقاً في طريقة دفاعه عنها . . لا بأس. سامحه الله . . » ثم تظاهر بالتلطف بها والتودد اليها وقال وهو يجلس على الطنفسة بجانبها « اننا الآن على أهبة الرحيل . . وقد قابلت الاسقف في هذه الكنيسة قبل مجيئي الى هنا » قال ذلك وابتسم

فلم تفهم مراده ولا همها أن تستوضحه فسكتت فقال وهو يسحف نحوها « الا تزالين مستسلمة الى الحياء مني الم تفهمي حقيقة أمري . . »

فلما كلمها عن قرب فاحت رائحة الخمر من فيه فتباعدت عنه وأظهرت النفور فحسبها تداعبه فقال « ما بالك تهربين منى وأنا لم أزد على التكلم معك فكيف اذا فعلت غير ذلك »

فقالت « انما هربت من رائحة الخمر فاني لا احتملها »

قال « ياللعجب . . الهذا المقدار تنفرين من رائحتها . . ينبغي لك ان تتعوديها والا فيكون عيشنا منغصاً »

فلم تزد على هز كتفيها وهي تنظر الى البحرية وهم يشتغلون برفع المرساة وحل الشراع وتدوير الدهبية للاقلاع . وسمع اسطفانوس خطوات مرقس فنهض لاستقباله وهو يقول « احس بالدهبية تدور بنا هل أقلع الربان ؟ »

قال « نعم اننا ذاهبون الى الفسطاط « ثم حول خطابه الى دميانة فقال « أرجو ان تكوني سررت بهذا الاحتفال والفضل بذلك لصديقى

اسطفانوس فانه والحق يقال لم يدخر وسعاً في سبيل راحتنا . . قدرنا الله على مكافأته »

فسكتت هنيهة ثم قالت « اين نحن مقلعون يا أبتاه »

قال « اننا ذاهبون الى مدينة الفسطاط نقضي فيها أياماً . اظنك لاتعرفينها »

قالت « كنت احسبك ترجع بنا الى بيتنا »

قال « اراك شديدة الحرص على غرفتك وكتبك وايقوناتك . وانت الى هذا اليوم لم تخرجي من طاء النمل ولا شاهدت شيئاً من مدائن مصر ان الفسطاط مقر الوالي واجناده المسلمين وفيها من الابهة والزخارف مالا تجدين مثله في القرى »

قالت « مالي وللابهة والزخارف . ان هذا لا يهمني كثيراً »

قال « انا اعلم انه لا يهمك ولكني احببت أن اريك شيئاً جديداً »

قالت « افضل الرجوع الى البيت »

قال « سترجعين قريباً ولكن صديقي اسطفانوس دعانا لقضاء بضعة ايام في منزل والده بمحلة بابلون قرب الفسطاط فاذا كنت لا تحبين المرور بالفسطاط سرنا تواً الى بابلون »

ولما سمعت قوله استعاذت بالله وقالت « أين نحن من دير المعلقة الآن ؟ »

قال « هو في طريقنا بين الفسطاط وبابلون »

قالت « اذا لم يكن بد من الذهاب الى غير بيتنا فاني احب زيارة هذا الدير لاني نذرت ان ازوره متى سمحت لي الفرصة وفي عنقي صليب من صلبانه »

فسر مرقس لرغبتها في تلك الزيارة فقال « ننزل في الدير اذا شئت »

*

الفصل العشرون

دير المعلقة

وكانت السفينة قد اقلعت ونشرت اشرعتها وأخذت تخترق عباب الماء ولم تمض بضع ساعات حتى اطلعوا على قصر الشمع ودير المعلقة جزء منه . فمرت السفينة بين الروضة وقصر الشمع حتى رست بباب القصر وهو يومئذ قريب من النيل فاشتغلت بالنظر اليه لانه أشبه بالحصون منه بالقصور ووقفت السفينة بجانب بابه الغربي وهو باب عظيم الارتفاع قائم بين برجين عظيمين مستديري الشكل وفوق البـاب نقش عليه صورة النسر الروماني فاراد اسطفانوس مخاطبتها فقال « ان دير المعلقة يا دميانة في احد هذين البرجين

فسكتت ولم تجبه فلما رست السفينة هناك اشتغل البحرية بوضع السلم للنزول فنزل مرقس ونزلت دميانة في أثره ودخل بها الباب ثم صعد الى الدير وفيه بعض الراهبات فلما علمن بقدوم الضيوف خرجن للقائهم وتقدم اسطفانوس الى الرئيسة أن ترحب بدميانة فخرجت لاستقبالها ورحبت بها وسارت معها الى الـكنيسة وأرتها ما فيها من الاعمدة الرخامية على أشكالها والايقونات الثمينة فتخشعت دميانة من تلك المشاهد وظهر السرور في وجهها وبعكس ذلك والدها ولـكنه أراد مسايرتها ليهون عليه استبقاؤها ريثما ينقلها الى بابلون

ولما استقر بدميـانة هناك قال لها والدها « اني ذاهب لقضاء بعض المهام في الفسطاط وربما بت الليلة هناك ثم اعود اليك في الصباح »

فسرها ذلك وقالت « افعل ما بدا لك اني هنا في خير وطمأنينة ولو مكثت في هذا الدير أشهراً لا أبالي »

فودعها وخرج ومعه اسطفانوس وظلت دميانة وزكريا في الدير باتت تلك الليلة هناك على الرحب والسعة وقضت ردحاً من الليل وهي

تسمع ما يقصه عليها الراهبات من احاديث القديسين وعجائبهم واستأنست على الخصوص بالراهبة التي كانت اهدتها الصليب

ولما اصبحت في اليوم التالي أسرعت الى الكنيسة للصلاة وبعد الفراغ منها اخذتها رئيسة الدير الى غرفتها وقد احبتها وتعلقت بها . وهما جالستان هناك جاءت راهبة وعلى وجهها امارات الدهشة والسرور معاً فابتدرتها الرئيسة بالسؤال قائلة « ما وراءك ؟ خيراً ان شاء الله ؟ »

قالت « الاسقف . . الاسقف آت لزيارتنا »

قالت « وأي اسقف تعنين ؟ »

قالت « أسقف الفسطاط »

فبان البشر في وجه الرئيسة ونهضت للحال وأمرت ان يتأهب الراهبات لاستقبال الاسقف وقامت دميانة معهن وسألت راهبة كانت ماشية بجانبها « يظهر ان الاسقف لا يزور هذا الدير كثيراً »

قالت « يندر أن يزورنا الا لامر هام فعسى أن يكون قد جاءنا ببشارة خير على قدومك »

وما عتم ان رأت الاسقف داخلا والراهبات يرحبن به فدخل أولا الكنيسة صلى فيها صلاة مختصرة على جاري العادة ثم تحول الى غرفة الرئيسة ولم يدخل معه اليها الا الرئيسة ودميانة واكبت دميانة على يده فقبلتها والتمست بركته ودعاءه فباركها وجلس على وسادة وأشار الى دميانة ان تجلس وهو يقول للرئيسة « أليست ضيفتكم دميانة بنت المعلم مرقس ؟ »

قالت الرئيسة « نعم يا سيدي يظهر أنك تعرفها »

ولما سمعت دميانة اسمها تعجبت واطرقت حياءواجلالا فقال الاسقف قد عرفتها بالامس مذ كانت في كنيسة شبرا بدعوة ولدنا اسطفانوس ابن المعلم يوحنا كاتب صاحب الخراج وقد أحسن الوصاية بها وبالغ في الثناء على ابيها »

فلما سمعت ذكر اسطفانوس تحول سرورها الى كدر ولم تبد ملاحظة فقال لها الاسقف « ألم تكوني مساء الامس في كنيسة شبرا يا ابنتي ؟ »

قالت وقد صبغ الحيـاء وجهها « نعم يا أبتي كنت هناك وحضرت القداس وتبركت بدعائك »

قال « بدعاء القديسين والابرار يا ابنتي . . اني لفرط ما سمعتـه من الثناء على تعقلك وتقواك أصبحت مسروراً برؤيتك . وهل أنت عازمة على طول البقاء هنا ؟ »

قالت لا أدري ولو خيرت لقضيت عمري هنا »

فتبسم الاسقف تبسما ينطوي على معنى وقال «ان الديور افضل المنازل للمسيحيين اذ يتفرغ فيها الانسان لعبادة الخالق والقيام بفروض الدين ولـكن لا أدري اذا كانوا يأذنون ببقائك هنا طويلا »

فاشكل عليها مراده واستغربت تصديه لهذا البحث عنـد أول مقابلة ولـكنها تجاهلت وقالت « اذا كان أهل هذا الدير يخرجونني منه فلا حيلة لي »

قال «لا أعني ذلك فان رئيسة هذا الدير وراهباته يرحبن بك كثيراً ولـكنني اعني والدك المعلم مرقس . . ما لنا ولهذا الآن دعينا من هـذا الحديث حتى يأتي والدك »

فادركت انه يشير الى الامر الذي ترتعد فرائصها من ذكره ولـكنها تجـلدت وسكتت فحول الاسقف كلامه الى الرئيسة وقال « كيف الدير وراهباته ارجو ان يكن في راحة »

قالت « هن في خير ببركة السيد المسيح ودعائكم »

قال « يظهر ان هذا الوالى التركي أرفق بالاقباط من اسلافه العرب»

قالت « نعم ياسيدي انه منذ تولى مصر مشتغل بشؤون دولته فلا ندري هل كان سكوته ناتجاً عن اشتغاله عنا أو هو يريد بنا خيراً »

قال «اظنه يفعل ذلك عن رفق وحسن رأى ادام الله هذه النعمة علينا»

فقالت الرئيسة « آمين »

وهم في ذلك أتت احدى الراهبات وقالت « ان المعلم مرقس يلتمس الدخول »

فقالت الرئيسة «يدخل»

ولم تمض هنيهة حتى أقبـل المعلم مرقس فاكب أولا على يد الاسقف فقبلها وسلم على الرئيسة واقبل الى دميانة يسألها عن حالها فقالت « اني في غاية السرور في هذا الدير وقد غمرتني الرئيسة بفضلها ولطفها »

فجلس مرقس وهو يكرر التحية على الاسقف ويطلب دعاءه.ودارت الاحاديث بينهم بالاحوال الجارية وذكروا الاحتفال بعيد الشهيد بالامس وأطرى مرقس فخامته وما يرجونه من البركة في ماء النيل على أثر القاء أصبع الشهيد فيه

الفصل الحادى والعشرون

الخلوة

ثم نهض الاسقف وتحول الى مرقس وطلب اليـه الخلوة به فاطاعه ودخلا غرفة منفردة واقفلا الباب عليهما فاوجست دميانة من تلك الخلوة وحدثها قلبها بشيء تخافه

أما الاسقف فلما خلا بمرقس خاطبه بشأن دميانة وخطبتها الى اسطفانوس وأثنى على الخطيب وأبيه لوجاهتهما فأجابه مرقس انه يعلم منزلة المعلم حنا كاتب المادرانى وقد صادق ابنه اسطفانوس وعاشره وهو يستلطفه ولذلك فانه لا يرى مانعـاً من اجابة الطلـب الى ان قال « وفي كل حال ان أمراً دخل فيه سيادة الاسقف نافذ لا محالة وما دميانة الا ابنتكم المطيعة »

فأثنى الاسقف على تلطفه وقال « شكا الي ولدنا اسطفانوس من جفاء الفتاة وتباعدها فاذا كنت تعلم انها تكره الزواج قل لى تفادياً من المشاكل بعد الزواج »

قال مرقس « تكره ؟ كيف تكره مثل هذا النصيب ؟ ولـكنني

أحسبها تفعل ذلك حياء على عادة البنات في مثل هذه الحالة . . . وهب انها ترددت في أول الامر فلا بد من قبولها »

قال « ألا تظن سبب تباعدها اختيارها شاباً آخر وقع في نفسها موقعاً جميلا ؟ »

فهز مرقس رأسه استخفافاً بذلك الرأي ودفعاً لتلك التهمة وقال « اختيارها شاباً آخر ؟ ما أنا ممن يخيرون بناتهم وليس عندنا بنات تختار.. ان البنت العاقلة هي التي تعمل برأي ابيها فكم بالحري اذا أضيف اليه رأي سيدنا الاسقف ونحن كلنا طوع ارادته »

فتبسم الاسقف واثنى على لطف مرقس ونهض وهو يقول « متى تريد ان تضع عربون الخطبة »

قال « في الوقت الذي تعينه سيادتكم »

فشكر له ومشى نخف مرقس الى الباب فتحه له وكان أحد الشمامسة ينتظر خروجه فتقدم اليه بالصولجان فتناوله وتلفت كأنه يبحث عن الرئيسة ليودعها فتقدمت وقبلت يده فباركها وقال لها «أوصيك خيراً بدميانة سمية القديسة الشهيرة . أين هي ؟ اني لا أراها »

قالت « في الصلاة . . فانها لا تفتر عن العبادة . . . بالحقيقة انها من أهل التقوى »

قال « حقيقة . . . ولكن لا أظنها تنوي الترهب » وضحك

قالت « الا إذا اختارها السيد المسيح لخدمته » ولما رأت الاسقف يضحك أدركت أنه يمازحها ويشير الى قرب خطبتها فسكتت فأعاد الوداع وودع مرقس ومضى

أما دميانة فلم تعتزل في الغرفة للصلاة فقط ولكنها أوجست من خلوة الاسقف بأبيها فخافت ان يستقدماها للامر الذي تخافه وتنفر منه فتشاغلت بالصلاة وهي لا تفهم ما تقرأه لقلقها واشتغال خاطرها . وكانت من الجهة الاخرى تراعي حركات أهل الدير لتعلم ساعة خروج الاسقف فلما علمت

بخروجه وذهابه شكرت الله على مرور الخطر ولكنها تعودت في مثل هذه الحال ان تجد زكريا بين يديها فتسمع منه طمأنة او تهويناً فلم تجده

وبعد قليل عاد زكريا ففرحت بقدومه ولا سيما لانها توسمت في وجهه خبراً مفرحاً رغم ما في حاله من أدلة العجلة والبغتة فسألته عن سبب غيابه

فقال « ذهبت في أمر سترين ثمرته الآن »

فلم تفهم مراده فقالت « وأي أمر تعني ؟ . . ألم تشاهد الاسقف ؟ ألم تعلم بخلوته ؟ »

قال « كيف لا ؟ ولولا علمي بذلك ما ذهبت بهذه المهمة »

فازدادت قلقاً وبان ذلك في عينيها فابتدرها زكريا قائلا « لا تقلقي يا سيدتي اسمعي قرع الباب . ألا تسمعينه ؟ »

قالت « بلى اسمعه . وما ذلك »

قال « ان القادم هو والد صاحبنا اسطفانوس »

قالت « والده ؟ المعلم حنا ؟ »

قال « نعم »

قالت « ما الذي جاء به ؟ »

قال « أنا استقدمته »

قالت « انت ذهبت اليه واستقدمته وكيف ؟ . قل »

قال « لما علمت بمقابلة الاسقف سيدي والدك أيقنت انه سيخاطبه بالامر الذي يريده اسطفانوس وأنا أعلم ان والده رجل عاقل يعرف حقيقة ابنه وانه ليس كفئاً لما يطلبه فذهبت وأسررت اليه الامر فرأيته كما كنت أظن ووعدني انه قادم ليخاطب والدك »

قالت والاستغراب باد في اسرتها « آت لماذا ؟ »

قال « ليرجع أباك عن هذا الامر ويرد ابنه خائباً »

فتبسمت والدهشة تمازج ابتسامها « يرجعه ؟ أتظنه يستطيع ذلك »

الفصل الثانى والعشرون

المعلم حنا

وقطع كلامها خفق نعال المعلم حنا في صحن الدير فمشت دميانة حتى تشرف عليه من نافذة أو تراه منها ولا يراها هو فرأته رجلا جليل الطلعة وقوراً يظهر التعقل في نظراته وخطواته ورأت رئيسة الدير كثيرة الاحتفاء به وهو يقول لها « بلغني أن المعلم مرقس صاحب طاء النمل هنا »

قالت الرئيسة « نعم يا سيدي . . وقد كان الان في خلوة مع اسقف الفسطاط وخرج الاسقف وأظن المعلم مرقس لا يزال في الغرفة التي كانا فيها » قالت ذلك وهي تمشي بين يديه حتى دخلت تلك الغرفة فرأت مرقس فيها فتركتهما ورجعت

أما دميانة فلا تسل عن اضطرابها في الفترة التي كان أبوها والمعلم حنا مختليين واستطالت الخلوة وقلبها يختلج ويداها ترتعشان وقد اصبحتا باردتين كالثلج وهي في أثناء ذلك تتلاهى بالقراءة وتتجلد مخافة ان يظهر ذلك لاحد وكان أهل الدير في شاغل عنها بشؤونهم . أما زكريا فتركها وخرج لعله يستطلع خبراً يحمله اليها

طالت الخلوة ودميانة تتساءل في ماذا عسى أن تكون عاقبتها تارة تظن سوءاً وتارة خيراً وكلما سمعت حركة خطو او فتح باب يخفق قلبها . واذا هي تسمع صوت المعلم حنا نفسه يودع والدها بلحن لم يعجبها فالتفتت فرأت وجه الرجل متغيراً ووالدها يتواضع لديه ويتقرب منه عند الوداع بصوت خافت كانه يعتذر عن خطأ ارتكبه . فمكثت هنيهة كالضائعة واذا بزكريا قد جاءها ووجهه ينذر بما وقع فابتدرته قائلة « لم يفلح الرجل على ما أظن »

قال « هكذا يظهر وعلمت ممن سمع حديثهما أن المعلم حنا نصح لابيك ان لا يزوج ابنه بك وأنه ليس أهلا لمثلك فطاوله في الكلام ثم اعتذر بأنه

وعد الاسقف وأصبح الرجوع صعباً . . . وانه سيبذل جهده »

فلما سمعت دميانة قوله وكانت في مكان لا يراها فيه أحد لم تتمالك عن أن لطمت خديها لطمة خفيفة وقالت « ويلاه ماهذه التجربة .. أبوه نفسه يقول إنه ليس أهلا لي » وأخذت تبكي ثم تحولت نحو ايقونة للسيدالمسيح معلقة هناك وقرعت صدرها وتنهدت من اعماق قلبها وقالت « الهي نجني من هذه التجربة واذا كنت تعلم اني مخطئة في نفوري من هذا الشاب حببه الي واجعلني ارى خطأي . . » واطلقت لنفسها عنان البكاء

فقال لها زكريا « كفكفي دمعك يا مولاتي . . سيأتي والدك . . كفي عن البكاء واصبري . . ولا تبالي بشيء فقد قلت لك إن ذلك الغر لا يمكن ان ينال قلامة من ظفرك . . سايري والدك ولا تبدي له جفاء واتكلي على المسيح وعلي »

فاطمأن خاطرها وتراجعت ومسحت عينيها ثم مشت الى غرفتها فلقيها أبوها ولعله رأى أثر الدمع في عينيها وتجاهل فقال لها « انى ذاهب وربما ابيت الليلة خارجاً .. أظن هذا يسرك يادميانة اذ تفرغين للعبادة» وضحك فسايرته في الابتسام فخرج وعادت الى همومها وزكريا يؤكد لها النجاة ويستمهلها ريثما يتمكن مركز سعيد عند ابن طولون بعد جري الماء في العين وهو قريب

أما مرقس بعد مقابلة المعلم حنا وما عرفه من انكاره على ابنه الزواج بدميانة فاصبح وقد ذهب شيء من آماله في تلك المصاهرة لانه كان يرجو أن يستفيد من نفوذ كاتب الخراج فضلا عن صداقته مع اسطفانوس ولكنه ما زال يرجو رجوعه الى الرضا لعلمه أنه يحب ابنه كثيراً . وكان مرقس يعتقد من الجهة الثانية ان اسطفانوس متى تزوج يظهر لدى والده مظهر الكمال ويسمو في عينيه فيقربه . ثم هو من الجهة الثانية تمسك بقوله تنفيذاً لكلمته وعملا بسلطته المطلقة على أهل منزله

وفي اليوم التالي رأت دميانة أهل الدير في حركة يرتبون وينظفون كأنهم يتأهبون لاستقبال زائر كبير ورأت بعض الراهبات ينظرن اليها نظرة

خصوصية ولا سيما الرئيسة فقد كانت تراعيها وتبتسم لها فتجاهلت وسألت الرئيسة عن سبب هذا الاستعداد فقالت « ان سيدنا الاسقف قادم لزيارتنا في أصيل هذا اليوم وبما أننا استقبلناه بالامس على غرة فرأينا أن نستعد لاستقباله اليوم استقبالا يليق بمقامه لانه أسقف مدينة الفسطاط وله وجاهة وكلمة نافذة فضلا عن مركزه الديني »

فلم يعجبها هذا الخبر وأرادت أن تعيد الاستفهام عن سبب مجيئه فخافت أن تسمع جواباً ينفر منه قلبها فسكتت فضحكت الرئيسة وقالت «لم تسأليني عن سبب قدومه »

قالت « رأيت ذلك ليس من شأني »

قالت « بل أنت صاحبة الشأن الوحيد فيه »

ففهمت مرادها وتحولت من بين يديها لئلا تسمع تصريحها فلقيها زكريا وقد علم ان الاسقف آت ليضع عربون الخطبة مع أبيها فاخذ يشجعها ويؤكد لها مساعدته وان تمنعها لا يجديها نفعاً في تلك الحال الى ان قال لها « ان الخطبة عقد يمكن حله وسواء حل هذا العقد ام لا.. لاتخافي يا سيدتي . . أنت تعرفين خادمك زكريا وانه لا يقول جزافاً . . . ومع ذلك ما ادرانا ان يكون والدك قد اقتنع من كلام المعلم حنا فيؤجل الخطبة الى وقت آخر »

فقطعت كلامه قائلة « لا تدع نفسك خادماً فانك أحن من الاب فاذا شئت ادعني ابنتك . . واما ما تقوله فلا يدعو الى الطمأنينة ولو كان والدي غير عزمه لما كان ثمة داع الى قدوم الاسقف »

قال « وعد الاسقف قبل مقابلة المعلم حنا فربما غير عزمه ومع ذلك فاتركي الامر الي ريثما اقول كلمتي » وسكت كأنه ندم على هذا الوعد

فقالت « ومتى تقول كلمتك ؟ .. وهل تظنها تنفع »

قال «اقولها عند اليأس واذا لم تنفع فغيرها ينفع» قال ذلك ومشى خوفاً من ان تستزيده ايضاحاً وهو حريص على الكتمان

فأدركت هي غرضه فسكتت

الفصل الثالث والعشرون

الخطبة

وفي اصيل ذلك اليوم أتى مرقس وهو يبش لدميانة بشاشة خصوصية وقد لبس أحسن ثيابه استعداداً لملاقاة الاسقف . ثم أمسك بيد دميانة واخذها الى غرفتها ومد يده الى جيبه واستخرج عقداً من الجوهر يتلألأ كالشمس وقدمه اليها وهو يقول « ما أجمل هذا العقد يا دميانة » وتوقع أن تمد يدها لتتناوله فلما لم تفعل اظهر استغرابه وقال «لماذا لا تمدين يدك خذيه انه لك » وتقدم نحوها وعلقه في عنقها وهي لاتتحرك وحدثتها نفسها ان تقطعه وترميه الى الارض ولكنها تمالكت عملا باشارة زكريا . فظنها أبوها رضيت فاكب على رأسها فقبلها وقال «اعلمي يا حبيبتي ان هذا العقد هدية من اسطفانوس وهو آت الآن مع سيادة الاسقف ولو تعلمين كم يحبه سيادته ويعتبره لانه كما لا يخفى عليك ابن المعلم حنا وهو لطيف العشرة . . اتعلمين لماذا هو آت مع الاسقف »

فلما سمعت ذكر اسطفانوس لم تعد تملك ارادتها فقالت « لا حاجة بي الى معرفة سبب ذلك »

قال وهو يمازحها « كيف لا وانت صاحبة الشأن ولك النهي والامر اليوم »

قالت وهي تغص بالكلام «لا امر لى ولا نهي ولو كان لى امر لما البستني هذا العقد ولا اتيت بى الى هذا الدير . . » وشرقت بدموعها

فقال وهو يظهر الاستخفاف بقولها « الا تزالين تفضلين الاقامة في طاء النمل على الفسطاط قصبة الديار المصرية ومقر الاعيان ورجال الدولة »

فتنهدت وسكتت مخافة ان يبدو منها شيء تندم عليه

اما هو فجعل يغالطها ويفسر نفورها بغير الواقع فينسبه الى الحياء او الخوف على عادة البنات في مثل هذه الحال

ثم جاء الاسقف واهتم لمجيئه اهل الدير فاستقبلوه بالتراتيل والصلاة والزهور والبخور فدخل الكنيسة أولا وصلى صلاة حضرتها دميانة في جملة الحضور وتخشعت كعادتها في أثناء الصلاة فجعلت تتوسل الى الله ان يلهمها ما فيه الخير لها وانه اذا كان قد جعل اسطفانوس نصيبها فيحببه اليها وبكت وتضرعت كثيراً وهي تحاذر ان يراها أحد . وهي في ذلك انتبهت بغتة فرأت اسطفانوس داخلا الكنيسة وقد لبس أحسن ما عنده واصلح هندامه ووقف بجانب أبيها فاجفلت عند رؤيته وكاد الدم يجمد في عروقها وجعلت تناجي نفسها وتسأل قلبها فلا تراه يزداد الا نفوراً وكلما تصورت اسطفانوس وسعيداً بجانبه احست باجتذابها نحو سعيد ونفورها من اسطفانوس . فقام في خاطرها ان الله لا يريده لها لكنها عادت فتذكرت ان الله يوصيها بطاعة الوالدين واكرامهما فوقعت في حيرة

قضت في ذلك اكثر مدة الصلاة والاسقف بثيابه الجميلة والبخور يتصاعد في فضاء الكنيسة مع اصوات الترتيل واذا هى تسمع الاسقف يقول « يا معلم مرقس »

فالتفتت فرأت اباها يمشي نحو الاسقف عند الهيكل فأسر اليه قولا فعاد مرقس الى دميانة وطلب اليها ان ترافقه الى ما بين يدي الاسقف فمشت معه منقادة كما ينقاد الحمل الى الذبح ونادى الاسقف « اسطفانوس » فجاء ووقف هناك فرفع الاسقف يده وبارك وصلى ثم مدها الى اسطفانوس وتناول منه خاتماً صلى عليه والبسه لدميانة وهو يتلو ما جرت به العادة وصرح للحضور انه قد عقدت خطبة دميانة على اسطفانوس

كل ذلك ودميانة ساكتة والدمع يتساقط من على خديها وخافت ان تخونها قواها فتسقط على الارض فتجلدت وركبتاها ترتعدان فلما وضع الخاتم بيدها لم تعد تملك قواها فوقعت على الارض فتراكضت الراهبات اليها ونضحنها بالماء المقدس ونسبن ذلك الى تعبها او حيائها او غير ذلك واتينها

بزيت من مصباح امام صورة مريم العذراء مسحوا به جبينها فأفاقت وحملها الى غرفتها للاستراحة ولما أتم الاسقف الصلاة ذهب مع والدها الى متوسدها وأخذ يخفف عنها تارة ويمازحها اخرى واسطفانوس يعلم انها انما اصابها ذلك من فرط تأثرها وقد غلبت على أمرها لانها تحب سعيداً . واختصروا الاحتفال بالخطبة بسبب الانزعاج الذي اصاب دميانة وتفرقوا

الفصل الرابع والعشرون

التلميح

واما زكريا فقد كان أشد الحضور تألماً مما حدث وكان قد عزم ان يخاطب مرقس بالامر قبل عقد الخطبة ولكن الاسقف لم يترك له فرصة اذ بادر حالا الى وضعها . فلما رأى ما أصاب دميانة صبر حتى ذهب القوم وطلب مقابلة مرقس وكان هذا قد هم بالخروج مع اسطفانوس فودعه على أن يلتقيا بعدئذ ورجع الى زكريا وقال « ما الذي تريده »

قال « اذا أذن مولاي بخلوة قلت له ما اريد »

فاظهر تململا من هذا الطلب ولكنه مشى امامه الى غرفة دخلها وجلس على وسادة وقال « ماذا تريد »

فقال زكريا وهو واقف بتأدب « لا بد ان ما أصاب سيدتي دميانة قد أثر في نفسك كثيراً .. »

فضحك بتهكم وقال « لا لم يؤثر في بل اثر فيك انت فقط »

فشق هذا التهكم على زكريا ولكنه تجلد وقال « لم اكن انتظر هذا الجواب يا سيدي فان سؤالي هذا ليس ما اريد ان اقوله »

قال « قل ما تريد . . . ان دميانة لم تأت ما أتته من العناد الا بسببك ولولاك لكانت مطيعة راضية »

فأطرق زكريا وهو يعمل فكرته ويستشير نفسه في هل يجيب مرقس

بمـا يستحقه أم يبقى على السكوت . واستبطأ مرقس جوابه فقال « هل عندك شيء آخر تقوله »

فقال « عندي أشياء كثيرة ولكنني لا أقولها وأنت تخاطبني بهذه اللهجة ولا انا ارى مسوغا لهذا اللحن كان سيدي نسي حقيقة مركزي في منزله فانكر اختصاصي بخدمة دميانة واخلاصي لها »

فتذكر مرقس أن زكريا ليس من خدمته وانما هو واقف لخدمة دميانة على الخصوص فقال «لم أنس ذلك ولكنك بالغت في اغرائها على أبيها حتى كادت تعصي كلمته »

قال « بماذا أغريتها ياسيدي ؟ . . أظنك تعني نفورها من خطيب اليوم . . اقسم لك بالسيد المسيح اني لم أؤثر على رأيها ولا غيرت شيئاً من عزمها ولكنني رأيتها نافرة منه ولو استعانتني في التخلص منه فان ضميرى وذمتي لا يساعداني على ردها . . . »

فقطع مرقس كلامه قائلا « تقول بكل جسارة انك لم تغير عزمها ألم تكن راضية به يوم كنا في طاء النمل فما الذي جرى الان ؟ . . . ولكنها لن تتزوج الا به رضيت ألم ترض » قال ذلك والغضب باد في عينيه

فاجابه زكريا بصوت منخفض لكنه يرتجف من الغضب «اذا اصررت على ذلك ماتت كمداً »

قال لا . . لا تموت كمداً الا اذا ظللت على اغرائهـا فانك تقتلها . . دعها وشأنها دعها لابيها فانه ولي امرها »

فادرك زكريا تلميحه فقال « انت تعلم ياسيدي اني لا اقدر أن أتخلى عنها عملا بالوصية التي أوصيت بها يوم ولادتها وقدمضت كل هذه المدة وانت لاترى مني مخالفة أما الآن فأنا على يقين انها تكره هذا الشاب ولو دققت لحمها ولحمه في وعاء واحد لما امتزجا وانا انما أريد الخير لها ولك . لانك اذا أصررت على إكراهها اما تقتلها أو تكرهها على أمور لا ترضيك »

فقال « لاتجسر على شيء وهل هي الا ابنتي ولا تقدر على مخالفة

ارادتي ؟ لم تجر العادة أن يترك البنات لارادتهن في الزواج يقبلن هـذا ويرفض ذاك . . أم هي أعلم مني بما ينفعها أو يضرها ؟ »

فقال زكريا بهدوء ورزانة « ولـكنك تعلم ايضاً ان لدميانة مع أبيها شأناً يختلف عن شؤون سائر البنات مع والديهن »

فوقع هـذا القول في قلب مرقس كالصاعقة رغم ما اخفض زكريا من صوته ومع تلطفه في اسلوب التعبير فقال مرقس « لا اعرف لهـا شأناً آخر »

قال « اذا كنت لا تعرفه انت فانا اعرفه »

فوقف عند ذلك مرقس كأنه يهم بالخروج وقال لا يهمني ما تعرفه ولـكنني انصح لك أن تخلي بيني وبين ابنتي ولا تغريها على مخالفتي »

قال « لو كانت تخليتها في طاقتي لخليتها ولـكنني مؤمن على أمر تقضى على الذمة أن احافظ عليه الى آخر نسمة من حياتي »

فقال مرقس « طيب ... افعل ما تشاء » وخرج وقد زاد عناداً ونقمة

الفصل الخامس والعشرون

المؤامرة

وسار مرقس تواً الى صديقه اسطفانوس فرآه جالساً الى المائدة وبين يديه آنية الشراب وقد تناول شيئاً منه. وتوسم في وجهه عبوساً كأنه يشرب ليذهب غضبه فلم يفته سبب ذلك الغضب لـكنه غالطه فبعد أن حياه وجلس اليه سأله عن سبب غضبه فانكر الغضب في بادىء الرأي فقال مرقس « لا تنكر على ذلك فاني اعرف السبب »

فقال « اذا كنت تعرفه فلماذا تسألني ؟ . . »

فقال « أسألك . . لاني أحب أن اعرف هل أصاب ظني . . »

فقال اسطفانوس « أنت مصيب اذا كنت تظنني غضباً من تصرف

دميانة معي ولكن هل تعرف سبب هذا التصرف ؟ »

قال « اظنني اعرفه . . ان سبب هذا العناد انما هو اغراء ذلك النوبى خادمها ولولاه لكانت اطوع لي من بنانى . . . وقد وبخته اليوم واسمعته ما لا يرضيه »

فابتسم اسطفانوس رغم ماكان فيه من الغضب وقال «انك ظلمت زكريا بهذا الحكم . ليس هو سبب العناد .. انا اعرف السبب .. »

قال « وما هو »

قال اتذكر ليلة جاءنا ابو الحسن مساء وطلب دميانة لذلك الشاب المهندس ! »

قال « اذكر ذلك ولكننا رددناه وليس له عندنا ارب »

قا « هذا ما تقوله انت ولكن سعيداً مازال يتطاول الى تلك الامنية » وهز رأسه حقداً عليه

فقال مرقس « بماذا يرجو ان ينالها ؟ . لا . . لا تصدق ذلك »

قال « لا اصدق ؟ وقد شاهدته يخاطبها ويدافع عنها وهي تلجأ اليه وتتكل عليه . . شاهدت ذلك بعيني »

قال « متى ؟ . . »

قال « يوم الاحتفال بعيد الشهيد . . » وقص عليه بعض الواقعة وغير فيها وبدل اخفاء لجبنه وسفالته

قال « ليتك قضيت عليه في تلك الساعة »

قال «لم اشأ انألوث يدي بدمه ولكنني سأدبر له تدبيراً يكفينا شره ولا يحملنا وزره . . لست أنا ممن يرون مصادرة الاعداء بقوة البدن فان هذه المصادرة وجهاً لوجه لا تخلو من خطر على المهاجم . والعاقل الحكيم من يأخذ عدوه بالحيلة والسياسة فيرديه وينتقم منه بدون ان يسأل عنشيء من ذلك ـ وأما المخاصمة بالايدي او الارجل فهى من طباع البهائم وانما يتحارب الرجال بالعقول .. وسوف يرى هذا الرجل الذي لايعرف اباه ان اسطفانوس لا يستهان به » قال ذلك وهو يشمخ بانفه ويتصدر تصدر الفائز

ويعد أقواله حججاً دامغة . ولعل صديقه مرقس يوافقه عليها . وقد يوافقه عليها آخرون لان ظاهر المراد منها « ان يتحارب الناس بالعقول » ولكنه يخفي تحت هذا التعبير عزمه الايقاع بسعيد غدراً وهو يعد ذلك من قبيل المحاربة العقلية وما هى الا خيانة ودناءة

فلما سمع مرقس قول اسطفانوس أظهر الاستخفاف بأمر سعيد وقال « ما لنا وله دعه وشأنه فانه أعجز من ان يصل الى دميانة طالما كنت حياً . . ولا أظنه متى صليت صلاة الاكليل وصارت دميانة زوجة لك الا قانطاً فيرجع على عقبيه خائباً »

ففكر اسطفانوس ساعة فرأى ان زواجه النهائي قد يسكت دميانة لكنه ما زال يخاف على نفسه من غضب سعيد وقد نال منالامن شدته يوم الاحتفال فعزم في باطن سره على التخلص منه أولا وكتم ذلك عن مرقس لكنه قال « لا ريب عندي ان المبادرة الى الاكليل أحسن وسيلة لقطع ألسنة الحاسدين وكبت أنفاس المبغضين ولكنني أحب ان يكون ذلك برضا خطيبتي . وبما ان سبب جفائها انما هو اغترارها بهذا الشاب لتقربه الآن من صاحب مصر لانه استخدمه لاستنباط المياه فاحب ان تعرف خطأها قبل اتمام الاقتران . . ان ما يرجوه هذا الشاب من وراء عمله الذي عمله لابن طولون انما هو أضغاث احلام ستظهر بعد الاحتفال بفتح تلك العين وترى ذلك عيانا »

قال « متى يكون هذا الاحتفال ؟ »

قال « بعد بضعة ايام وسأدعوكم لمشاهدة الموكب والاحتفال وتأتي دميانة أيضاً فاجلسكم فيمكان مرتفع تشاهدون منه الاحتفال عن بعد وكأنه بين أيديكم . وستكون دميانة معكم طبعاً وترى مصير ذلك المغرور وهي عند ذلك ترجع الى صوابها وتذعن صاغرة ويرتاح بالها »

فاطمأن بال مرقس لهذا التدبير ولكنه لم يفهم نية اسطفانوس وتواعدا على الذهاب لمشاهدة موكب ابن طولون يوم الاحتفال فقال مرقس « اين مجتمعنا ؟ »

قال سأستأذن صديقاً لي في الديوان ان يدخلنا قبة الهواء القائمة على سفح المقطم ويختصنا بمكان منها يشرف على كل ما هنالك من السهول و نشاهد الاحتفال كانه بين يدينا بلا مشقة ولا تعب »
فوافقه مرقس على ذلك وودعه وافترقا

الفصل السادس والعشرون

قبة الهواء والقطائع

قبة الهواء بناء اقامه امراء مصر على سفح المقطم في نحو محل القلعة اليوم . أول من ابتناها حاتم بن هرثمة في أواخر القرن الثاني للهجرة (١) وجعل الامراء بعده يتخذونه مصيفاً أو متنزها ولما جاء المأمون الى مصر سنة ٢١٧ ﻫ جلس فيها حتى اذا افضت إمارة مصر الى ابن طولون ابتنى قصره تحتها وبنى القطائع وراء ذلك بينها وبين الفسطاط . وكان كثيراً ما يقيم في القبة المذكورة لانها كانت تشرف على قصره . وكانت القبة عبارة عن عدة غرف مفروشة باحسن الرياش عليها الستور الجليلة ولها فرش لكل فصل . ولما ذهبت دولة بني طولون وخربت قصورهم كانت قبة الهواء في جملة ماخرب

أما في يوم احتفال ابن طولون بجري الماء في العين فكانت تلك القبة في ابان عزها . وفي صباح يوم الاحتفال ذهب اسطفانوس بنفسه الى دير المعلقة ودعا مرقس ودميانة لمشاهدة موكب ابن طولون من القبة فلم تبد دميانة معارضة لان ذلك بغيتها. فسارت راكبة على حمار من حمر الدير ومشي زكريا في ركابها واخذ زكريا يحدثها بامر الاحتفال ويمنيها بقرب الفرج حتى نسيت متاعبها وهواجسها وامتلأ صدرها رجاء واوشكت ان تقبض على السعادة بيدها

التقى الكل عند سفح المقطم نحو الضحى فاسرع اسطفانوس بين ايديهم صاعداً حتى أتى قبة الهواء وكان قيمها واقفا بانتظاره ففتح له بابا دخل فيه

(١) المقريزي ٢٠٢ ج ٢

هو ورفاقه الى شرفة عليها اعمدة بينها الستور المزركشة أو المطرزة تشرف على ما تحت المقطم من الميادين أو الابنية أوغيرها. وأخذ اسطفانوس يساعد الفراش في تهيئة القاعة اللازمة لمرقس وابنته وله . على أن حديثه كان هذه المرة مختصراً ولم يتقرب من دميانة أو يتحرش بها كعادته فظنته تأدب بالتجربة وأما هي فلم تخفه أو تنفر من رؤيته كالعادة ليس لانها تعودته أو أخذت تميل اليه وانما نظراً لقرب نجاتها منه بعد فوز سعيد فلم تعد تخافه . ناهيك بما كان يجول في خاطرها من الآمال الكبيرة بعد حصولها على حبيبها. على أن لهفتها لمشاهدة سعيد في ذلك الموكب بجانب ابن طولون صاحب مصر شغلها عن الاهتمام بشيء آخر

اما اسطفانوس فبعد أن استقر المقام بضيوفه اعتذر بشغل يدعو الى انصرافه على أن يعود بعد قليل فقال له مرقس « وانا ايضاً احب الذهاب في مهمة إلى مكان قريب ثم أعود فهل تبقى دميانة وحدها ؟

فقالت « اذهب يا ابي وهذا زكريا يمكث معي ولاخوف على..لاتجعلني عثرة في طريق راحتك »

فاظهر مرقس انه ليس في خاطره شيء على زكريا وقال « حسناً . . ها اني ذاهب » والتفت الى زكريا وكان واقفاً بقرب الباب وقال له « لاحاجة بي أن أوصيك بدميانة »

فاشار زكريا مطيعاً وظل واقفاً حتى خرج مرقس ثم مشي نحو دميانة فرآها مشرقة الوجه على غير ما تعوده فيها في المدة الاخيرة فانها كانت لاتبرح منقبضة الصدر لا يحلو لها طعام ولا كلام . فوقف بين يديها وهي جالسة على مقعد ثمين يطل الجالس عليه على القطائع والفسطاط فاشارت اليه أن يجلس وألحت فجلس على البساط بين يديها وهو يقول « قد آن الوقت الذي نتخلص فيه من هذا الغلام »

قالت « اتظن هذا اليوم آخر ايام الانتظار . ولكن كيف نجتمع بسعيد ومتى . . آه »

قال « اني غير غافل عن شيء فقد لقيت سيدي سعيدبالامس وتواعدنا على امور سأقصها عليك »

قالت « متى يبدأ الاحتفال ؟ اني لا ارى احداً »

قال « لا يلبث ان يبدأ . . وستشاهدين عظمة ابن طولون وفخامة ملكه . . سترينه في موكبه . . انظري الى هذا البناء الذي هو أقرب سائر الابنية الينا في سفح هذا الجبل . . تأمليه جيداً انه قصر ابن طولون . انه قصر فخم لم يسمع بمثله في هذه الديار الا ما خلفه الفراعنة من الهياكل . انظري الى هذا الميدان امام القصر وتأملي الجماهير المتزاحمة فيه بين راكب وماش رجالا و نساء انه الميدان يلعب فيه هو ورجاله على خيولهم ويضربون فيه بالصوالجة (الكرة والصولجان) وترين للميدان والقصر سوراً فخما له عدة ابواب من جملتها باب الجيش الذي ترين الجند ببابه عليهم الاسلحة . وباب آخر يقال له باب الجبل وآخر باب الخاصة وآخر باب الحرم لدخول نساء القصر أو الخدم . وهذا الباب الذي تشاهدين عليه تمالى سبعين هو باب السباع ومنه يخرج ابن طولون ويدخل[1] واظن الموكب سيخرج منه الآن . لان هذا الباب كما ترينه مؤلف من ثلاثة ابواب يخرج الوالى من الباب الاوسط ويخرج رجاله من البابين الجانبيين . وان امر هذا الوالى عجيب لعلو همته . انظري فوق هذا البـاب تري مجلساً يشرف على سائر القطائع وهى الابنية التى ترينها وراء هذا القصر نحو الفسطاط . فيجلس ابن طولون في هذا المجلس في يوم عرض أو احتفال يراقب حركات رجاله وما يحتاجون اليه »

فقالت دميانة « واين يقيم المهندسون »

فضحك زكريا وقال « لا أعرف مكاناً خاصاً بهم . . ولكني اعرف واحدا منهم فقط وأعرف اين يقيم . . هل أقول ؟ »

فقالت« لا » وبان الخجل في وجهها وغيرت الحديث فقالت « سمعتك تذكر القطائع فما هو المراد بها ؟ »

(١) المقريزى ج ١

قال «هى ياسيدتي ابنية بناها ابن طولون لسكنى جنده ورجال خاصته ومتى تم لمولاي سعيد ما يريده واصبح من خاصته اعطاه قصراً في القطيعة اللائقة بمقامه ـ وقد سمي هذا البلد القطائع لانه مؤلف من احياء يعرف كل منها باسم قطيعة . ويسكن كلا منها طائفة من الجند أو الرجال فللنوبة ابناء بلدي قطيعة مفردة تعرف بهم وللروم قطيعة وللفراشين قطيعة تعرف بهم ولكل صنف من الغلمان قطيعة . أما رجال الدولة كالقواد والخاصة فقد بنى لهم مواضع متفرقه أرجو أن يكون لسيدي قصر منها . وترين بين هذه القطائع الاسواق والازقة والطرق بنيت فيها المساجد والطواحين والحمامات والافران وسميت الاسواق بها فيقال سوق الجزارين والبقالين .. ولا اطيل الكلام عليك ... »

فقطعت دميانة كلامه وقالت « ان بناء هذه القطائع يستغرق اموالا طائلة مع أن في الفسطاط قصوراً وأسواقاً فخمة فلماذا لم يقم فيها . . »

قال « لم يقم فيها لانه يخاف على نفسه من أهلها بعد أن غلبهم على مدينتهم وفيها احزاب خضعت له كرهاً فابتنى هذا البلد وهو اشبه بالحصون منه بالقصور ... اما الاموال وانفاقها فلا تسلي عنه . . ألا ترين هذا البناء الشاهق القائم في اطراف هذه القطائع ؟ تأمليه . . »

قالت « اني ارى قصراً فخما هل هو من بناء ابن طولون أيضاً ؟ »

قال « نعم ولكنه ليس قصراً وانما هو مارستان أتعرفين ما معنى هذه اللفظة . . ؟ »

قالت « كلا اني لم اسمعها قبل الآن »

قال « صدقت لان هذا البناء لم يسبق له مثيل في هذه الديار . هو يامولاتي بيت المرضى يستشفون فيه من ادوائهم . . »

قالت « بناه لهذه الغاية ؟ »

قال « نعم وهو من حسناته في إعالة الفقراء »

فاستغربت دميانة قوله وقالت « ان تشييد هذا البناء يستغرق أموالا

طائلة وما برحنا نرى حكامنا يشكون الفقر ويحملون الرعايا الضرائب لسد عوزهم »

فقال « ان هذا المارستان يا سيدتي لم يبن من مال الرعية ولكن ابن طولون ظفر بكنز في هذه الصحراء فيه الف الف دينار بنى منها هذا المارستان شكراً لله . . على أن فضله ليس بالبناء وانما هو تعهده اياه بالاصلاح والترتيب والدقة في المعالجة . فأقام فيه الاطباء وشرط أنه اذا جيء بالعليل تنزع ثيابه وتحفظ عند امين المارستان ثم يلبس ثياباً ويفرش له ويغدى عليه ويراح بالادوية والاغذية والاطباء حتى يبرأ . وكان ابن طولون يذهب بنفسه في كل جمعة يتفقد خزائن المارستان وما فيها من الاطباء وينظر الى المرضى وسائر الاعلاء والمحبوسين من المجانين ويعرض نفسه لخطر جنونهم وكثيراً ما تعرضوا له بالاذى حتى عدل عن الذهاب[1]

الفصل السابع والعشرون

الموكب

وكانت دميانة تسمع ما يقوله زكريا وعيناها شائعتان الى ميدان القصر لعلها ترى الموكب يتأهب للخروج أو عساها ترى سعيداً واقفاً أو ماشياً فلم تره . ولكنها رأت الاعلام تخفق والرجال يجتمعون وفيهم الفرسان والمشاة على اختلاف الاجناس . وهما في ذلك سمعا قرع الطبول فصاح زكريا « هذا الموكب يترتب » وأشار اليها أن تنظر الى باب السباع . فرأت الناس يتزاحمون عنده والحرس يطردهم لتتفرغ الابواب لخروج ابن طولون وموكبه ونظرت دميانة الى ما حولها فرأت الناس في الطرق وعلى اسطحة المنازل يتزاحمون لمشاهدة ذلك الموكب . أما هي فلم يكن يهمها من ذلك كله الا أن ترى حبيبها راكباً بجانب ابن طولون ليفرح قلبها فاثبتت نظرها

(١) المقريزي ج ١

بالباب وبعد برهة سمعت أصوات الطبول والابواق تقترب حتى خرج اصحابها من باب السباع مشاة والناس يوسعون لهم الطريق . ثم أطلت أعلام ابن طولون وخرجت من البابين الجانبيين يحملها رجال بألبسة خاصة. وظلت هي تحدق ببصرها في الباب الاوسط الذي تنتظر أن يخرج ابن طولون منه

ثم رأت طائفة من الغلمان يخرجون من البابين الجانبيين صفوفاً وعليهم افخر ما يكون من اللباس والعدة وفيهم جمال باهر وقامات طويلة وبأس شديد وعليهم اقبية ومناطق ثقال عراض وبأيديهم مقارع غلاظ على طرف كل مقرعة مقمعة من فضة ولهم هيبة عظيمة . وكان زكريا يراقب ما يبدو من دميانة عند مشاهدة هؤلاء فلما رأى دهشتها قال لها «أتعرفين هؤلاء؟»

قالت «كنت عازمة على أن اسألك . . ولكنني خفت أن ألهو بسماع جوابك عن ممر الوالي »

قال « لا تخافي لم يئن خروجه بعد . واذا خرج فانه بين ايدينا . ان هؤلاء الغلمان كانوا لابن المدبر صاحب خراج مصر قبل مجيء ابن طولون ولهم حكاية لطيفة تدل على علو همة هذا الرجل . وذلك ان ابن طولون لما تولى ولاية مصر وجاء لاستلامها كان ابن المدبر صاحب الخراج عليها كما هو المادرانى الآن . . . ولكن ابن المدبر كان شديداً على الناس وفيه دهاء فأحب ان يكتسب ثقة ابن طولون أو يبتاع سكوته عن اعماله فلما علم بقدومه خرج للقائه . ثم بعث اليه هدايا قيمتها عشرة آلاف دينار فردها وكان قد شاهد هؤلاء الغلمان في خدمة ابن المدبر فطلب اليه أن يعوضه من الدنانير بهؤلاء الغلمان فلم يسعه الا الطاعة فسلمهم اليه وأصبح من ذلك اليوم يخافه »

وكانت دميانة تسمع حديث زكريا وعيناها شاخصتان نحو الباب الاوسط واذا بالغلمان يتنافرون منه ثم أطل ابن طولون على فرسه وعليه لباس الامارة وقد تجلت الهيبة في محياه وبان التعقل في حركاته وهو مع ذلك يلتفت الى الناس ويبتسم وهم يتراكضون للتبرك بطلعته ولاسيما العامة وأهل الاسواق الذين يندر ان يشاهدوه

خرج ابن طولون من الباب وحده فاختلج قلب دميانة تطلعاً الى من يكون بعده واذا بفارس صغير السن وعليه لباس فاخر وفي وجهه جمال باهر تتجلى عليه دلائل الصحة والقوة تحته فرس من جياد الخيل وفي ركابه غلامان عليهما ألبسة حمراء مزركشة قد شمرا سراويلهما عن سوقهما . وكانت دميانة تتوقع ان ترى سعيداً وراء ابن طولون فرأت هذا الفارس ولم تعرفه فسألت زكريا عنه فقال « هذا خمارويه بن احمد وهو احسن أبنائه وأعزهم اليه ولا يغرنك صغره فانه شديد البأس ولوع بالصيد ولا سيما صيد السباع . ولا يسمع بسبع الا خرج اليه ومعه رجال عليهم لبود فيدخلون الى الاسد ويتناولونه بأيديهم من غابه عنوة وهو سليم فيضعونه في اقفاص من خشب محكمة الصنع يسع الواحد منها السبع وهو قائم فاذا قدم خمارويه من الصيد سار الى القفص وفيه السبع بين يديه . وقد جمع في قصره عدة من السباع » [1]

ولما بلغ زكريا الى هنا لحظ ان دميانة لاتعيره التفاتها لان عينيها شائعتان نحو الباب . ولا تسل عن لهفتها لما رأت سعيداً مقبلا على فرس تعودت ان تراه مقبلا عليه في طاء النمل وقد جاء بعد خمارويه بنحو مئتي ذراع فلم تمالك ان قالت « سعيد ! هذا هو سعيد . . » ثم انتبهت لنفسها والتفتت الى ما حولها فلم تجد أحداً غير زكريا فاطمأن خاطرها فقال لها زكريا « هذا هو سيدي البطل . . »

فقالت وعيناها تلمعان والفرح يطفح من قلبها « زكريا .. هل تجد بين هؤلاء الفرسان أجمل من سعيد أو أقرب منه الى القلب ؟ » ثم ندمت على هذه الخفة وتشاغلت بالمشاهدة وتتبعت مسير الموكب نحو المغافر حيث بنيت السين. ولحظت بعد خروج الموكب من الميدان ومسيره في الصحراء ان ابن طولون أشار الى سعيد فاسرع اليه حتى حاذاه وأخذا يتحدثان فكاد قلبها يطير من الفرح وأحست كأنها قبضت على السعادة بيدها

وكان زكريا يراقب ما يبدو منها ويفرح لفرحها وقلبه ينعطف اليها

(١) المقريزي ج ١

ويتمنى لها السعادة ولو بذل نفسه في سبيل ذلك . فلما رأى فرحها شاركها فيه لكنه لم يكن ممن يستسلمون لظواهر الامور وقد علمته الايام أن لا يفرح بالآمال الا بعد تحققها ولكنه ساير دميانة ووجه التفاته الى مسير الموكب نحو العين

ولم تكن دميانة ترى من ذلك الجمع غير سعيد تراعي حركاته وسكناته وتحسب الذين حوله اشباحاً لا أجسام لها . ولما تباعد الموكب عنها وقفت ووقف زكريا وأخذا يتطاولان لمشاهدة مسير القوم فقالت دميانة « الى أين هم سائرون ؟ اني اراهم بعدوا كثيراً »

قال « الى العين يا سيدتي »

قالت « أين هي ؟ اني لا أراها ولا اعرف محلها »

قال « ألا ترين المغافر هناك ؟ »

قالت « أراها لكنني لا اتبينها لبهرجة أشعة الشمس على صخورها »

فتطاول بعنقه وتفرس في المكان وقال « ألا ترين تلك البقعة المرصفة بشكل مربع ان الاشعة تتلاعب عليها وتنعكس عنها »

قالت « نعم أرى البقعة وحولها الجماهير من الناس وقوف »

قال « هؤلاء جماهير العامة ينتظرون وصول الموكب ليروا الماء يجري ويفرحوا به أو للتفرج بمشاهدة الموكب وما معه من الاعلام او سماع الطبول والابواق »

الفصل الثامن والعشرون

الانقلاب

وكان الموكب في أثناء ذلك قد اقترب من المغافر حتى اذا دنا من المصطبة حول العين تراجع الناس وتقدم ابن طولون وحده وترجل عند ذلك سعيد ومشى بين يديه يريه هندسة البناء وكيف يجري فيه الماء .فشاعت

عينا دميانة لرؤيته وتعب بصرها من التحديق في اشعة الشمس . ولكنها كانت ترى ابن طولون يجول بفرسه على المسطبة وسعيد يظهر ويختفي وراء فرس ابن طولون

وهي في ذلك رأت ابن طولون هوى بجواده وسقط الى الارض فسقط قلبها معه وصاحت باعلى صوتها بغير انتباه « باسم المسيح . باسم العذراء » وخافت أن يقع الجواد على سعيد فيؤذيه على انها ما لبثت أن رأت ابن طولون نهض وقد وقعت قلنسوته وتعفرت اثوابه . واذا هو أومأ الى الجند فتسارعوا الى سعيد وقبضوا عليه وشقوا ثيابه . وتناول أحدهم سوطاً وأخذ يضربه ضربا متوالياً . فاحست دميانة كأن الضرب واقع على رأسها فلم تمالك أن وقفت فجأة ولطمت وجهها بكفيها وهي تقول « ويلاه ماذا يفعلون . . يضربون سعيداً . .؟ آه ويلاه » وأخذت فرائصها ترتعد ونسيت موقفها وتحقق زكريا انهم يضربون سعيداً ولا فائدة من التكذيب فاخذ يخفف عنها ويغالطها وهي تقول « اني اراهم يضربونه واشعر كأن ذلك الضرب واقع على قلبي .. ويل لهم لماذا يضربونه.. أهذا جزاء المهارة .. »

فامسك زكريا بيدها وأجلسها وقال « تمهلي يا سيدتي ريثما نرى الحقيقة ولابد لذلك من سبب كوني عاقلة صبورة مثل عهدي بك . . اصبري »

ولما فرغوا من ضربه رأتهم يشدون وثاقه ثم ساقوه الى المطبق وهي تنظر وقد جمد الدم في عروقها . على أنها لما رأته حياً يمشي هدأ روعها وكانت تخاف أن يموت من الضرب وتقدم زكريا اليها ان تصبر ريثما يبحث عن سبب هذه المعاملة . وأكد لها انه طالما كان حياً فالامل بانقاذه وطيد ثم استأذنها في الذهاب للبحث عن السبب فقالت « اذهب . . . نعم اذهب »

ثم تراجعت وقالت « لا . . لا ابقى هنا وحدي فيأتي ذلك النذل ..لا لا.. خذني معك .. ارجعني الى الدير .. انه ابقى لي من سائر المساكن » قالت ذلك وشرقت بدموعها

فاحس زكريا كأن سهما اخترق أحشاءه ولكنه تظاهر بالاطمئنان وقال لها « لا ينبغي ان يغلب عليك اليأس الى هذا الحد . . »

وهو يقول ذلك ويهم بفتح الباب للخروج بدميانة سمع وقع خطوات تقترب نحو ذلك الباب فاضطربت دميانة عند سماعها لعلمها انها خطوات اسطفانوس واجفلت وتحولت وهي تود أن تلقي نفسها من نافذة تلك الغرفة ولا تواجه اسطفانوس لكنها تجلدت ووقفت جامدة كالصنم وهي تظهر انها تنظر الى السماء . وكان زكريا قد فتح الباب فدخل اسطفانوس وعلى وجهه دلائل السرعة والبغتة لكن البشر كان يتجلى فوقها رغم ما حاول اظهاره من الاسف أو الاستغراب واحست دميانة عند رؤيته كانك طعنتها في صدرها وقرأت الشماتة والانتقام في عينيه وحول شفتيه فحولت وجهها نحو النافذة واسندت رأسها على احدى الاساطين وجعلت تتلقى دموعها بمنديلها وتكتم البكاء

الفصل التاسع والعشرون

الشماتة

أما زكريا فاستقبل اسطفانوس بالتحية يريد أن يطلع منه على شيء جديد لعله يعلم أسباب ماشاهده من الغرائب. فتقدم اسطفانوس الى دميانة وهو يظهر التلطف ودار حتى يقابلها وجهاً لوجه فلما رآها تبكي أظهر استغرابه وقال ما بال دميانة تبكي ؟ خيرا إن شاء الله . . هل تشعرين بألم ؟ هل تشكين من شيء ! . قولي فاني طوع امرك ومهما اردت من علاج أو ملطف فانه يحمل اليك .. »

فلم تزدد بهذا التلطف الا بكاء وحرقة لانها عدته نكاية وتشفياً فظلت ساكتة فتحول اسطفانوس نحو زكريا وقال « ما بالها ؟ قل لي

يازكريا لان أمرها يهمني كما تعلم . . . اين المعلم مرقس . . . ما هو سبب بكائها ؟ »

قال زكريا « لا أعلم السبب . . وانما أعلم اننا ونحن نشاهد الموكب وجماهير الناس رأيتها أطلقت دموعها وسالتها عن السبب فلم تجبني . . وكنا عازمين على الذهاب الى الدير لترتاح لعلها تعبت من طول الجلوس .. »

فالتفت اليها وهو يحك عثنونه وقال « اخشى أن تكوني شاهدت ما أصاب جارك المسكين فتكدرت عملا بحق الجوار .. »

فلما سمعت دميانة عبارته المملوءة بالشماتة واللؤم همت بانتهاره وتوبيخه ولكن رغبتها في الاطلاع على السبب حملتها على السكوت فتظاهرت انها لم تسمع شيئاً فقال زكريا « أي مسكين تعني يا سيدي ؟ »

قال « أعني جاركم سعيداً المهندس . . ألم تشاهدوا ما فعلوا به »

قال « ما ذا فعلوا »

فضحك وهو يختلس النظر الى دميانة يراعي ما يبدو منها وهي تتشاغل بمسح دموعها واصلاح ثيابها فقال « بعد ان كان الوالى عازماً على مكافأته بالجوائز والهبات أمر بجلده خمسمائة سوط وساقوه الى المطبق مقيداً بالاغلال »

فاظهر زكريا انه لم ير شيئاً من ذلك وقال « ولماذا ؟ . ما هو سبب هذا الغضب »

قال السبب انهم اكتشفوا على مكيدة دبرها لقتل ابن طولون .. »

قال زكريا « مكيدة ! وأي مكيدة ؟ »

قال « بينما كان ابن طولون راكباً لمشاهدة بناء العين وصل جواده الى مكان يوهم الناظر انه مرصف فاقبل اليه ووقف عليه فاذا هو قصرية جير فلم طوبة الجير غاصت يد الفرس فيه فكبا وسقط راكبه في الجير فعلموا انه تعمد ذلك ليقتل ابن طولون فأمر به فشقوا ثيابه وضربوه خمسمائة سوط ثم ساقوه مغلولا الى المطبق ولا ندري ما يكون من امره فى الغد »

فلما سمعت قوله بما فيه من لحن الشماتة لم تتمالك عن ان نظرت الى

اسطفانوس وقالت « ان سعيداً لا يرتكب مثل هذه الخيانة ولا بد في الامر من خطأ »

فهز اسطفانوس كتفه نحو العلو وقال « خطأ لا أعلم وانما أعلم ان ذلك المسكين السيء الحظ قد ضرب ٥٠٠ سوط وسيق الى المطبق وأصبح الامل بحياته ضعيفاً . . بالحقيقة ان حالته تدمي القلب . . . واذا كنت تبكين لحاله فلا ألومك . . . . مسكين . . . » قال ذلك وهو يهز رأسه ويظهر الاسف

فلما علمت دميانة انه يتعمد الحط من قدر سعيد ويوهمها انه مسكين حزين تحول حزنها عليه الى تحمس له وهمت بانكار ذلك عليه فقالت « لا أراه في حاجة الى هذا التأسف فانه لا يلبث ان تظهر براءته فيعود الى الحظوى عند صاحب مصر . ولم يفعل ابن طولون ما فعله الا لغضبه الموقت »

قالت ذلك وهي ترتعد ولم تعد تستطيع صبراً على الوقوف لسماع ذلك الحديث فتحولت نحو الباب وتحول زكريا معها فقال اسطفانوس « هل أذهب لايصالك الى الدير؟ ألا ترين الافضل ان تأتي معي الى منزلي وهو اقرب من الدير ؟ »

فلم تجبه وظلت ماشية ومشى زكريا في اثرها واسطفانوس يتبعها ويقول أظن دميانة تستطيل الطريق الى بيتنا وان كان قصيراً . ولكنني ارجو أن يقصر في عينها وذلك خير لها من ان يكون طويلا فتتعب في سلوكه اذ لا بد لها من الذهاب اليه » قال ذلك وضحك استخفافاً بغضبها ونفورها . فادركت انه يشير الى قرب زواجه بها فظلت ساكتة وهي تمشي وزكريا معها حتى خرجت من قبة الهواء فلقيت أباها عائداً فلما رآها تبكي علم سبب بكاءها فاستوقفها فوقفت فسلمت عليه وهي تتظاهر بصداع في رأسها وانها تحتاج الى الراحة فقال « لا بأس عليك . . تعالي نزل في بيت المعلم حنا انه أقرب من دير المعلقة .. »

فقال زكريا « يظهر انها ترتاح في ذلك الدير لاستئناسها بالراهبات »

فوافقها مرقس فانصرفا ودخل هو لملاقاة اسطفانوس فقص عليه ما دبره ودسه وان قصرية الحبر اعاوضعت هناك بمساعيه حتى وصل الى هذه النتيجة بالقبض على مناظره وزجه في السجن . فهنأه مرقس بالفوز وأخذا يفكران في تعيين وقت الاكليل لان دميانة لا بد من رجوعها الى رأي أبيها بعد أن يئست من سعيد

الفصل الثلاثون

الصلاة

وصلت دميانة الى الدير وسارت الى غرفتها لتبديل ثيابها ومكث زكريا ينتظر خروجها ليخفف عنها ويتواطأ معها على وسيلة للنجاة من الفخ . فما لبث أن رآها خرجت وسارت توا الى الكنيسة ـ مشت الى الصلاة ملجأ الحزانى وتعزية المنكوبين . اذا لم يكن في الصلاة غير هذه التعزية لكفى بها متسعاً لآمال المؤمن في ساعة ضيقه وحزنه . وقد صدق جمال الدين الافغاني اذ قال « ان الذين يسلبون العامة ايمانهم انما يحرمونهم من أكبر أسباب سعادتهم »

دخلت دميانة الكنيسة وجثت امام ايقونة العذراء وقلبها يتلوع حرقة مما قاسته في ذلك اليوم من النوائب . وأخذت تصلي بايمان وثيق وتتضرع إلى صاحبة الايقونة أن تأخذ بيدها وتنجيها من الحبائل التي نصبوها لها. كانت تصلي ودموعها تتساقط على خديها فقرعت صدرها وتوسلت الى الله أن يحمي حبيبها وينقذه من مكائد الدساسين. وطلبت ان يلهم أباها الصواب لعله يعدل عن اكراهها على التزوج باسطفانوس الى أن قالت « اللهم اني ضعيفة وهم اقوياء . . اللهم ألهمني ما فيه مرضاتك . . . . اني لا احب اسطفانوس . . . فهل في ذلك معصية ؟ اذا كنت تراني مخطئة حبه الى وارني خطئي . ان سعيداً رجل صالح فان كنت مخطئة أرنيه كما هو . . .

أبعده عن قلبي . . » وكانت تقول ذلك بحرارة وهي تشرق بدموعها وليس في الـكنيسة أحد يسمعها

وسكتت هنيهة وهي تتفحص ضميرها ثم قالت « ربي والهي اني لا ازال أرى سعيداً هو النصيب الذي اعددته لي . فان كان الامر كذلك انقذه مما وقع فيه . . اللهم كما انقذت مختاريك .. غير قلب ابن طولون حتى ينصفه .. اتوسل اليك بدم ابنك الوحيد الذي تجسد من اجلنا .. اني فتاة مسكينة مظلومة مقصوصة الجناحين . . خذ بيدي .. ألهمني ماذا أعمل . . كيف اتصرف . انر طريقي اني لا أريد معصيتك ولا ابتغي الا رضاك .. »

وسكتت وتشاغلت بمسح دموعها

ثم أحست بارتياح عظيم كأن هاتفاً في داخلها يقول لها « لا تخافي يا دميانة ان الله لا يتركك » فنهضت ومسحت دموعها وتحولت عن الايقونة تطلب الخروج من الـكنيسة فرأت زكريا واقفاً بالباب وقد أطرق وبان الحزن في وجهه فلما وقع نظرها عليه ابتسمت وأشرق محياها وقد اطمأن بالها وذهبت أحزانها

فادرك زكريا ان ذلك كله من ثمار الصلاة فتقدم اليها وهو يبتسم وقال لها « اتكلي على الله ياسيدتي وهو نصير المظلومين »

فمشت وهي تقول «وعلى من اتكل اذاً ؟ انه لا يتركني ولا يتخلى عني»

ثم سايرها زكريا في طريقها وهو يقول لها «أتريدين ان تصغي الى كلمة أقولها لك على انفراد ؟ »

قالت « نعم » ومشت الى غرفتها وكأن اهل الدير شعروا بوجوب تخليتها فلم تتعرض لها واحدة من الراهبات ولا الرئيسة . فلما وصلت غرفتها ادخلت زكريا وقالت « ماذا تريد »

قال « لااريد شيئاً لا تعلمينه ٠٠ هل لك ثقة بي ؟ »

قالت « كيف لا ٠٠ وهل لي احد سواك يازكريا ؟ أنت في مقام الوالد والوالدة والاخ والاخت ٠٠ ان ما اشاهده من حنوك ومحبتك لي في هذا الضيق شاهد صريح على ان الله لم يتخل عني ٠٠ قل ما تشاء »

قال « ان اباك لايلبث ان يأتي واظنه سيستعجل الزواج فاذا أظهرت له النفور والمقاومة . . . »

فقطعت كلامه قائلة « وهل تريد أن اطاوعه »

قال « كلا . ليس هذا ماأريده ولكنني اريد أن لا تصديه بعنف واما خذيه باللين فاذا اطاعك والا اسكتي وعلي تدبير الباقي »

قالت « سأفعل ذلك طاقتي »

وهم أن يتكلم وأمسك نفسه كأنه تذكر شيئاً يمنع التصريح بما في ضميره . وكانت هي تراعي حركاته فادركت تردده فاشتاقت الى الاطلاع على ما خطر له فقالت « ما بالك توقفت عن الكلام ؟ »

قال « لم اتوقف . . ولكن لكل أمر وقتاً »

قالت « لاصبر لي على الانتظار اخبرني عما خطر لك لعله يخفف عني »

قال « نعم .. اني لم أطلب اليك السكوت والمماطلة الا ريثما يصلنا النصير »

قالت « وأي نصير . من ينصرنا على هؤلاء ؟ »

قال « ينصرنا عليهم أبونا البطريرك . . أليس كذلك ؟ »

ففرحت بهذه الفكرة وقالت « واني لنا الوصول اليه وهو بعيد ؟ »

قال « لا نعدم رسولا اليه وقد فعلت ولم آخذ الجواب . . . وسآخذه قريباً . . . والمراد أنه لا ينبغي لك أن تيأسي »

فاشرق وجهها واطمأن بالها وقالت « سأفعل بما أشرت »

قال « هل تطيعينني بكل ما اقوله وتذهبين معي الى حيث اريد ؟ »

قالت « نعم »

وهما في ذلك سمعا وقع اقدام عرفت دميانة أنها أقدام والدها وتأكدت ذلك من صوت نحنحته فاجفلت فتركها زكريا في الغرفة وحدها وانصرف وهو يشجعها ويخفف عنها

الفصل الحادي والثلاثون

الاكليل

أماهي فجلست تنتظر وصول والدها فطال انتظارها ولم تعد تسمع صوته فهمت بالنهوض واذا هي بالرئيسة قادمة نحوها فوقفت لها وحيتها فقالت الرئيسة « ان المعلم مرقس وسيدنا الاسقف اتيا وسألاني عنك . . هنيئاً لك ما اكبر حظك من سيدنا فانه يحبك ويرعاك »

فلما سمعت ذلك احست بقشعريرة ارتعدت لها فرائصها وظهرت البغتة في وجهها وحدثتها نفسها ان ترفض المقابلة ولكنها تذكرت نصيحة زكريا فسكتت ولم تجب فعادت الرئيسة الى الكلام قائلة « أراك لم تعجبك بشارتي كانك لا تريدين ان تقابلي أحداً منهما واستميحك عذراً في كلمة أقولها هل تأذنين لي ؟ »

قالت « قولي »

قالت « لحظت أمراً فيك لم يعجبني لعلمي انك فتاة عاقلة تقية قد تفهمت كتاب الله وعرفت واجبات المسيحيين »

فاستغربت دميانة ما تسمعه منها ولم تفهم مرادها فقالت « ارشديني يا أماه الى الصواب »

قالت « الصواب يا دميانة ان لا تغضبي اباك لان الله يوصينا باكرام الوالدين »

فوقع قولها في نفسها وقوع النبل في الصدر لانها كانت كثيرة التقوى فأثر توبيخ الرئيسة فيها ثم تذكرت صلاتها في ذلك اليوم واقتناعها ان الله لا يريد أن تسلم نفسها لابيها فقالت « اني لم أغضب والدي وبماذا أغضبته ؟ »

قالت « قد علمت ذلك من قرائن الاحوال . . علمت أن والدك يريد زواجك باحد ابناء الخاصة وانت ترفضين »

قالت « أتحسبين الفتاة التي ترفض الزواج عاصية ؟ »

فادركت الرئيسة انها تشير الى الرهبنة فقالت « الا اذا كانت تريدان تنذر العفة وتنقطع عن العالم »

قالت « وما ادراك اني لا انوي ذلك .. لا يبعد ان انويه عن قريب » ثم تذكرت قول زكريا فاستدركت وقالت « ومع ذلك ان هـذه الامور لا تكون الا بالهام من الله والسيد المسيح فاذا اراد الله امراً لامفر من ارادته »

فتوسمت الرئيسة من كلامها اللين فاكبت عليها وقبلتهـا وهي تقول « بارك الله فيك هذا عهدي بتقواك وطيب عنصرك .. فالآن قد أتى والدك ومعه سيدنا الاسقف وهما في انتظارك بغرفتي . . قومي معي . قبلي يد الاسقف ويد والدك . . قومي »

قالت ذلك وأمسكتها بيدها فاطاعتها ومشت والرئيسة تحسب نفسها قد اقنعتها

فلما دخلت عليهما تقدمت تواً الى يد الاسقف فقبلتها ثم قبلت يد والدها فقبلها مرقس وقد اطمأن خاطره ورحب بها وبالغ في اكرامهـا ودعاها الى جانبه وقال « اقعدي هنا يادميانة يا ولدي »

فقعدت على الطنفسة بجانبه وهي مطرقة وقد صبغ الحياء وجهها فضلا عن احمرار عينيها من البكاء ولذلك كانت تحجبهما بالاطراق . ولما جلست خاطبها الاسقف قائلا « لقد سرني ياولدي ما عقدتم النـية عليه . . وفي صباح الغد نأتي ان شاء الله لعقد الاكليل »

فاجفلت دميانة لهذه المفاجأة ولم تكن تتوقع ان تسمع هذه العبارة حالا فبالغت في الاطراق وبان فيها الحياء ولم تجب فاستأنف الاسقف الـكلام قائلا « اني تعودت هذا السكوت في العرائس فانهن لا يجبن على كلامنا بغيره . على اني لم اكن اتوقع منك غير الايجاب ولو بالسكوت فان من كانت في مثل ما انت فيـه من التقوى وحسن التربية لا تستشار في امر يريده والدها ويتوسط به رئيس كنيستها . ولـكنني اجل قدرك واحب ان تكوني

مسرورة من النصيب الذي اخترناه لك . . ويكفي أن تظهري رضاك بالسكوت »

وكانت دميانة تسمع كلامه وهى تكاد تتميز من الغيظ وأرادت إن تستمهل الاكليل كما أشار عليها زكريا فلم تجسر على التكلم حياء وخوفا وحدثتها نفسا أن ترفض بتاتاً وتكاشف أباها بذلك صريحاً فغلب عليها الخوف والحياء لانه لم يكن يشجعها على مثل ذلك من قبل ورأت من قرائن الاحوال ان كلامها لا يفيد شيئاً فتماسكت وظلت ساكتة فاتخذ والدها سكوتها دليلا على القبول واعتقد قبولها لما علمه من مصير سعيد فتوهم انها لما قطعت الامل منه رضيت باسطفانوس فقال مخاطباً الاسقف «لم أكن أشك بطاعة دميانة لوالدها ولحضرة الاسقف ولكن بعض الناس كان يزين لها الباطل والظاهر انها رجعت الى الصواب . . وكل ذلك من تدبير العناية »

فقال الاسقف « ربما كانت دميانة تفضل أن تقام الافراح في بيت والدها ولكنها ستقام هناك ايضاً وانما اردنا عقد الاكليل هنا في هذه الكنيسة لما لها من الكرامة الخصوصية واحب أن اتولى عقد ذلك بنفسي اكراما لمقام العريس . فغداً ان شاء الله نأتي وأرجو ان يكون عملنا مباركا » قال ذلك ووقف فوقف مرقس احتفاء به ووقفت دميانة فقال لها أبوها قبلي يد الاسقف واشكريه على تعبه وعنايته في هذا الامر »

فقبلت يده فقبل رأسها وخرج وخرجت الرئيسة لوداعه مع مرقس ثم عادت وهي تضحك ضحك الفوز بما كانت تتمناه وضمت دميانة الى صدرها وقالت « يظهر ان كلامى اثر فيك »

وكان والدها قد رجع من وداع الاسقف فقال لدميانة « بورك فيك يا بنية . . ذلك كان عهدي بك من أول الامر فانا الآن ذاهب لاعداد ما يلزم للاحتفال وفي صباح الغد أعود اليك ونفرح معاً » قال ذلك وخرج

الفصل الثانى والثلاثون

اين دميانة

فلما خلت بنفسها أخذت تفكر بما سمعته وكانت تتوقع أن ترى زكريا بين يديها لتقص عليه ما جرى فلم تجده فقضت بقية ذلك اليوم في انتظاره

أما مرقس فانه سار تواً الى اسطفانوس وأخبره بقبول دميانة..فاعتقد انها لم تقبل به إلا بعد يأسها من سعيد فعزم على الانتقام منها لاستخفافها به وهو يرى ذلك هيناً بعد أن تصبح في عصمته ولم يكن يثنيه عن اتيانه مروءة أو اريحية فان هذه السجايا لا معنى لها في اعتباره لكنه اشترك مع مرقس في اعداد معدات الفرح من الشموع والزهور وغيرها وارسلوها الى الدير

وأخذت رئيسة الدير في تهيئة ما يلزم لتزيين العروس في الصباح وبات أهل الدير على أن يصبحوا في اليوم التالي لحضور الاكليل وسماع الترانيم

وكان اكثرهن رغبة في ذلك الرئيسة لانها كانت تحب دميانة وتعتبر نفسها بمنزلة والدتها وخصوصاً بعد أن نصحتها تلك النصيحة وتصورت انها أصغت لقولها وعدت ذلك احتراماً لها . فلما طلع النهار مشت الى غرفة دميانة لتدعوها الى الاستعداد وتريها ما حملوه اليها من مواد الزينة فرأت باب الغرفة لا يزال مغلقاً فقرعته فلم يجب أحد فظنها لا تزال نائمة فرجعت وفكرت في هل تتركها حتى تستيقظ من نفسها ثم رأت الوقت لا يأذن بذلك . فعادت وقرعت الباب ثانية فلم تسمع جواباً فوقفت تفكر واذا بالمعلم مرقس قادم فسألها عن دميانة فقالت « لا تزال نائمة »

فتقدم الى الباب وفتحه ودخل فدخلت الرئيسة معه فلم يجدا في الغرفة

أحداً ولم يجدا في الفراش ما يدل انهـا نامت فيه تلك الليلة فقال مرقس « يظهر انها لم تنم هنا . . فلعلها نامت في غرفة اخرى »

فقالت الرئيسة « هذه غرفتها تنام فيها منذ آنستنا فربما غيرتها الليلة » قالت ذلك ومشت الى غرفة أخرى كانت تجلس فيهـا في بعض النهار فلم تجدها. فأخذت تسأل عنها الراهبات وهن يفتشن معها حتى ضج اهل الدير وهم يفتشون ويسألون فلم يقفوا لها على أثر وسألوا الخدم عن زكريا فقالوا انهم لم يروه من مساء الامس فاستقدموا البواب وسألوه فقال « ان السيدة دميانة خرجت في مساء الامس الى كنيسة أبي سرجة لان عليها نذراً لها قد آن وفاؤه ــ خرجت ومعها خادمها »

فصدقت الرئيسة ذلك لسلامة نيتها وظنت النذر يتعلق بزواجها ولم تبق فرصة لتأجيل وفائه . أما مرقس فلما سمع ذلك رجع الى الغرفة وفتش في ثياب ابنته وأشيائها فرآها قد أخذت ما خف حمله وتركت ما تستغني عنه فقال « انها قد هربت مع ذلك النوبي اللامين انه عاد فأغراها على الفرار . . ولـكن الى أين يفران ان الفسطاط وبابلون والقطائع في قبضة اسطفانوس وابيه »

فقالت الرئيسة «لا تتعجل يا سيدي لعلها ذهبت الى كنيسة ابي سرجة حقيقة أن الـكنيسة على مسافة قصيرة من هنا »

قال « اسألي اذا شئت . . ولـكنني على يقين من فرارها . . واذا كانت ذهبت لزيارة ووفاء نذر فهل تأخذ معها ثيابها ومصاغها وهل تبيت هناك وتبقى حتى الآن وقد دخلنا في الضحى ؟ . ان ذلك النوبي اللمين اغراها على الفرار .. ولـكن..» قال ذلك وهو يهز رأسه ويتوعد وخرج تواً يلتمس اسطفانوس فالتقيا بالباب وكان قادماً للاشتراك في معدات العرس فقص عليه ما جرى وختم قوله بالنقمة على زكريا لانه اغراها . فأجاب اسطفانوس « لا تحمل الذنب لذلك النوبي . . انها ما زالت كما اعهدها . ولـكنني سأعلمها من هو اسطفانوس وسأعلم خادمها الاسود ايضاً ــ دعني أذهب لتدبير ذلك .. » وخرج

وخرج مرقس معه فسارا تواً الى القطائع واشتكيا الى صاحب الشرطة ان خادماً سرق ابنة المعلم اسطفانوس وفر بها وطلبا من يفتش عنها في الديور أو المنازل أو الكنائس . ونظراً لمقام حنا والد اسطفانوس في الدولة أجاب صاحب الشرطة طلبه فبث الرجال في انحاء الفسطاط ولاسيما في أحياء النصارى لاعتقادهم ان الفارين لا يجدان ملجأ في غير الديور أو الكنائس أو بعض مساكن القبط من الاهل أو الاصدقاء

فاصبح الاقباط في ذلك اليوم وهم يرون الجند وغير الجند يدخلون منازلهم للتفتيش عن الهاربين واكثرهم يتخذون تلك الحجة ذريعة لدخول المنازل أو الكنائس أو الديور وينهبون ما تصل اليه ايديهم من المال أو غيره . فضج الناس وعلا الصياح وأخذ القوم يتساءلون هل عاد زمن الظلم والاضطهاد زمن النهب والقتل وكانوا يحسبون ابن طولون كفاهم مؤونة ذلك ونشر الراحة والطمأنينة في ربوعهم وأمنهم على أرواحهم واموالهم ولم يقنعهم ماكان يقوله الشرطة من أنهم يفتشون عن سارق هرب واختبأ فانهم كثيراً ماكانوا يقاسون الاضطهاد والنهب بهذه الحجة

وكان مرقس واسطفانوس يرافقان الشرطة الى بعض الاماكن القريبة التي يرجحان التجاء دميانة اليها ويحرضان الجند على التفتيش وهؤلاء لا يبالون بغير النهب فقاسى الاقباط في الفسطاط وبابلون وضواحيها من العذاب والاضطهاد والخوف مالم يقاسوه منذ عهد بعيد . فوقع الرعب في قلوب الناس وركب بعض وجوههم الى ابن طولون يشكون اليه ما اصابهم فغضب وبعث الى صاحب الشرطة ان يرجع رجاله عن التعدي ففعل ولكن بعد ان نالوا ما يريدون ولم يقفوا للهاربين على أثر

الفصل الثالث والثلاثون

حلوان

أما دميانة فكانت قد فرت مع زكريا إلى مكان اعده لها في أثناء غيابه عنها في أصيل الامس . وذلك أنه لما رأى والدها والاسقف قد أخذا في مخاطبتها علم انهما أتيا لاتمام أمر الاكليل فسار الى صديق له من أهل بلده كان قد اعتنق الاسلام وأقام بجوار المسجد الذي كان قد بناه ابن طولون على المقطم قبل بناء مسجده المشهور وكان يثق به وانما اختار ذلك المكان لبعده ولعلمه أن الشرطة لا تبحث عنهما في المسجد . وعاد الى دميانة في المساء وأخبرها أن الفرار لا بد منه فاستخرجت أعز ما لديها وخرجا في العشاء من الدير بحجة زيارة كنيسة ابي سرجة كما تقدم وكان قد أعد فرساً لدميانة وركب هو على حمار حتى اذا خرجا من المحلة البسها عباءة وجعل على رأسها شبه عمامة مما يجعلها تظهر بمظهر الرجال وساق حماره أمامها حتى نزلا المكان المعهود فلاقاهما صاحبه بالترحاب

وباتا هناك وفي الصباح لبثا ينتظران ما يكون فما عتم أن سمعا بقيامة الجند على البلد وان المسلمين دخلوا منازل النصارى بحجة التفتيش عن ضائع أو هارب وانما يريدون النهب ومنهم من صدق دعوى الجند ومنهم من ظنها ذريعة للنهب . وأطل زكريا من بعض الاماكن على الطرق فرأى الجند يدخلون البيوت بالقوة فخاف ان يصل أحد الى مقره فرأى من الحكمة ابداله

وكان له صديق عربي في حلوان اسمه قعدان اصله من أهل البادية يقيم في منزل وهبه عبد العزيز بن مروان لاجداده منذ وجه عنايته الى تعمير تلك البلدة في أثناء امارته على مصر . وانتقل ذلك المنزل في اعقابه الى رجل عرفه زكريا من سنين عديدة وله معه صداقة وثيقة العرى فرأى

ان يلجأ اليه ولا سيما لانه يقيم مع عائلة فيها امه وامرأته فتستأنس دميانة بهما واذا غاب عنها في مهمة كان مطمئن الخاطر عليها.وفي صباح اليوم التالي ودع صاحبه وركب مع دميانة الى حلوان بطريق الصحراء وهما في الطريق قالت دميانة « تراني يا زكريا قد سلمت لك قيادي أذهب معك الى حيث تريد لا أسألك عن السبب .. »

قال « كوني على ثقة يا سيدتى انى أتفانى في سبيل راحتك ولا تجزعي فاني ساع في كل ما يرضيك »

قالت « الى أين نحن ذاهبون الآن ؟ »

قال « الى حلوان . . . وهـو بلد طيب الهواء بعيد عن مظان الباحثين وسترين هناك عائلة تستأنسين بها وترتاحين اليها فانها عربية بدوية »

قالت « وبعد ذلك »

قال « بعد ذلك . . . ؟ » وأطرق ثم قال « ان الفرج سيأتينا ولا بد من انتظاره . ولا بد لي في كل حال من الغياب عنك يوماً أو يومين لامر لا بد لي من قضائه ثم أعود اليك وعساي ان ابشرك بالفرح بعد قليل »

قالت « تتركني . . وتغيب عني يومين ؟ »

قال « لا مندوحة لى عن ذلك لانى ذاهب في مهمة يتوقف عليها نجاحنا وبها نتغلب على أعدائنا ولا بأس عليك ان كنت عند اصحابنا في حلوان . . »

فسكتت وبعد قليل أطلوا على حلوان ولم يكن فيها إلا بيوت قليلة فيما مضربا على أكمة حوله حديقة فترجل زكريا ومشى نحو الخيمة وقبل وصوله كان صاحبه قد شعر بقدومه من نباح الكلاب فخرج اليه ولما تبينه بالغ في الترحيب به . فقال له « نحن مسافرون الى الصعيد واحببنا التعريج عليكم لانى اشتقت لرؤيتك ومعي سيدة أنا ذاهب في خدمتها فنبيت عندكم الليلة ثم ننصرف »

فصاح الرجل باولاده ان ينزلوا الضيفين وقال « بل تقيمان عندنا أياماً »

ونزلت دميانة فرحبت بها امرأة الرجل وحيتها واستأنست بها ولا تسل عن ضيافة العرب وحسن وفادتهم . وكانوا يكلمونها بالعربية وتكلمهم بها على ضعف . وفي اليوم التالي أظهر زكريا انه عازم على الذهاب في مهمة مستعجلة وتقدم الى صاحب المنزل واوصاه بدميانة فقال نفديها بأرواحنا فهي الآن صاحبة المنزل ونحن اضيافها . . »

وقبل ذهابه اختلى بدميانة وأخبرها انه ذاهب في مهمة لا بد منها ويعود بعد يومين او ثلاثة وسألها هل استأنست باهل المنزل فقالت « لم أكن اظن العرب على هذه الاخلاق اذ لم أكن اسمع الا انتقاد أعمالهم معنا بالنهب والسلب فاذا هم أهل كرم ولطف »

فقال « ان العربي يا مولاتي اذا نزلت داره أصبح مجبوراً بحكم العادة المتبعة عندهم ان يدافع عنك بنفسه وأهله ويفديك بروحه وهو ما يسمونه في اصطلاحهم حق الجوار . وهل تظنين اذا أتى جند ابن طولون كلهم يقدرون أن يأخذوك أو يأخذوني من عنده وهو حي ؟ . . انه لا يزال يقاتل عنا حتى يموت أو ينقذنا . . اقول ذلك لازيدك طمأنينة فانت في هذا الخباء آمن منك في حصن حصين فاسمحي لي بالذهاب وسأعود قريباً »

ورغم ما سمعته من بواعث الطمأنينة فحالما تحققت عزمه على الذهاب انقبضت نفسها فأخذ يشجعها ويعتذر عن اضطراره الى الذهاب الى أن قال « وعلى غيابي هذا تتوقف سعادتك في المستقبل وبه نغلب أعداءنا »

فقالت « اذا لم يكن بد من ذلك فافعل . . اطلب الى الله أن يكون معك والسيد المسيح يحرسك ويوفقك »

*

الفصل الرابع والثلاثون

السر المهم

فودعها وخرج وأحست بعد خروجه بانفرادها هنـاك وتذكرت والدها وبيتها وكيف أصبحت طريدة شريدة بعد ان كانت ربة منزلها في طاء النمل وحولها الخدم والحشم . . وأصبحت لا تعلم هل تعود الى الدار أم لا . على أن قعدان وأهل بيته لم يتركوا لها فرصة للاستيحاش فكانوا يبذلون وسعهم في سبيل راحتها صغيرهم وكبيرهم

اما زكريا فانه تنكر وركب حماراً حتى اذا بعد عن الفسطاط ركب زورقاً وسار يلتمس طاء النمل وفضل ركوب الزورق لسرعـة جريه مع تيار النيل . فلما اشرف على القرية لبس ثيابه ونزل يلتمس بيت المعـلم مرقس كانه قادم من قبله في مهمة خصوصية وكان اذا دخل المنزل لايجسر احد من أهله أن يسأله عما يريده لانطلاق يده في شؤون البيت . فلقيه الخدم والنساء فسألوه عن المعلم مرقس فاخبرهم انه مقيم في الفسطاط يقضي مع دميانة اياما ثم دخل غرفة خصوصية يعرفها واقفل بابها وفتح صندوقاً واستخرج منه انبوباً من الفضة مختوماً هزه حتى تحقق ما يعهده في داخله لايزال فيه ثم خبأه في جيبه وخرج

وهو خارج مر ببيت ابي الحسن فوجده خارجاً من منزله ليتمشى في الحديقة على جاري عادته وآنس في وجهه انقباضاً فعلم سبب انقباضه ولم يكن يشك انه كان في جملة الذين شهدوا الاحتفال بالامس وانه شاهد ما اصاب سعيداً وهو يعلم انه بمنزلة ولده فتقدم نحوه فحالما رآه ابو الحسن تحول اليه فتقدم زكريا وهم بتقبيل يده فمنعه ورحب به وسأله اذا كان مولاه اتى معه فقال كلا يا سـيدي انه لا يزال في الفسطاط اظنك كنت هناك »

فهز ابو الحسن رأسه بمرارة وقال « نعم كنت هناك وقد رجعت البارحة »

قال « فاذاً شاهدت ما أصاب سعيداً »

قال « نعم شاهدت ذلك المنظر المؤلم . . ولكنهم سوف يندمون »

ففرح زكريا بتلك البشارة لعلمه أن ابا الحسن لا يقول جزافاً فقال « صحيح؟ بشرك الله بالخير »

قال « نعم انهم سيندمون لانهم لا يجدون من يغنيهم عن سعيد .. اذ ليس في هذه البلاد من يعرف معرفته بالهندسة »

قال « ولكنهم ساقوه الى السجن »

قال « ليس السجن عاراً على الرجال انهم لا يلبثون ان يخرجوه معززا مكرماً »

قال « وكيف ذلك ومتى »

فتقدم نحوه وهو يقول « ان ابن طولون عازم على بناء جامع كبير في القطائع ولم يجد من يحسن هندسته غير سعيد »

فقال « وهل يعرف ابن طولون ذلك »

قال « لايلبث أن يعرفه متى احتاج اليه »

فاطرق زكريا كانه فتح عليه باب الفرج ثم ودع ابو الحسن وانصرف الى فرس من افراس مرقس ركبه وطلب الفسطاط فلما اطل عليها ترك الفرس في خان وحدثته نفسه ان يسير تواً الى حلوان لمشاهدة دميانة لكنه احب ان يتمم ما جال في خاطره اولا ثم يعود اليها بالبشارة

الفصل الخامس والثلاثون

صدقات ابن طولون

تنكر زكريا بلباس الفقراء المتسولين ومشى الى القطائع واتفق وصوله الى قصر ابن طولون في ساعة تفريق الصدقات

وكان لابن طولون في الاحسان يوم مشهور يعرف بيوم الصدقة تفتح به أبواب القصر كلها لا يمنع داخل ولا يرد سائل . وكانت صدقاته على أهل الستر وعلى الضعفاء والفقراء وأهل التجمل متواترة . وكان راتبه لذلك في كل شهر الفي دينار سوى ما يطرأ عليه من النذور وصدقات الشكر على تجديد النعم . وسوى مطابخه التي اقيمت في كل يوم للصدقات في داره وغيرها يذبح فيها البقر والكباش ويغرف للناس في القدور من الفخار والقصاع . على كل قدر أو قصعة لكل مسكين أربعة ارغفة في اثنين منها فالوذج والاثنان الاخران على القدر . وكانت تعمل في داره وينادى من أحب ان يحضر دار الامير فليحضر وتفتح الابواب فتدخل الناس الميدان وابن طولون في مجلسه الذي يشرف منه على الناس فينظر الى المساكين ويتأمل فرحهم بما يأكلون أو يحملون فيسره ذلك ويحمد الله على نعمته . ولقد قال له مرة ابراهيم بن قراطغان وكان على صدقاته «ايد الله الامير إنا نقف في المواضع التي تفرق فيها الصدقة فتخرج لنا الكف الناعمة المخضوبة نقشاً والمعصم الرائع فيه الحديدة والكف فيها الخاتم» فقال «يا هذا كل من مد يده اليك فاعطه فهذه هي اللطيفة المستورة التي ذكرها الله سبحانه وتعالى في كتابه فقال «يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف» فاحذر ان ترد يداً امتدت اليك واعطِ كل من يطلب منك »[1]

فلما وصل زكريا الى ذلك المكان رأى ابن طولون جالساً في المقعد

---

(١) المقريزي ٣١٦ ج ١

المشار اليه بقلنسوته وقبائه على وسادة وقد تهلل وجهه سروراً بما يشاهده من آثار نعمته على الناس . وكان زكريا عازماً على أن يطلب مقابلته ويخاطبه رأساً فعلم ان لا سبيل الى مقابلته في تلك الساعة فاجل ذلك الى الغد . وخوفاً من وقوع الشبهة عليه تقدم في جملة طلاب الصدقة فمد يده فنال حظه فاكل وهو كيفما تحرك يفتقد الانبوبة وكان قد علقها بحبل في عنقه ودسها داخل اثوابه تحت ذراعه

وهو في ذلك رأى الناس يومئون الى مجلس الوالي فنظر فاذا هم يشيرون الى رجل دخل عليه عرف من لباسه وقيافته أنه المعلم حنا كاتب المادراني ورآه يحمل بيده درجاً ملفوفاً بمنديل من الحرير فاهتم ابن طولون لدخوله وانصرف بكليته اليه وأمره ان يقعد على وسادة بجانبه فقعد متأدباً واستأذنه في اطلاعه على الدرج فرضي . فحله وبسطه وأخذا يتحادثان ويتناقشان على ما يحويه الدرج ولحظ زكريا ان الكاتب يحاول اقناع ابن طولون بشيء مخطوط في الدرج وهو لا يقتنع . وأخيراً حول احمد وجهه عن الكاتب وانصرف الى مشاهدة الجماهير ولسان حاله يقول « هذا لا يعجبني والسلام »

ولم يستطع زكريا مشاهدة ما على الدرج لانحجابه عن بصره فاصبح في شوق الى استطلاع ذلك واذا بالناس يوسعون لقادم يطلب الخروج من القصر فتنحى والتفت فرأى المعلم حنا خارجاً وبجانبه ابنه اسطفانوس قد تأبط اللفافة ومشيا فبغت زكريا لرؤية اسطفانوس ولكنه بالغ في التنكر واقتص اثرهما خلسة لعله يسمع كلمة .حتى اذا اتيا مفرقاً من الطريق افترقا والكاتب يقول لابنه « ماذا نعمل له ؟ لا أظن في الدنيا أحداً يستطيع اجابة طلبه ـ جامع بلا اعمدة ؟ هذا أمر غريب »

فقال اسطفانوس « هو يريد أن يبني جامعاً بلا اساطين ؟ »

قال « نعم وقد استشرت امهر المهندسين الموجودين في الفسطاط ومنهم من تعلم في القسطنطينية أو تخرج في بغداد وقد شهد الناس لهم بالمهارة .

وهذه الخريطة عليها رسم جامع من أجمل ما بلغ اليه امكانهم فلم يعجبه فانه يريد ان يكون جامعه بلا أساطين »

فقال اسطفانوس « ولماذا ؟ . لماذا لم يفعل كما فعل عمرو بن العاص ببناء جامعه ؟ . . »

فقطع حنا كلامه قائلا « ان والينا عمد الى هذه الطريقة حتى يتجنب ما وقع فيه عمرو »

فهز اسطفانوس رأسه وظل ماشياً في طريقه ورجع زكريا الى موقفه وقد فتح عليه باب الفرج وأدرك الطريق الذي يمكن الوصول به الى انقاذ سعيد وعادت اليه هواجسه وعاد الى الامر الهام الذي جاء من اجله وتذكر دميانة ولهفتها الى رجوعه فافتقد الانبوب فوجده في مكانه فاطمأن باله لعلمه ان دميانة مهما بلغ من قلقها واضطرابها ففي هذا الانبوب ما يخفف عنها. وشغل خاطره من الجهة الاخرى بمن كان يزاحمه من وفود المتسولين وأهل العوز على تفاوت طبقاتهم

الفصل السادس والثلاثون

النظر في المظالم

حتى اذا انقضى وقت الصدقة وقد آذنت الشمس بالمغيب أقفلت الابواب وتحول ابن طولون عن مجلسه فانصرف زكريا الى الخان بات فيه وبكر في الصباح التالي . وخوفاً من ان يراه اسطفانوس مرة ثانية بلباس الغد فيعرفه تنكر بلباس نوبي قادم من سفره ويشكو من فكه الاسفل فربطه رباطاً كالخمار يحجب معظم رأسه والتف بشملة من نسيج القطن الابيض المعروف عندهم بالدمور ومشى حافياً مشية غريبة يدهشه كل شيء حتى أتى باب القصر فسأل الحراس الوقوف به عن الوالي أين يكون فقال له احدهم

« انه لا يتعاطى اليوم غير النظر في المظالم »

ولم يكن زكريا يعرف تلك العادة لان ابن طولون أول من نظر في المظالم من امراء مصر [١] ولم يكن زكريا يفهم المراد من المظالم والنظر فيها فاستفهم الحرسي قائلا « ومعنى هذا العمل عندكم »

فقال الحرسي « يظهر من لباسك وقيافتك انك غريب الديار فلاعجب اذا كنت لاتعرف هذا العمل . . اعلم ياصاحبي أن مولانا الامير نظراً لرغبته في المحافظة على حقوق رعيته وخوفا من أن يتعدى أحد من عماله أو كتابه أو رجال حكومته على أحد الناس فيظلمه أو يؤذيه قد خصص حفظه الله يومين في الاسبوع لسماع شكوى المتظلمين بنفسه وانصافهم »

فدهش زكريا لسماع ذلك ولم يكن سمع بمثله في مصر ولا غيرها وكان الحرسي يخاطبه وينظر اليه وهو يتوقع استغرابه واعجابه فلما رأى دهشه استطرد الكلام قائلا « اراك تستغرب هذه المنقبة في أميرنا ولا عجب في استغرابك لانكم لا تعرفون مثلها في بلادكم فانها من حسنات الاسلام حتى لا يظلم احد استظل به »

ففطن زكريا لاسطفانوس وما اتاه من الاذى لدميانة فقال في نفسه « هل اشتكيه لابن طولون ؟ » لكنه خاف وتردد ورجع الى الغرض الذي جاء به ولم يعد يرى تأجيل مقابلة ابن طولون فعزم على أن يدخل عليه في جملة المتظلمين ثم يحتال في مخاطبته بشأن سعيد وبناء الجامع

فسأل الحرسي عن المكان الذي يجلس فيه الوالى للنظر في المظالم فاومأ الى باب عنده الحجاب وقد تكأكأ الناس حولهم وهم يدخلونهم بالتدريج فتقدم زكريا ووقف في جملة الواقفين وصبر حتى انصرف اكثر الناس فطلب الدخول فأذن له فدخل وعليه قيافة البداوة فاطل على مجلس ابن طولون في قاعة مفروشة بالطنافس في صدرها كرسي كبير قد جلس عليه ابن طولون وبجانبه قاضيه بكار بن قتيبة وبين يديه قصص المتظلمين (العرائض) وقد تصفحها ابن طولون ودفعها الى قاضيه ليحكم فيها أو ينفذها

(١) المقريزي ٢٠٧ ج ٢

فلما دخل زكريا سأله الحاجب عن قصته ليدفعها الى الوالي ينظر فيها فقال « لم أكتب شيئاً وانما أريد أن اعرض ظلامتي شفاهاً للوالي رأساً بعد فراغه من النظر في قصص سائر المتظلمين »

فرفع الحاجب ذلك الى ابن طولون فقال « اجلسه ريثما نفرغ من عملنا »

فقعد زكريا وهو ينظر في ذلك العمل ويعجب بما فيه من العدل والانصاف حتى اذا فرغ ابن طولون من تصفح القصص صاح بزكريا «ما هي ظلامتك يا أخا النوبة ؟ »

فوقف زكريا وقال لا أقول ظلامتي الا فى خلوة مع مولاي »

وكان زكريا فى تنكره يظهر انه لا يعرف العربية الا قليلا . ولو تكلمها جيداً لما صدقوا انه آت من النوبة لان المسلمين لم يكونوا قد انتشروا في النوبة ولا دخلها الاسلام فكان يدخل كلامه بعض الالفاظ من لغة النوبة (البربري) ولكنه كان يحسن التعبير بحيث يفهم ابن طولون مراده

فلما سمعه يطلب الخلوة أشار الى القاضي وكان قد فرغ من عمله فخرج ولبث ابن طولون وحده فتقدم زكريا ووقف بين يديه متأدباً فاشار اليه أن يقعد فقعد وأزاح الخمار عن رأسه فلم يظهر فيه عاهة كما كان يظن من يراه مخمراً وابن طولون ينظر اليه وينتظر ما يقوله. واستبطأه فقال له «ممن تتظلم يا رجل ؟ »

فقال « اقول ولا بأس عليّ ؟ »

قال « قل . . انك على بساط الوالى ولي أمير المؤمنين ومهما يكن من ظلامتك فانك تنصف . قل ممن تتظلم ؟ »

قال « من احمد بن طولون ولي أمير المؤمنين ونائبه على مصر »

فبغت ابن طولون وقال « مني ؟ »

قال « نعم يا مولاي .. فاذا كنت قد تجاوزت حدي بالتظلم منك فانا بين يديك افعل بي ما تشاء »

قال « كلا فان لك الحرية ان تتظلم ممن شئت . ولكنني استغربت تظلمك مني وأنا واثق ببراءتي »

قال « رب ذنب لا يعرفه صاحبه »

قال « قل . . افصح ما هي ظلامتك فاني لا اعرفك ولا اذكر اني رأيتك قبل الآن »

قال « ولا أنا اتظلم لنفسي ياسيدي وانما جئت لمولاي الامير أرفع اليه ظلامة رجل لم يكلفني أن اتظلم عنه ولكنني فعلت ذلك رغبة في مصلحة صاحب هذا البلد »

قال « لم أفهم مرادك فافصح . من تعني ؟ »

قال « أعني الرجل الذي حكمت عليه بالجلد والحبس بعد ان بنى لك العين وأجرى فيها الماء . . . »

قال « الفرغاني ؟ الذي أوشك ان يقتلني بجهالته ؟ »

قال « وهل تعني انه يجهل هندسة البناء ؟ »

قال « طبعاً . . . ان سقوطي عن جوادي انما كان من الخلل الذي سببه جهله في فن الهندسة . . »

قال « ليس في هذا البلد من يقاربه في هذا الفن يا مولاى . ولكن قصرية الجير التي تعس بها جوادك انما تركت هناك لتعاسة حظه أو لعل لها سبباً آخر . وقد يكون بعض اعدائه وشوابه اليك فاغروك على أذاه ـ وانما اتكلم عن مهارته في الهندسة .. ليس في هذا البلد من يقاربه فيها ولا الروم الآتون من القسطنطينية ولا الفرس ولا غيرهم »

فاستغرب ابن طولون دفاع هذا النوبي عن ذلك القبطي ولم يعتد به فقال « وما الذي حملك على رفع هذه الظلامة الينا وأنت تقول ان صاحبها لم يكلفك ؟ »

قال « حملني على ذلك رغبتي في انقاذ مولانا من مشكل وقع فيه ولم يستطع احد أن ينقذه منه وان كان كلامي ثقيلا عليه فاني انصرف حالا »

فانتبه ابن طولون الى انه يعني الجامع الذي يريد بناءه ولكنه تجاهل وقال « وأي مشكل تعني ؟ »

قال « أعني البناء الذي أنت عازم على انشائه ولم تجد من يستطيع رسمه لك على الشكل الذي تريده »

قال « وهل يستطيع صاحبك أن يفعل ذلك ؟ . انه لا يستطيعه »

قال « لا أظنه يعجز عنه وما هو طلبك يامولاي ؟ »

قال « اني اريد ان ابني جامعاً بلا اساطين . . . هل يستطيع ذلك ؟ »

قال « لم أسأله ولكني احسبه يقدر » واستدرك زكريا قوله مخافة أن لا يكون سعيد قادرا فيعود الغضب على كليهما فاراد ان يثني ابن طولون عن عزمه من حيث الاساطين فاستأنف الكلام قائلا « وهل خلوه من الاساطين شرط لازم ـ كأن مولاي لايرى في الاساطين جمالا على الاشكال التي وضعوها بها في جامع عمرو . فاذا كان هذا سبب عدوله عن الاساطين انا اضمن ان سعيداً يجعل وضعها على شكل بديع .. »

فاشار ابن طولون بسبابته اشارة الانكار وهو يهز رأسه وقال « ليس هذا هو السبب في رغبتي عن الاساطين ... وقد رأيت فيك نباهة وغيرة فأخبرك أن سبب ذلك انما هو رفقي بأهل الذمة من سكان هذا البلد لاني لما عزمت على بنائه سألت المهندسين عما يحتاج اليه من الاعمدة فقدروا له ٣٠٠ عمود فهذه لا اقدر اجدها في غير الكنائس . . فاذا فعلت فاني استنفد أعمدة الكنائس في الارياف والضياع [1] وهذا ظلم لا ارضاه واحسبه لا يرضي الله . وأنا احب ان أبني مسجداً لايشوب بناءه ظلم .. وقد تعذب قلبي في هذا الامر فلم أجد وسيلة الآن اجعل هذا الجامع بدون أعمدة فلم أجد في مصر من يقدر على بنائه بدونها .. »

فتبسم زكريا وقال « هل سألت سعيداً السجين في المطبق ؟ »

قال « كلا . . . انه ذهب من فكري .. هل تظنه يقدر على هذا الامر ؟ »

---

(١) المقريزي ٣٦٥ ج ٢

قال « اظنه يقدر .. ومع ذلك فما على مولاي الا ان يأمر باحضاره ويسأله ويرى ما يقول »

فصفق ابن طولون فدخل غلام فقال له « قل لصاحب المطبق أن يأتيني بالنصراني المهندس انه مسجون عنده .. ادخلوه علي الساعة »

الفصل السابع والثلاثون

جامع ابن طولون

فاشار الغلام مطيعاً ومضى ووقع زكريا في حيرة وهو يخاف ان يخيب ظنه في سعيد ولكنه قال في نفسه انه اذا فشل بانقاذه من هذا الطريق عاد الى التظلم من سجنه بلا حق على أن يتهم اسطفانوس بانه هو الذي وضع قصرية الجير »

وكان ابن طولون في اثناء الانتظار مطرقاً يفكر بما سمعه ويتمنى ان يصح قول النوبي في سعيد لانه كان شديد القلق من هذا الامر وما عتم ان دخل الحاجب يقول « ان السجين النصراني في الباب »

قال « ادخلوه »

فدخل سعيد وقد تغيرت سحنته وطال شعره على غير هندام اذ لم يمسه المشط ولا رأى وجهه الشمس منذ مدة طويلة [1] فلما رآه زكريا انكره وتأثر من حاله وأصبح لشدة قلقه عليه وخوفه أن لا يستطيع العمل يرتعش وهو يتجلد . أما سعيد فدخل ولم ينتبه لزكريا وانما كان همه ان يجيب

---

(١) في التاريخ ان بين بناء الجامع وبناء العين اطول مما اقتضاه سياق الرواية . وذكر المقريزي ان النصراني هذا سمع وهو في السجن ان ابن طولون يريد بناء الجامع ولم يجد من يبنيه له بلا عمد فكتب اليه يقول انا ابنيه لك كما تحب فاستقدمه وقد طال شعره حتى نزل على وجهه — ذكرنا هذا حتى لا نشوه التاريخ

دعوة ابن طولون فوقف متأدباً فقال له ابن طولون « كيف ترى نفسك ؟ »
قال « أراني كما كنت »
قال « ألم تشعر بالخطأ الذي ارتكبته في بناء العين »
قال « لا يسلم أحد من الخطأ .. ولكنني لم أسأل عن خطأي لاتحققه أو أتبرأ منه وانما تعجل سيدي في عقابي بلا سؤال »
قال « ألا تعد ترك قصرية الجير ووقوعي عن فرسي بسببها ذنباً . . . ولكن مالنا ولهذا فنحن الآن عارضون عليك عملا آخر فاذا زعمت انك ماهر في الهندسة أخرجه لنا فنغتفر لك ما مضى »
قال « ما هو ياسيدي »
قال «عزمت على بناء جامع كبير على جبل يشكر في أطراف القطائع - انما اشترط أن لا يكون فيه أعمدة فهل تستطيع رسمه على هذا الشرط ؟ »
فأطرق سعيد وأخذ يفكر وقلب زكريا يخفق خوفاً من الفشل وابن طولون يراعي حركات سعيد ثم تناول هذا خيزرانة كانت ملقاة بجانب الحائط وأخذ يمرها على البساط كانه يرسم بها خطوطاً ومربعات وابن طولون يراعيه. وأخيراً رفع سعيد رأسه وقال «اني افعل ما أمر به مولاي ولكنني أستأذنه أن يكون في الجامع عمودان فقط هما عمودا القبلة »
قال « عمودان فقط ؟ »
قال « نعم فقط اثنان »
فقال ابن طولون وقد بان البشر في محياه « هل تقدر أن تبنى الجامع على أن لا يكون فيه غير عمودي القبلة ؟ »
قال « نعم »
قال « أخاف ان يكون شكله مشوهاً أو منظره قبيحاً »
قال « كلا سيكون من أجمل الجوامع - ليس مثله الا المسجد الذي بناه أمير المؤمنين المعتصم في سامرا »[1]
« قال قبلت به . . أرنى صورته »

---

(١) راجع رواية عروس فرغانة

قال ائتوني بالجلود فأصوره لـكم كما يكون بعد الفراغ من بنائه »
فكاد قلب زكريا يطير من الفرح ولـكنه ظل ساكتاً ليتحقق الامر بعد الرسم

وأمر ابن طولون بالجلود فأتوه بها فأخذ سعيد يصور عليها رسم الجامع بجدرانه وقبلته وصحنه ومأذنته وميضته . فلما فرغ من الرسم دفعه الى ابن طولون ففرح به كثيراً وأمر ان يطلق سراحه وان يخلع عليه وقال له « سأطلق يدك في النفقة على البناء . . ومتى فرغت منه كافأتك أحسن مكافأة »

فأحنى سعيد رأسه شاكراً

أما زكريا فلم يعد يستطيع كتمان فرحه فتقدم حتى وقف بجانب سعيد فاستلفت انتباه ابن طولون وظنه يتصدر لينال الجائزة فقال له « والفضل في حل هذه المشكل لهذا النوبي الشيخ بارك الله فيه »

فالتفت سعيد الى زكريا فرآه ينظر اليه ويضحك فعرفه وخفق قلبه لتذكر دميانة وبانت البغتة في محياه وخاف أن يلحظ ابن طولون بغتته فاستأذنه في الخروج فقال له « تخرج الى دار الاضياف وسنأمر لك بقصر تقيم فيه ولا يؤذن بخروجك من القطائع لان وجودك أصبح يهمنا كثيراً واذا شئت أن تأتي باهلك فيقيمون معك في القصر فلا بأس » والتفت الى زكريا وقال « انك صاحب فضل يا عم ... بورك فيك . . سل ما تشاء »

قال « لا أسأل الا أن يكون مولاي موفقاً . . . وقد انشرح صدري لظهور الحق ويكفيني ذلك »

فقال احمد « ولـكنه لا يكفينا نحن . » وصفق فجاء الغلام فأمر له بجائزة فدعا له وخرج وهو يعلم ان سعيداً يود مقابلته قبـل الانصراف فترصده عند خروجه

فلما رآه سعيد أسرع اليه وسأله عن حال دميانة فقص عليه ما جرى لها وما قاسته من عنـاد أبيها وما كان من أمر اسطفانوس وانهـا الآن في حلوان تنتظر رجوعه ولا يقدر يتصور سرورها لما يرجع اليها بهذه البشارة

وكان سعيد يسمع حديثه وهو يكاد يتميز من الغيظ فلما فرغ من كلامه قال له « تباً لذلك الخائن النذل . . كأنه ينتقم بهذا العمل عن اللطمة التي ذاقها ليلة عيد الشهيد . . وكان يحسن به أن يبين نفسه ولكنه لئيم جبان. وقد واطأه مرقس على ابنته وهو جاهل لا يعرف ما ينفعه ولا ما يضره والحمد لله على رد كيدهم في نحورهم . . فاذهب الى دميانة بشرها بالفرج وقل لها ان ذلك الغر سينال جزاء فعلته قريباً ... وكم أود أن اذهب معك لاراها ولكن ابن طولون لا يأذن بخروجي من قصره كما سمعت على انني سأسعى في زيارتها في وقت آخر وآتي بها تقيم معي في القصر الذي وهبه لي الوالى بعد أن اهيئه لاستقبالها ونقيم فروض الاكليل

فودعه زكريا واراد الانصراف فرأى غلام ابن طولون واقفاً ينتظره ليحمله الى الكاتب يدفع اليه الجائزة . ولم يخط خطوتين نحو باب القصر اذا هو باسطفانوس قد برز من وراء الباب ووقف وجعل ينظر الى زكريا ويتفرس فيه ولسان حاله يقول له « قد عرفتك » ولو لم يشاهده مع سعيد بعد أن علم برضا ابن طولون عنه واكرامه اياه لاسرع الى القبض عليه بحجة السرقة لكنه خاف سعيداً وتذكر ليلة عيد الشهيد فكظم

الفصل الثامن والثلاثون

البجة

وأما زكريا فنظر اليه نظر الفائز ومشى وهو لا يبالى ولولا رغبته فى الاسراع الى دميانة لشكاه الى ابن طولون وان كان لا يضمن فوزه عليه نظراً لنفوذ والده فاكتفى بان نظر اليه شزراً نظر تهديد واحتقار ومشى حتى قبض الجائزة وتحول يطلب حلوان وقد مالت الشمس عن خط الهاجرة ولا يشعر بما تقع قدماه عليه من شدة شوقه لملاقاة دميانة وتبشيرها بما أتاه من اسباب التعزية والفوز

ولم يكد يتوسط الطريق الى طرا حتى رأى الناس يتراكضون نحو القطائع وفيهم النساء والاطفال على غير نظام كأنهم هاربون من معركة وعرف من جهة مسيرهم انهم قادمون من حلوان فسأل بعضهم عن ذلك الفرار فأجابوه « ان البجة سطوا على حلوان ونهبوها .. »

فقال « ومتى كان ذلك ؟ »

قالوا « نزلوا عليها في هذا الصباح وفتكوا باهلها ونهبوا بيوتها »

فاجفل زكريا وخفق قلبه ووقف لحظة وقد جمد الدم في عروقه خوفاً على دميانة فرآه الراكضون واقفاً فقالوا له « ارجع ياعماه والا فانك تذهب فريسة البجة لعنهم الله انهم كالابالسة ووجوههم كوجوه الشياطين »

فلم يبال بما سمعه ولم يزده ذلك التحذير الا رغبة فى المسير الى حلوان ليرى ماتم لدميانة وظل ماشياً ولو تنبأ بشيء من ذلك لذهب الى الفسطاط أولا وركب الفرس ولكنه وجد نفسه اقرب الى حلوان مما الى الفسطاط فظل مسرعا يعدو وهو لايزال يرى النـاس يتراكضون فراراً من القتل والنهب وقد سبق الى ذهنه ان دميانة لابأس عليهـا لانها في جوار صديقه قعدان العربي

فلما أطل على حلوان طاب منزل الرجل فاشرف عليه عن بعد فرأى الخباء منصوباً فاطمأن باله ولكنه لم ير احداً حوله ولم يدن منه حتى رأى الخراب مخيما عليه . وأول شيء استلفت انتباهه شبح ملقى على الارض بباب الحديقة عرف انه غلام صاحبه فتقدم نحوه فرأى الدم يجري منه وقد مات فاضطربت جوارحه وخاف ولكن لهفته على دميانة شغلته عن الخوف فمشى في الحديقة وهو يتلفت فرأى آثار حوافر الخيول بين الاغراس وقد تكسرت وتخربت . ولم يزل ماشياً وقلبه يخفق حتى أقبل على الخباء فسمع انيناً وتقدم فرأى رجلا مطروحا كالميت ولم يقع نظره عليه حتى عرف انه صاحبه قعدان فاجفل وصاح « قعدان ! قعدان ! » واكب عليه وامسك بيده ليجلسه ويفحص حاله

فادار قعدان وجهه اليه والدم يسيل من كتفه على اثر طعنة عميقة فلما رأى

زكريا حاله علم أنه في حال النزع فقال له « لا بأس عليك يا أخي ما الذي اصابك »

قال بصوت مرتعش وهو يقطع كلامه من شدة الضعف « عفواً يا زكريا اني لم . . . استطع الاحتفاظ بدميانة . . . فقد أخذوها مني . . . أخذها لصوص البجة ... ويعلم الله اني بذلت جهدي في حمايتها حتى قتل ولدي ورجالي وها أنا كما ترى . . فالعفو اني لم استطع القيام بحق الجوار »

وكان يقول ذلك وهو يقطع كلامه وزكريا ينظر اليه وقلبه يكاد ينفطر لما آنسه من آلامه . ولما سمع اعتذاره وكيف أنه ضحى أهله ونفسه في حماية جاره اكبر انفة العرب ونخوتهم واسف لذهاب صديقه قتيلا بلا فائدة لانه فهم من خلال حديثه انه لم يستطع حماية دميانة فاحب أن يستفهم عما جرى لها فقال « لا بأس عليك يا أخا العرب . . انك والله قد وفيت حق الجوار واحييت سنة العرب ... وهل للانسان من شيء يبذله في سبيل جاره أعز من أهله ونفسه فارجو أن يشفيك الله .. » وكان زكريا لايزال قابضاً على يد قعدان فهم بانهاضه وهو يقول « انهض. اجلس. هل آتيك بماء تشربه .. قم لاغسل جراحك . . »

فاجتذب يده منه وقال لا فائدة من الغسل ولا من الشرب فاني ميت لامحالة .. واعلم يا أخا النوبة ان دميانة لاتزال حية ولكن البجة اخذوها سبية وأظنهم أخذوا أيضاً ابنتي وسائر أهلي . . قال ذلك وتململ وبان التألم في وجهه وصرخ « آه . . لو كنت استطيع القيام للحقت بهم » واختلج وشهق واسلم الروح

فلم يتمالك زكريا عن البكاء رغم اشتغال خاطره بدميانة واسف لموت هذا الصديق الذي يندر مثاله ولكنه لم يجد حيلة ينفعه بها وقد قضى نحبه سوى أن يواريه التراب ولم يجد أحداً يستعينه لان أهل حلوان كانوا قد هجروها في ذلك اليوم وهجرها أيضاً البجة بعد أن نهبوها وفروا خوفاً من رجال الحكومة أن تدركهم فاحتفر حفرة التي قعدان فيها ودفنه وصلى على قبره. ورجع الى نفسه وأخذ يفكر في الذي يجب أن يفعله للحصول على دميانة

فراجع الكلام الذي سمعه من قعدان ففهم من مجمله أن البجة سطوا على حلوان فنهبوها وسبوا نساءها . وكان زكريا قد عرف البجة وعاشر بعضهم وهم يقيمون في الصحراء الشرقية يعيشون على الغزو والنهب وهم اشداء اهل بادية وخشونة فلما تصور دميانة معهم اقشعر بدنه لعلمه أنهم لا يعافون محرماً ولا دين لهم يردعهم من اكبر الجرائم وهم يومئذ لايزالون على الوثنية

الفصل التاسع والثلاثون

الحيرة

وكان زكريا يفكر في ذلك وهو يمشي على غير هدى نحو الجهة التي حسب البجة نزلوا منها أو عادوا اليها لعله يقف على أثر لهم أو يرى من يرشده اليهم حتى صعد الى اكمة اشرف منها على الصحراء عن بعد فلم ير أحداً ولكنه عرف من آثار الحوافر ان القوم كانوا هناك وذهبوا فحدثته نفسه للهفته ان يقتص اثرهم وحده للبحث عن دميانة ثم رجع الى رشده لتيقنه عجزه عن ادراكهم ولاهو يعرف مقرهم . وهب انه ادركهم فكيف يقدر على تخليص دميانة منهم . فوقف برهة وهو في تلك الحيرة ثم انتبه بغتة الى الانبوب فافتقده فاذا هو لا يزال تحت ذراعه فتذكر دميانة وما قاسته من البلاء والعذاب . ولما دنت سعادتها واسرع بتبشيرها بالفوز سبيت فقال في نفسه « ليكن اسم الرب مباركا ان هذه الفتاة مع تقواها وطيب عنصرها ومع أسباب السعادة التي تحيط بها كأنها خلقت لتشقى .. اين انت الآن يادميانة ؟ ماذا أقول لخطيبك اذا سألني عنك أأقول له سباها البجة؟. وهم قوم لا يحفظون حرمة ولا يوفرون عرضاً . . » ولما قال ذلك غلب عليه الحزن واليأس فبكى واغرب في البكاء ولم يكن حوله احد يسمعه فاطلق لحزنه العنان

وكانت الشمس قد مالت الى المغيب فلما رأى الاظلال تستطيل انتبه لنفسه واستوحش فعاد الى صوابه فقال في نفسه « لا يفيد الندب في مثل هذه

الحال.. يجب أن اعمل عملا يجب ان اسعى في انقاذ دميانة.. كيف انقذها. أأذهب الى سعيد أخبره بما أصابها واستنجده ؟ . وماذا ينفع استنجاده انه لا يستطيع عملا حتى ابن طولون نفسه لو اراد ان ينجدني ولو جرد جيشاً على البجة لا يفيد شيئاً فان هؤلاء مابرحوا عصاة على رجال الحكومة من عهد بعيد فلم تخضعهم دولة لقيامهم في الصحراء التي لا يستطيع سلوكها سواهم . . فلا ثمرة في استجداء سعيد سوى تكديره واقلاق راحته .. ماذا افعل اذاً ؟ »

وتذكر للحال ايام صبوته يوم كان في بلده بالنوبة وتذكر ماللملك النوبة من السطوة والهيبة في قلوب البجة فقال « لا ينجدني في هـذا السبيل الا ملك النوبة . . ولـكن اين هو واين نحن ان بيننا مراحل عديدة . ثم هو لا يعرفني ولا ينجدني . . . »

وكان يناجي نفسه وهو راجع عن تلك الاكمة نحو حلوان فلم يجد خيراً من أن يعود الى الفسطاط فينزل الخان وفيه ثيابه وفرسه ثم يرى ماذا يعمل ومشى وهو لا يبالى بالتعب وقد اظلمت الدنيا فجعل طريقه على ضفة النيل واخـذ يعمل فكرته في طريقه لانقاذ دميانة من مخالب أولئك اللصوص

خرج من حلوان وقد غربت الشمس وهو في لباس بدو النوبة كما كان عنـد خروجه من القطائع ومشى وهو مرتبك الافكار فوقع بصره نحو العشاء على انوار عند سفح المقطم علم انها في قبة الهواء فتذكر موقفه مع دميانة وتذكر للحال صديقه في المسجد القائم هناك وكان قد مر به قبل ذهابه الى حلوان وهو يعرف فيه الاطلاع على احوال البجة وسائر أهل الصحراء لقيامه في أوائلها فخطر له ان يذهب اليه ويستشيره في الامر لعل له وسيلة قريبة لنيل المطلوب . فعرج نحو المقطم فما عتم أن صعد حتى أتى المسجد فلاقاه صديقه وانكره لاول وهـلة ثم تعارفا فدعاه الى الجلوس فجلسا بين يدي الباب خارج المسجد على الارض فسأله عن حاله فاخبره انه ترك دميانة عند صديقه العربي في حلوان وجاء الفسطاط فى مهمة ولما رجع رأى البجة قد سطوا على البلد وقتلوا من قتلوه وفر الباقون . وانهم أخذوا

دميانة سبية الى ان قال «وهل تعرف شيئاً عن أولئك البجة واين يقيمون ومن هو زعيمهم ! »

قال « ان زعيمهم اليوم يقال له ابو حرملة »

فصرخ زكريا « ابو حرملة ؟ فرج النوبي ابن بلدنا ؟ »

قال « كلا .. ليس الرجل الذي تعنيه ولكنه تسمى باسمه تشبهاً بالشجعان والف حوله عصابة من قومه وجعل ديدنه السطو على اطراف مصر ينهب ويقتل ولم يسبق انه سطا على حلوان قبل الآن »

فتنهد زكريا وقال « لعله فعل ذلك لسوءطالع تلك الفتاةالتقية .. وان تظن اولئك البجة يقيمون الآن ؟ »

قال « يقيمون ؟ لا اعرف لهم مقاما لانهم قوم رحل يعيشون على الغزو والسطو »

قال « وما رأيك الآن. كيف العمل ياصاحبي؟ انى اراني في حيرة .. كيف يمكنني انقاذ هذه الفتاة فقد اؤتمنت عليها وعاهدت نفسي أن أقوم بخدمتها ورعايتها . وقد أخذت مني في اثناء غيابي وياليتني كنت حاضراً ساعة السطو فكنت اما انقذها أو اقتل في سبيل ذلك فاذهب مرتاح الضمير .. » قال ذلك وغص بريقة ولم يتمالك عن البكاء

الفصل الاربعون

الاستنجاد

فلما رآه صاحبه يبكي مع شيخوخته شاركه في احساسه واخذته الاريحية فقال « خفف عنك يا زكريا .. واشكر الله لانك لم تكن حاضراً في تلك الساعة لانك كنت مقتولا لامحالة ولا تبقى حيلة لانقاذ الفتاة اماوانت حي فلا تعدم وسيلة لانقاذها »

قال « ما هي الوسيلة ! ارشدني . هل تعلم مقر هؤلاء فاذهب اليهم

بنفسي وأكلم أبا حرملة واستعطفه لعله يشفق على الفتاة وافتديها بما يريد من المال »

قال « أما مقر هؤلاء فلا سبيل الى معرفته والاستعطاف لا فائدة منه وأما الفداء فلو كان الاسير رجلا أو غلاما أو امرأة طاعنة في السن فربما أفاد أما وهي فتاة جميلة فلا أظنهم يقبلون عنها فدية والغالب أن يجعلها ابو حرملة في جملة نسائه فقد سمعت انه رغاب في النساء .. »

فقطع زكريا كلامه قائلا « تعني انه يتزوجها ؟ »

قال « يتزوجها أو يتسراها لا أدري .. »

صاح زكريا « أعوذ بالله من ذلك.. » وأطرق هنيهة ثم قال «لا اخاف عليها منه وان كان جباراً ما دامت حية ولكن.. » وبلع ريقه وأخذ ينكت الارض باصبعه ويعمل فكرته

فابتدره صاحبه قائلا « لا فائدة من طول التفكير اننا لا نعرف مقرهم واذا عرفناه لا قدرة لنا على مناوأتهم »

فتذكر زكريا سعيداً ومنزلته عند ابن طولون فقال « وما قولك اذا استنجدنا أمير مصر ? هل ينجدنا بجند »

فابتدره قائلا « ولا فائدة من نجدة الامير فانه لا يعرض رجاله للموت فى الصحراء ولو كان في امكانه ردهم لفعل ذلك من قبل فان اولئك البجاويين لم ينفكوا عن السطو على حدود هذه البلاد من ازمان متطاولة والحكومة عاجزة عن ردهم فكيف يتعقبهم الى منازلهم ومنازلهم على ظهورهم . . »

فعلم زكريا ان لافائدة من استنصاره سعيداً فعزم على كتمان هذا الامر عنه وعاد الى التفكير وهو مطرق فقال له صاحبه « ما بالك لا تفكر بمولانا ملك النوبة وانت تعلم نفوذه على البجاة فانهم لا يخافون سطوة سواه كما تعلم أو هم يكرمونه على الاقل »

قال « اعلم ذلك وقد خطر ببالي ان استنجده ولكنه لا يعرفني وبلده بعيد وأخاف أن اضيع الوقت بالسفر اليه في أطراف النوبة ثم اعود بالفشل

ويذهب سعيي عبثاً »

فقال « أما أنت نصراني ؟ »

قال « نعم »

قال « ألا تعلم تمسك ملكنا بالنصرانية وغيرته عليها ؟ »

قال « أعلم . . » وانتبه لرأي اشرق وجهه له وقال « قد فطنت لوسيلة تضمن النجاح . فطنت لما تريد ان تقوله . . ستقول لي ان استنجد أحد اساقفتنا ليتوسط لى لدى ملك النوبة ولكنني اقدر ان اوسط البطريرك نفسه »

فصاح الرجل عند ذلك قائلا « بورك فيك هذا احسن رأي واذا اتبعته فانك نائل ما تريد . . اذا استطعت ان تأخذ كتابا من البطريرك الى ملك النوبة يوصيه بك فانه فاعل ما تريد .. »

فلم يتمالك زكريا عن القيام للحال ومد يده فودع صديقه وقال « اعذرني على سرعة الذهاب فقد استصوبت رأيك وانا عامل به والوقت ثمين »

قال « الا تنام هنا الليلة وتسافر فى الصباح »

قال « دعني اذهب لاعداد ما يلزم . . » قال ذلك وتحول قاصداً الفسطاط من جهة الشاطئ

ولما اطل على حصن بابل ووقع بصره على دير المعلقة عرفه من نور معلق بباب الحصن فتذكر دميانة والاسقف ومرقس وتذكر البطريرك مخائيل وهو يعلم انه في دير ابي مقار بالصحراء الغربية في وادي النطرون والطريق اليه شاق ولا بد من التأهب للمسير فيه

ووصل الفسطاط وقد اغلقت ابوابها فبات في مكان خارجها ولما فتحت الابواب دخلها متنكراً حتى اتى الخان واخذ يتأهب للسفر الى دير ابي مقار وقد علم ان المسافة اليه بعيدة سيقطع في اثنائها النيل والصحراء الغربية

ورأى لتمام الحيلة ان يتنكر بلباس الرهبان وحدثته نفسه ان يركب

فرس مرقس الذي اتى به من طاء النمل ولكنه خاف ان ينم عليه فيذهب تنكره عبثاً فباعه لصاحب الخان واشترى هجيناً خفيفاً وضع عليه رحلا ونزل السوق فاشترى ثياب الرهبنة واهمها الرداء الاسود الخاص بالرهبان والقبعة الخاصة برهبان دير أبي مقار . قضى في ذلك يوماً كاملا وفي المساء أعد كل شيء على أن يسافر في صباح الغد

ولما عزم على السفر تذكر سعيداً وقال في نفسه «كيف اتركه واسافر بدون أن يعلم مصيري ولا ما تم لدميانة فربما ذهب الى حلوان فلا يقف على خبرها فيظنني خدعته أو ربما تولاه اليأس أو غير ذلك »

قضى ليلته وهو يفكر في سعيد ولم ينم الا قليلا وتعاظم الامر عليه في أثناء رقاده ـ لان الانسان اذا فكر في أمر يهمه وكان تفكيره في الظلام وهو راقد مغمض الاجفان تعاظم عليه الوهم. فتصور زكريا أنه اذا لم يطلع سعيداً على ماجرى يرتكب ذنباً عظيما فلما اصبح تنكر بغير لباس البادية الذي جاء به يوم مقابلة سعيد وخرج الى القطائع وأخذ يسأل عن المهندس النصراني لانه كان معروفاً هناك بهذا الاسم فلم يهتد اليه • ولكنه اهتدى الى القصر الذي أعدوه له وسأل حاجبه فقال له « خرج في مساء الامس ولم يعد بعد »

فأخذ يفكر في ماذا عسى ان يكون حاله وكيف يخرج والى أين مع ان ابن طولون انكر عليه الخروج وخاف ان يكثر من السؤال لئلا يشتبه الحاجب به فرجع وخطر له في اثناء رجوعه ان سعيداً ربما ذهب الى حلوان بعد أن بلغه سطو البجة عليها لان خبر تلك الغزاة ذاع في انحاء المدينة • فترجح لديه أنه ذهب الى هناك • فتوجه زكريا في ذلك الطريق لعله يلاقي سعيداً وما مشى طويلا حتى شاهد فارساً قادماً من طريق حلوان وتنبأ من قيافته أنه سعيد وما عتم ان وصل الفارس فاذا هو بعينه فناداه زكريا فوقف ولماعرفه أسرع اليه وترجل وهو يقول « اين دميانة .. ذهبت الى حلوان فلم اجدها ولا وقفت لها على خبر . هل كنت تقول غير الواقع ؟ »

قال « كلا يا سيدي انما قلت الصدق . . ولـكن . . . ألم تسمع بما أصاب حلوان ؟ »

قال « سمعت ان بعض البجاة سطوا عليها ونهبوها.فهل أخذوا دميانة في جملة السبي ؟ » قال ذلك وهو يتلعثم وقد جف حلقه

قال يظهر انهم أخذوها..وكنت ذاهباً للتفتيش عنها بدون ان أخبرك لئلا اكدرك بلا فائدة لانك مقيد في منصبك ولا سيما الآن . ثم رجعت امس الى رشدي ورأيت الافضل ان أراك قبل سفري »

قال «وماذا جرى ؟ اخبرني . . قل »

فقص عليه حديثه منذ فارقه بالامس وسار الى حلوان وكيف وجد قعدان العربي وانه لم يجد وسيلة لانقاذ دميانة غير توسيط البطريرك لدى ملك النوبة . وانه ذاهب في الغد الى دير أبي مقار »

وكان سعيد يسمع كلامه ويكاد يتميز من الغيظ فلما فرغ من السماع قال له « لماذا لا نطاب البجاة رأساً فنحمل عليهم برجالنا ونأخذ دميانة قهراً .. اني لا أرجع عنهم حتى آخذها . . » قال ذلك والغضب يرقصه

فقال زكريا « لا يعلم أحد مقرهم في هذه الصحراء يا سيدي وقد فكرت في ذلك . . ثم انك اذا كلفت ابن طولون ان ينجدك بالرجال فانه لا يجيب طلبك . وهو مصيب اذا لم يفعل »

قال « مالي ولابن طولون .. اذهب بنفسي . . . » قال ذلك مدفوعاً بالحماس والغيرة ولو اراد مباشرة العمل لرجع عن عزمه

اما زكريا فقال له « اذا كنت ترى وسيلة لاسترداد دميانة بالقوة كما تقول فافعل واما انا فلا امل لى في ذلك الا على الطريق الذي ذكرته لك . . . دعنى اذهب بهذه المهمة ولا أضيع الوقت سدى . . هل تأذن بذهابي ؟ »

فتنهد سعيد والدموع تكاد تترقرق في عينيه لتصوره حال دميانة في قبضة اناس وثنيين لا آداب لهم ولا دين لهم ولا شفقة في قلوبهم . . وقال «اذهب انت وانا سأبحث عن طريقة قريبة فاذا وفقت اليها والا فانت سائر

في عملك واذا جد لديك شيء أخبرني . . . وأنا مقيم في القطائع هل عرفت منزلي ؟ »

قال « نعم عرفته . . . أستودعك الله اني راجع الساعة والاتكال على السيد المسيح وارجو ببركة سيدتنا مريم العذراء أن نتوصل الى الغرض المطلوب »

فدعا له سعيد بالتوفيق وافترقا

الفصل الحادي والاربعون

صحراء ليبيا

سار زكريا تواً الى الخان وقد أعد كل شيء لسفره فركب هجينه وخرج من الفسطاط فقطع النيل على جسر جزيرة الروضة وقطع جسراً آخر الى بر الجيزة . فلما صار في البر الغربي من النيل اغتنم خلوة بدل فيها ثيابه ولبث ثياب الرهبنة وهو نوبي اللون والملامح فأصبح كأنه راهب من رهبان النوبة . وأول شيء وجه انتباهه اليه تلك الاسطوانة التي وضع فيها آماله وآمال دميانة فانه جعلها في كيس علقه بعنقه تحت ابطه بحيث لا تظهر ولا ينتبه لها أحد . وبات تلك الليلة وبكر في الصباح فركب هجينه وسار شمالا يطلب بعض المحطات التي يمكن السفر منها الى وادي النطرون الذي فيه دير أبي مقار

والوادي المشار اليه في صحراء ليبيا غربي الدلتا على مسافة ثلاثة ايام منها يقطعها المسافر في رمال وصخور لا أثر للعمارة فيها ولا يلقى أنيساً الا القوافل الذاهبة الى ذلك الوادي لتحمل الملح أو النطرون الى الدلتا أو الراجعة بالمؤن والاطعمة للرهبان المقيمين في الاديار المبنية في تلك البادية الموحشة

ذكر بعضهم انه كان في جوار ذلك الوادي نحو خمسين ديراً وقال

آخرون اقل من ذلك والموجود منهـا الآن لا يتجاوز عدد اصابع اليد أهمها اربعة دير أبي مقار ودير الامبا بشاي ودير السرياني ودير البراموس. أولها أقربها الى الدلتا ثم تتباعد حسب ترتيب ذكرها . وهي قديمة البناء ربمـا اتصل تأسيسها بالقرن الرابع للميلاد أي عنـد شيوع الرهبنة في النصرانية مما لا محل لتفصيله هنا

والذاهب الى وادي النطرون لا يأمن الذهاب وحده في تلك البادية خوف الضلال في الطريق وحذراً من أهل السطو . ولذلك فلم يكن الناس يسافرون الا مع القـوافل جماعات ولم يكن زكريا يجهل ما يعترضـه من الخطر في ذلك السفر فلما وصل الى المحطة التي يبدأ منها الدخول في الصحراء غربا الى وادي النطرون أخذ يبحث عن قافلة يسير برفقتها فعلم أن ركباً يتأهب للمسير في الغـد يحمل المؤونة من الزيت والحنطة وغيرها الى دير أبي مقار . ففرح بهـذه الفرصة وانخرط في سلكهم ومعهم راهبـان من رهبان الدير فسألاه عن أمره فاضطر أن يكون قوله مطابقاً لملابسه فقال « انني راهب من رهبان النوبة »

فقال الراهب « اظنك قادماً بمهمة الى البطريرك مخائيل » وتنحنح فقال « نعم احب تقبيل يديه . . »

فلما قال ذلك التفت احد الراهبين الى زميله وتبسم كأنه ينبهه الى شيء لاحظه فلما رأى زكريا تبسمه وايماءه خاف أن يكون قد كشف أمره — ويكاد المـريب يقول خذوني — لـكنه تجـلد والتفت الى الراهب الذي ضحك وقال وهو يظهر عدم الاهتمام « مابالك تضحك أيها الاخ.. العلك لم تصدق قولي ؟ »

قال « العفو يا اخي . . ليس هـذا غرضي . معـاذ الله ان اشك في قولك . . ولـكنني ضحكت لامر تذكرته وقع من عهد غير بعيد . واذا كنت آتياً من النوبة الآن فانك جدير بمعرفته . . »

فلما سمع زكريا هذا الشرط خاف ان ينكشف امره ويظهر انه متنكر فربما كان عليه بأس فابتسم واغضى كأنه يعرف السر ويود السكوت عنه .

واكتفى بأنه تحقق وجود البطريرك بخاتيل هناك فوافقه الراهبان وقضوا ذلك اليوم في الاستعداد واقلعوا في صباح اليوم التالى ومعهم الخدم لسوق الجمال أو البغال وكلها للدير . وهي تحمل جراراً من الزيت واكياساً من الحنطة والعدس والفول وبعض الاقمشة غير ماعليها من الاقوات والماء للطريق

وما تبطنوا الصحراء حتى اصبحوا في قفر يكتنفهم الرمل والصخور من كل ناحية كما يكتنف الماء المسافرين في البحار اذ لا يرون حولهم كيفما توجهوا الا ماء والمسافر في البادية اذا أوغل فيها لا يرى حوله الا رمالا . ومن أجمل مناظر الصحراء في النهار منظر السراب أو الآل الذي يتراءى للناظر عن بعد كأنه ماء يجري في نهر أو بحر ويرى أظلال الشجر أو الصخور في أسفل الماء كما تنعكس عن شواطىء البحور فيراها المقبل عليها من بعد

ولم تكن هذه المناظر غريبة على زكريا فقد ركب البادية مراراً ورأى السراب وقاسى العذاب فى شبابه ولكنه لم يأت دير أبي مقار قبل ذلك الحين ولا عرف الطريق اليه فكان معوله على رفاقه . ورآهم في قلة من الرجال فقال لهم وهم يسوقون هجنهم ضحى ذلك اليوم لا يسمع لها خطو على الرمال « أراكم في قلة وعهدي ان القافلة اذا لم تكن قوية يخشى عليها من قاطعي الطريق هناك »

فقال أحد الراهبين « كان ذلك قبل ولاية ابن طولون فانه أحسن الظن بالاقباط ومنع التعدي عنهم فأصبح الواحد والاثنان يسافرون منفردين ولا خوف عليهم »

فقال زكريا « صدقت ان حال مصر في ظل هذا الامير لم يسبق له مثيل بعد امراء العرب في أول الفتح »

الفصل الثانى والاربعون

الاشباح

واستراحوا نحو الاصيل وتناولوا الطعام وعادوا الى المسير حتى أمسى المساء فنصبوا خيمة خفيفة الحمل للمبيت فيها . وجلسوا للطعام وقد دنت الشمس من الافق وأخذت تستطيل حتى صارت كمثرية الشكل واحمر لونها وأحاطت بها هالات من الشفق باهرة الالوان مما يسحر العقول . ولو كان اهل تلك القافلة من الشعراء لوقفوا مبهوتين لهيبة الطبيعة وخيل لهم انهم يسمعون خطيباً يعظم أمر الخليقة ويستعظم سرها - لا يخطر للانسان عظمة هذا الكون وكبر شأنه الا اذا خلا في موقف طبيعي مثل هذا . وأما في المدن فتشغله الجواذب والدوافع ويلهو بملذاته ومطامعه . ولكن اصحابنا الرهبان لم يكونوا من الشعراء ولا استلفت ذلك المنظر انتباههم وانما شغلهم تعبهم عن كل شاغل فذهبوا الى الرقاد على ان يقلعوا في الغد فيصلوا دير أبي مقار قبل الغروب

وكان زكريا أكثرهم رغبة في الوصول لانه حالما تبطن الصحراء خطرت دميانة في باله لانها اخذت الى مثل هذه البادية واصبح سريع الرغبة فى استحثاث هجينه للوصول الى الدير لكنه لم يشأ أن يترك رفاقه لان جمال الحمل تمشي ببطء بخلاف الهجن . فخطر له ان يستأذن رفاقه في صباح اليوم التالي ليسبقهم وحده فلما سألهم انكروا عليه انفراده فوافقهم واقلعوا في الصباح وساروا وهم يقطعون منخفضات ومرتفعات ليست من قبيل الاودية والجبال وانما هي تعاريج لا يبرح معها المسافر كيفما توجه يجد نفسه محاطاً بالتلال الصخرية أو روابي الرمل .

وفي أصيل ذلك اليوم أطلوا من حافة ذلك السهل على واد عظيم فيه آثار ايدي الانسان من الابنية المتفرقة وبعض الاشجار المبعثرة

وأول بناء كبير وقع نظرهم عليه دير ابي مقار بقرب فتحة الوادي عن بعد شاسع وحالما أطلوا عليه اشرقت وجوههم وقال احدهم «هذا هو الدير»

فقال زكريا «لابد من الوصول اليه الليلة ؟» قال ذلك بنغمة الاستفهام دليلا على رغبته في الوصول وخوفاً من تباطؤ القافلة فاجابه الراهب« اظننا نصل . واذا لم نصل ففي صباح الغد.. واذا كانت الليلة مقمرة نواصل السير ليلا حتى نصل . اذ يظهر لي انك مستعجل في مهمتك يا أخ » وضحك فعلم زكريا أنه يقول ذلك على سبيل المزاح لانهم عرفوا من الامس ان الليلة مظلمة والقمر في آواخر ايامه فادرك انهم يمازحونه أو يعبثون به فلم يجبهم وتشاغل باصلاح رحل جمله تحته . وبينما هم سائرون وعينا زكريا نحو الدير وقع نظره عند أول الوادي على أشباح راكبين على هجن ولم يستطع عييزهم لبعد المسافة فقال لاقرب الراهبين اليه « اني ارى اناساً ودواب من هم ؟»

فنظر الراهب الى الوادي وتفرس قليلا ثم قال « ألا تراهم خارجين من الوادي انهم من التجار يحملون احمال الملح والنطرون أوربما حملوا القش الذي يصنعون منه الحصر فانه كثير هنا »

فقال « لا أرى معهم احمالا مما ذكرت واذا كانت معهم احمال فينبغي أن تكون أقل من ذلك كثيرا »

وكان الراهب الآخر يتفرس في الاشباح فلما سمع جواب زكريا قال « صدقت .. احسبهم من تجار الزجاج لان في هذا الوادي معملا يصنعون فيه الزجاج بنفقة أقل من نفقته في الفسطاط فيبتاع التجار من هذا كميات كبيرة يحملونها الى الاسواق »

فقال زكريا « لم اكن اعلم أن الزجاج يصنع في هذه الارض المنقطعة»

فقال الراهب « هو يصنع هنا من عهد دولة الروم ولا يزال [1] »

فسكت زكريا . وبعد هنيهة توارت تلك الاشباح وراء التلال ولم يعودوا يرونها وطفقوا سائرين في طريقهم وعيونهم نحو الدير ولا سيما

(١) Butler. Anc. Copt, Churches I. 288

زكريافانه كان اكثرهم رغبة فيالوصول وزاد قلقه لما شاهد الشمس تقترب من الافق خوفاً من تخييم الظلام قبل الوصول

وهم في ذلك رأوا هجاناً ظهر من وراء رابية وعليه العباءة والكوفية أوقف هجينه لحظة ثم أشار اشارة وتقدم وظهر وراءه بضعة جمال على كل منها راكب وكلهم مسلحون بالرماح . ورآهم زكريا يتقدمون فخاف لانه توسم فيهم الغدر اذ لم ير معهم احمالا فالتفت الى رفيقيه الراهبين فرآهما قد تغير وجهاهما فقال « يظهر أن هؤلاء ليسوا تجاراً.. وأظنهم من الاعداء فان البستهم عربية »

ولم يتم كلامه حتى رأى القوم يسوقون هجنهم نحوهم وقد اشرعوا الاسنة فتحقق انهم من الاعداء فأخذ يتأهب للفرار واذا بهجان منهم تقدمهم وهو ملثم وأشار بيده كانه يقول لهم « قفوا عندكم »

فقال زكريا « ماذا تريدون ..من انتم ؟ »

وكان قد وصل الهجان اليهم فتفرس بزكريا ولما تبينه قال له باللغة القبطية « الست قادماً من النوبة ؟ قف ولا تتحرك »

فرآه زكريا يتكلم القبطية كأنه واحد من أهلها مع أن لباسه عربي فاشكل أمره عليه وقال في نفسه « لا يمكن أن يكون هذا عربياً . فلعله جاسوس من الاقباط يعين العرب عليهم » وزاده تلثمه شبهة به لكنه شغل بالخوف منه عن البحث في شأنه

فتحقق القوم عند ذلك أنهم مأخوذون وعلم زكريا أن رفاقه لا يستطيعون الفرار لثقل أحمالهم أما هو فحمله خفيف وليس عليه ما يمنعه من الاسراع فتهيأ للفرار وقد استغرب قول الرجل انه راهب نوبي . فتقدم الراهبان وأرادا الاستفهام عما يريده أولئك فقال احدهما يخاطب ذلك الهجان « ما الذي تبغونه منا »

قال « اتركوا الاحمال وانجوا بانفسكم »

قال « اننا نحمل طعاماً للدير .. ولم نعهد احداً تعرض لنا قبلا لاننا اصدقاء الامير صاحب مصر »

قال « لم نتعرض لكم قبلا اما الآن فانتم أعداؤنا ... واذا لم تتخلوا عن الاحمال قتلناكم فانجوا بانفسكم »

فتحقق الراهبان وزكريا انهم مغلوبون على أمرهم لان اولئك يزيد عددهم على عشرة بالسلاح الكامل وهم لا سلاح معهم فضلا عن قلة عددهم فاخذوا يتوسلون اليهم ان يتخلوا عنهم وانهم يستغربون هذه المعاملة التى لم يسبق لها مثيل منذ عدة أعوام فقال اولئك « لا تسألونا عن السبب بل اسألوا بطريركم وهو يخبركم » قالوا ذلك وهم يهددونهم بالقتل اذا لم يتخلوا عن الاحمال وينصرفوا

فتقدم زكريا يريد ان يستعطفهم وقال « انهذه الاحمال طعام لرهبان يقيمون في هذا الدير لا اذية لهم وقد اوصى نبيكم بحسن معاملتهم فهم لم يرتكبوا خطيئة ولا اتوا منكراً يوجب هذا العداء »

فانتهره ذاك الرجل وقال له « كانوا كذلك وقد افسدتموهم يا معشر النوبة . . وسترون عاقبة امركم قريباً . . واذا قلت كلمة اخرى اخرجنا ما تخفيه بين اثوابك من الرسائل »

الفصل الثالث والاربعون

الفرار

نخاف زكريا اذا اصر على الانكار وبحثوا بين اثوابه ان يعثروا على الاسطوانة تحت ابطه فيأخذوها وتذهب آماله عبثاً ولم يعد يعلم ما ذا يعمل لينجو قبل ان يقبضوا عليه وهم اذا أرادوا قتله لا يمنعهم شيء فتظاهر بالاستخفاف والتجاهل وقال « فتشوني اني لا احمل شيئاً وانما جئت لأفي نذراً لهذا الدير وانا اشير على رفاقى أن يتخلوا لكم عما معهم ويتبعوني قبل أن يشتد الظلام فيضلوا عن طريقهم » قال ذلك واشار الى الراهبين ان يتبعاه ووخز جمله فطار به وكانت الشمس قد غابت وتكاثفت الاظلال فزاد

القوم رغبة في القبض على زكريا لما آنسوه من رغبته في الفرار فصاحوا به « قف عندك »

ولكنه كان قد اطلق لهجينه العنان فاقتفى اثره اثنان منهم . وكان قد تعود ركوب الجمال في شبابه وقد نسيه لطول الترك لكن رغبته فى النجاة وخوفه من وقوع ذلك الانبوب بأيدي القوم جدد نشاطه واحيا شبابه فثبت على الرحل ثبات الجبال ولكن مطارديه من اهل البادية الذين شبوا على ظهور الجمال ، فلم يطارداه إلا قليلا حتى أحس انهما كادا يدركانه. وكان الليل قد أسدل نقابه واصبح على مقربة من دير ابي مقار عرف ذلك من مصباح موقد هناك لاهداء القادمين. فلما ايقن بالهلاك ضاع رشده وارتبك في امره وعثر الهجين برابية من الرمل فاختل موقفه فهوى زكريا عن ظهره واراد ان يتمسك برقبته فخانته يداه فسقط الى الارض فوق الرمال والهجين مازال جامحاً في عرض الصحراء . ولما وجد زكريا نفسه على الرمال سليما استرجع رشده وركض منحرفاً عن الطريق وأخذ يبحث عن مكان يختبيء فيه ريثما يمر الهجانان فوجد حفرة نزل فيها وهو يتلمس جوانبها

أما الهجانان فكان احدهما قد تعب وتباطأ وظل الآخر يستحث هجينه في اثر زكريا وقد اشرع الرمح وزكريا تارة يتوارى عنه وراء التلال وطوراً يظهر له وربما اقترب منه حتى كاد يدركه فيعيقه عنه عائق من وعورة الطريق او غيرها فيسبقه . ولما سقط زكريا عن الجمل كان قد بعد عن مطارده وتوارى في ظل اكمة ولم يقف هجينه بل زاد عدواً لانه اجفل من سقوط راكبه واحس بخفة محمله ولم ير الهجان المطارد سقوط زكريا فظل في اثرالهجين . ولم ينتبه الى ان الهجين يعدو وحده الا بعد ان تجاوز مكان السقوط بمسافة طويلة فأيقن ان زكريا سقط وقتل واصبح همه ان يقبض على الهجين من جملة الغنائم فأخذ يتعقبه

اما زكريا فتربص في تلك الحفرة وعيناه تتعقبان الشبح الذي كان يطارده فرآه تجاوز فياثر الهجين فاطمأن على حياته فأخذ يتجسس اعضاءه

لئلا يكون قد تعطل شيء منهـا فوجدها سليمة فشكر الله وعد ذلك من كرامات مار مقاريوس صاحب الدير . وافتقد الاسطوانة فوجدها في مكانها تحت ابطه فاستخرج طرفها وقبله سروراً ببقائها واعادها الى مخبئها ولبث ينتظر ما يكون من أمر رفاقه هل ينجون بانفسهم أم يذهبون في جملة الغنائم . فقضت مدة لم يعد يسمع فيها صوتاً فخرج من الحفرة والظلام شديد وتسلق رابية وأخذ يتلمس ويتفرس فيما حوله لعله يرى شبحاً أو يسمع صوتاً فلم ير غير نور الدير وقد اصبح قريباً منه فمشى نحوه وقد احس بالتعب في ساقيه لـكن فرحه بالنجاة من القتل انساه كل شيء

وما كاد يمشي قليلا حتى سمع صوتاً قف له شعره وارتعدت فرائصه — سمع حفيف ثعبان ينسـاب على مقربة منه ثم سمع فحيحه فجمد الدم في عروقه ووقف وقوف الصنم لانه كان يسمع عن الثعابين السامة في تلك البادية . وكان الظلام قد حال بينه وبين ما حوله فلم يعرف كيف يتقي اذى تلك الحية فأخذ يرسم علامة الصليب على وجهه ويستغيث بمريم العذراء ومار مقاريوس صاحب ذلك الدير وبسـائر القديسين بصوت كالتمتمة ولو أراد لم يستطعه لجفاف حلقه من الخوف

ظل واقفاً بضع دقائق حسبها سـاعات حتى بعد الحفيف عنه فتحقق نجاته لـكنه ما زال يخاف من طارق آخر فاستعان الله واستجار بقديسيه ومشى نحو النور الذي يراه في دير ابي مقار

الفصل الرابع والاربعون

دير ابي مقار

مشى زكريا على تلك الرمال وهو يتجسس طريقه . تارة تغوص قدمه في الرمل فيخاف أن تلدغها عقرب وطوراً تصـدم صخراً أو تعثر بحصى فيجفله صوتها . وكان محتذياً نعالا من القش كانت شـائعة في وادي النيل

ينسجها بعض أهل الريف من ألياف البردي أو القنب أو البوص . كان يخطو وهو يتعثر بثوبه وافتقد قبعته فلم يجدها وكانت قد سقطت فى اثناء الفرار ولم يشعر فلم يهمه أمرها وانما أهمه الوصول الى الدير

أقبل على الدير فوجده مربع الشكل يكتنفه سور عال أشبه بأسوار قلاع الحصار طول كل ضلع من اضلاعه ١٤٠ متراً ولم يكن زكريا جاء ذلك المكان من قبل ولكنه كان يسمع ان القادم على امثال هذا الدير يقرع جرساً فوق الباب فيفتح له . فاخذ يفتش عن الباب فدار حول السور فلم يجده فاتهم عينيه بالخطأ لاعتقاده أن الديور لا يمكن ان تكون بلا ابواب . فاعاد التفتيش بدقة فوصل الى مكان من السور وجد عنده حجري رحى كبيرين قطر الواحد منهما ثلاثة اذرع فتفرس فيهما فرأى وراءهما باباً لا يزيد علوه على ذراعين واذا فتح لا يدخله الانسان الا ساجداً . فمد يده الى الباب جسه بانامله فرآه مصفحاً بالحديد الضخم بحيث يستحيل كسره وهو لم يكن يريد كسره وانما يريد أن يعلن أهل الدير بوصوله ليفتحوا له فقال في نفسه « إذا كان هذا هو الباب فلا بد من وجود الجرس عليه أو وراءه » فتسلق على أحد الحجرين وتلمس الحائط فوجد عليه حبلا جذبه فسمع صوت الجرس وكان له دوي في ذلك الليل الموحش. وعلا نباح الكلاب من الداخل ووقف ينتظر ما يكون

وبعد هنيهة رأى اشعة نور مرسلة في الفضاء داخل السور تقترب نحوه واخيراً رأى النور أصبح فوق السور يحمله راهب هرم قد أطل عن السور وهو يتطاول بعنقه والمصباح في يده وقد مدها نحو زكريا كانه يستكشف حاله ووقعت اشعة المصباح على وجه الراهب فابان عن شيخ هرم قد تجعد وجهه وشاب شعره . وحالما وقع بصره على زكريا قال باللغة القبطية « من أنت »

قال « غريب قاصد زيارتكم لتقبيل انامل البطريرك والتبرك بصاحب هذا الدير »

قال « هل انت وحدك ؟ »

قال « نعم يا اخي ألا تفتح لي ؟ »

قال « ان فتح الباب يقتضي مشقة كبيرة لازاحة الحجرين من الخارج والاحجار التي وراءه من الداخل فالاوفق على ما ارى أن ندلي لك حبلا ونرفعك بالبكرة »

قال « كما تشاء »

فمضى الراهب ثم عاد وادلى له حبلا تشبث به فادار الراهب بكرة كبكرة البئر فصعد زكريا حتى بلغ اعلى السور فسلم على الراهب ونزلا من وراء الباب وقد تغطى معظمه بالاحجار الضخمة التي دعموا الباب بها. وربما زاد وزنها على عشرات القناطير فاستغرب زكريا ذلك الحذر لان نقل هذه الاثقال يقتضي وقتاً ومشقة فقال «اراكم قد اكثرتم من الدعائم للباب كانكم في حصار »

قال « لم نفعل ذلك الا هذين اليومين لاسباب ستعلمها . . تفضل الآن الى غرفة الاضياف وغداً نعرض أمرك للرئيس »

ومشى الراهب بالمصباح أمامه بين نخلات تناطح السحاب حتى ادخله غرفة معدة للاضياف وقد أخذ التعب منه مأخذاً عظيما فصلى فرضه ونام

ودير أبي مقارعبارة عنالسور الذي ذكرناه وفيه خمسة ابنية : ثلاث كنائس وبناء لسكن الرهبان وقضاء حوائجهم من اعداد الطعام وتناوله وبرج عال يقال له القصر وفيه ذخائر الدير من الكتب أو الانية القديمة. ويتخلل هذه الابنية نخيل وبعض المغروسات التي يحتاجون اليها في اصلاح الطعام

والكنائس المشار اليها هي : (١) كنيسة ابى مقار على اسم صاحب الدير (٢) كنيسةالشيوخ (٣) كنيسة ابسخرون. والبناء الذيفيهمساكن الرهبان عبارة عن دار واسعة تحيط بها غرف بعضها للمنام وفيها غرفة مستطيلة للطعام وحجرة كبيرة للطحن واخرى للخبز واخرى للطبخ . اما القصر فانه مؤلف من طبقتين السفلى اقبية معقودة فيها خزائن الكتب أو غيرها من الذخائر الثمينة كالالبسة أو التيجان أو الصلبان ونحوها

ومخازن المؤونة للزيت والحنطة وفيها منافذ سرية يلجأ اليها الرهبان عند الخطر العظيم اذا أخذ ديرهم

وفي الطبقة العليا من هذا القصر ثلاثة معابد أحدها على اسم مارسواح والاخر لمار انطانيوس والثالث باسم مار مخائيل . وفي هذا المعبد الاخير البطاركة الذين ما توا هناك محنطة في توابيت . والقصر حصين قد احتاطوا لمنع الاذى عنه بان جعلوا بابه في الطبقة العليا لا يمكن الصعود اليه الا على سلم أو جسر مدرج واصطنعوا له سلماً مستقلا ضخم الشكل ثقيل الحمل ينصب عليه عند الحاجة فاذا انزل عنه لا يمكن رفعه الا بالآلات الرافعة أو يتعاون في نصبه عدة رجال (١)

وافاق زكريا في صباح اليوم التالي على صوت الناقوس للصلاة باكراً فنهض واسرع مع سائر الرهبان لحضور القداس في كنيسة ابي مقار وهي افخم تلك الكنائس واجملها فيها ثلاثة هياكل اكبرها الهيكل الاوسط مساحته ٢٥ قدما في ٢٠ عليه قبة مبنية من القرميد على طراز جميل وعلى جدرانها صور بعض القديسين وفي وسطها مذبح من الحجر ووراءه مقاعد كالمنبر

فاصطف الرهبان لسماع الصلاة وعددهم بضع عشرات بينهم عدة قسوس يتقدمهم البطريرك بلباس الصلاة ورئيس الدير. وكان زكريا يعرف البطريرك من قبل وقد شاهده مراراً في كنائس مصر لكنه رآه الان قد تغيرت ملامحه وبانت الشيخوخة في جبينه ولحظ فيه انقباضاً لم يعهد به مثله فقال في نفسه « لامر ما تغير البطريرك » وزاد رغبة في ملاقاته . فاقيمت الصلاة بالقبطية على جاري العادة وليس في الجمع غريب غير زكريا فاستلفت وجوده انتباههم واصبحوا ينتظرون الفراغ من القداس لسماع حديثه

(١) Butler, I. 296 & 304

الفصل الخامس والاربعون

البطريرك مخائيل

أما هو فحالما انقضت الصلاة وخرج البطريرك والرهبان ذهب الى الراهب الذي استقبله في الامس وطلب اليه ان يقدمه الى البطريرك فاستمهله الى ما بعد الفطور ودعاه الى الطعام في غرفة مستطيلة في وسطها مائدة طويلة من الحجر الى جانبها مقاعد يجلس عليها الرهبان في صفين . فاجلسوه معهم وجاء الطعام وهو فى غاية البساطة لا لحم فيه ولا فاكهة وأخذوا يأكلون بعد صلاة مختصرة الا راهباً منهم تولى قراءة فصول من الكتاب المقدس في أثناء الطعام

وكان زكريا يأكل وقلبه مشتغل بما سيدور بينه وبين البطريرك من الشؤون التي جاء من أجلها أو اتفقت له في طريقه . وقد تحقق ضياع المؤونة المحمولة الى الدير والذين حملوها اذ لم ير واحداً رجع منهم الى تلك الساعة . وكان الرهبان يتحادثون ويشركون زكريا فيحديثهم وهم يحسبونه راهباً مثلهم

فلما فرغوا منالطعام تقدمالراهب الشيخ الى زكريا ان يتبعه الىغرفة رئيس الدير فقدمه اليه فاسرع زكريا الى تقبيل يده فرحب به وسأله عن حاله وغرضه فقال « جئت لمقابلة ابينا البطريرك »

قال « ألعلك من رهبان النوبة ؟ »

فوجم هنيهة ولم يجب فراراً من الكذب ثم قال « كلا يا سيدي وانما لبست هذا الثوب لسبب سأعرضه على مولانا البطريرك »

قال « حسناً . ولكن غبطته مشغول الآن ربما لا يرضى بمقابلة أحد . . »

فأطرق زكريا ووجد نفسه غير قادر على الصبر فقال « أود مقابلته

الساعة واذا أذنت ان تسأله لعله يسمح بمقابلتي فاني قادم بمهمة »
قال « احسبك قادماً من بلاد النوبة .. »
قال « كلا »
ففهم الرئيس انه يكتم شيئاً لا يريد التصريح به فاستمهله ريثما يبعث الى البطريرك . فمكث زكريا حتى عاد الرسول وهو يقول « ان غبطة البطريرك ليس في غرفته »
فقال الرئيس « كيف ذلك ؟ ألم يتناول الفطور ؟ »
قال « يظهر انه لم يأكل اليوم »
فهز الرئيس رأسه هزة الاسف وقال « لم أر غبطته في قلق مثل هذا القلق منذ عرفته . . سامح الله من سببه له » قال ذلك وندم عليه فابتدر الرسول قائلا « ابحث عن غبطته في القصر لعله ذهب الى هناك فقد رأيته يكثر الترداد الى كنيسة مار مخائيل هذين اليومين »
فذهب الراهب الرسول وعاد وهو يقول « نعم انه في القصر وقد كلفت شماسه ان يسأله عن عزم اخينا مقابلته فقال ان غبطته لا يقابل احداً الآن لانه في شاغل خاص .. »
فرأى زكريا ان يقتحم هذا الامر ويطلب مقابلته لاعتقاده الدالة عليه منذ عرفه في مصر فوقف زكريا وقال للرئيس « يأذن سيدي الرئيس ان يرافقني الاخ الى الشماس وأنا استأذنه »
فاشار الرئيس الى الراهب فمشى مع زكريا حتى خرج من تلك الدار واطل على القصر الذي ذكرناه وهو أشبه بالابراج منه بالقصور فوجد السلم منصوبا عليه فصعد الراهب وزكريا في أثره حتى وصلا الى الطبقة العليا فاستقبلهما الشماس وتصدى لهما ولسان حاله يقول « ألم أقل لكم ان غبطته مشغول ؟ »
فلما رآه زكريا عرفه وتذكر انه التقى به مراراً فتقدم اليه وحياه فلما سمع صوته عرفه فقال « زكريا ؟ »
قال « نعم يا سيدي »

قال « ما الذي جاء بك الى هذا المكان ؟ »

قال « جئت لاقبل انامل البطريرك »

فتنهد وقال « انه يصلي في معبد مار مخائيل . . لا يدخل عليه أحد»

قال « ولا انا ؟ فقد قطعت السهل والجبل وتحملت المشقة من طاء النمل الى هنا ألا يؤذن لى بمشاهدته ! »

فلما سمع ذكر طاء النمل تذكر اجتماعه بصاحبها مرقس هناك فقال « واين هو المعلم مرقس ! »

قال « هو في الفسطاط . . استأذن لى البطريرك في الدخول. . »

قال « ماذا أقول له »

قال « قل له ولدك زكريا خادم دميانة يطلب تقبيل يديك »

قال « وهل يكفى هذا لتعريفك »

قال « يكفي »

فدخل الشماس وعاد ووجهه منبسط وقال « ادخل ومشي » بين يديه حتي اقبل على معبد مار مخائيل وأشار اليه أن يتقدم ورجع

الفصل السادس والاربعون

حديث ذو شؤون

أطل زكريا على تلك الكنيسة الصغيرة وهي غرفة واحدة قسمت الى هيكل وخورس بحاجز من خشب لا يبلغ السقف قائم بخمسة أعمدة عليها بعض النقوش والصور . وكان يتوقع ان يرى البطريرك واقفاً الى المذبح للصلاة في وسط الهيكل فلم ير غير قلنسوته هناك فوقف لعله يراه قادماً أو يسمع صوته يناديه واذا هو قد أطل من وراء الحاجز فاجفل زكريا عند رؤيته لما في وجهه من التغير وهو حاسر الرأس وقد تدلى شعره على قفاه

وخديه وتجعدت لحيته واحمرت عيناه كأنه آت من وراء موقد تكاثف دخانه ولما وقع بصره على زكريا دار من وراء الحاجز حتى خرج اليه وهو يقول « من اين انت آت ؟ »

فتهيب عند سماع صوت البطريرك مع ما شاهده في وجهه من آثار التهيج واكب على يده ليقبلها باحترام فمنعه فوقف مطرقا وقد أحنى رأسه وقال « اني آت من الفسطاط ياسيدي »

قال « كيف فارقت أسقفها ؟ » وتشاغل باصلاح شعره وظهر من غنة صوته انه يضمر شيئاً

فادرك انه يشير الى كتاب كان قد كتبه اليه يستنجده فيه على ذلك الاسقف فأنجده ولم تنفع نجدته فخاف زكريا ان يكون قد ساءه ذلك فقال « فارقته في خير »

فامسك البطريرك بيد زكريا ودعاه الى الجلوس بين يديه وجلس على كرسي فتباطأ زكريا في الجلوس اجلالا لمقام البطريرك فألح عليه فقعد على الارض مطرقاً متأدباً فقال البطريرك « فارقت أسقف الفسطاط في خير.. وكيف فارقت تلك الفتاة المظلومة ؟»

قال « انما جئت بشأنها ياسيدي » وتنهد وسكت ثم قال « ان هذه المسكينة قد توالت عليها النوائب والاحن . . واذا سألتني عنها قصصت حديثها عليك غير اني التمس من مولاي البطريرك أن يأذن بسؤال ارجو أن لا يضن بالجواب عليه ــ هل أسأل ؟ »

فتنهد البطريرك تنهداً ختمه بزفير طويل ثم قال « ستسألني عن أمور استغربتها في . . ستسألني عن حالي .. أليس كذلك ؟ »

قال « بلى يا سيدي . . كنت قادماً اليك بمهمة استنجدك فيها فشغلت عنها بما أراه فيك من الانقباض والغضب وعهدي اننا في زمن صاحب مصر الحالي ابن طولون في أمان وسكينة فهل حدث تغيير لا اعلمه ؟ »

قال « حدث أشياء كثيرة اساء بها ابن طولون معاملتنا وبالغ في

اضطهادنا بما لم يسبق الى مثله سلفاؤه الذين كنا نسمع بظلمهم ونشكو جورهم . . . ولكنه لم يفعل ذلك من تلقاء نفسه . . ان الشر جاء من عندنا . . جاء من أبنائنا . . . هم الذين ساقوا هذا البلاء علينا . . » قال ذلك ولحيته ترقص من الغضب

فتهيب زكريا ولم يجسر على الاستيضاح فظل ساكتاً فاستأنف البطريرك الكلام قائلا كأنه يريد تغيير الموضوع « كيف أتيت الى هذا المكان ؟ هل أتيت وحدك ؟ »

قال « نعم ياسيدي » وتذكر ما جرى له وما أصاب الراهبين واحمالها فتحقق ان لحادثتهما علاقة بما يشير البطريرك اليه فقال « اصطحبت ركباً آتياً باحمال المؤونة الى هذا الدير »

فقطع البطريرك كلامه قائلا « وماذا جرى لهم ؟ أين هم ؟ »

فقص عليه حديثهم باختصار ولما ذكر كلام ذلك الهجان عن تغير ابن طولون على الاقباط قطع البطريرك كلامه قائلا « هـذا ما أشرت اليه في أثناء حديثي » ورفع رأسه وقال « ويلاه . . . آه يا ربي ومخلصي لماذا أغلظت قلوب حكامنا علينا »

فازداد زكريا رغبة في معرفة الحقيقة فقال « وما الذي جرى ياسيدي لقد شغلت بالي .. »

قال « ماذا اقول لك وقد بعث الي ابن طولون بالامس يطلب مالا قال هو في حاجة اليه ليرسله الى الخليفة في بغداد » ومد البطريرك يده الى جيبه واستخرج درجاً فتحه وقال « هل تقرأ القبطية »

قال « نعم يا سيدي اقرأها »

فدفع الدرج اليه وقال « اقرأ »

فتناوله زكريا وقرأ فيه ما ترجمته « انت تعلم ما هو واجب علينا من تأدية أموال الجزية الى خزانة الخليفة ببغداد صاحب هذه الديار مع ماهو عليه الآن من الاحتياج الى نفقات الحرب . فمن كان في مركزك أيها البطريرك لا يحتاج الى اكثر من نفقات الطعام واللباس . وقد علمت انك

ذو ثروة طائلة من نقود وآنية ذهب وفضة وأنواع الاقمشة الحريرية وقد استدعيتك بوقار لا باضطرار فادفع مما لديك لابعث به الى الخليفة فتحظى مني ومنه بمنة جزيلة [١]

فلما فرغ زكريا من القراءة دفع الدرج الى البطريرك وقال له « من أين نأتي بهذه المطالب ؟ »

قال « لا أدري . . وقد كتبت اليه أشكو عذري وفقر الاديرة فلم يصغ . وفي عزمي ان اوسط كاتب المادراني في ذلك »

فلما سمع زكريا اسم كاتب المادراني تذكر اسطفانوس فاطرق وتغيرت سحنته فادرك البطريرك فيه ذلك وقال « ما بالك يا بني ؟ ما الذي غيرك ؟ »

قال « تذكرت أمراً جرى لنا في الفسطاط وحديثاً سمعته منك فلاح لي ان هذا التعدي ليس أصله من ابن طولون »

قال « ألم أقل لك ذلك ؟ . . انه من أبنائنا . . » وتنهد وقال « لقد أطلت الكلام واطلقت لنفسي العنان معك ولم أخاطب احداً سواك بهذا الامر . . لا ادري كيف وجدت راحة بالحديث معك . . هل تعرف سبب هذا الغضب ؟ »

فتململ زكريا وبالغ في التأدب وقال « لا اجهل ضعتي وتنازل غبطة البطريرك في محادثتي فان مثلي لا يحلم بهذا الاكرام . . »

فقطع البطريرك كلامه قائلا « كلا . ليس هذا مرادي . . وليس في النصرانية تفاضل بين ابنائها. وما البطريرك إلا والد والرعايا اولاده لافرق بين خادمهم ومخدومهم . وزد على ذلك انى استلذ الحديث معك وارتاح لمباسطتك وبناء عليه فاني أحب أن اطلع على ما عندك . هل تعرف سبب هذا الغضب ؟ »

قال « اذا سمحت لى قلت ما يخطر ببالى »

قال « قل »

(١) الخريدة النفيسة ٧٤ ج ٢

قال « اتذكر يا سيدي يوم كتبت اليك استنجدك على أسقف الفسطاط ؟ »

قال « نعم اذكر . . وقد كتبت اليه أوصيه بالفتاة خيراً »

قال « اظن كتابك ساءه ولا يخلو أن يكون حمله غضبه على الوشاية»

فقال البطريرك « لا يخلو ان يكون ذلك ساقه الى النكاية بي . . ولكنني أعرف سبباً آخر كان له تأثير أعظم .. ومنه يتبين لك اننا نحن معشر المسيحيين نحمل حكامنا المسلمين على ظلمنا . .وما ذلك الا من فساد نياتنا وكثرة خطايانا . . » قال ذلك وتنحنح وبلع ريقه

فتطاول زكريا لسماع ما سيقوله البطريرك

فقال البطريرك « السبب الآخر الذى اعرفه أنى دعيت مع رهط من الاساقفة لتكريس كنيسة جديدة في جهة دنشور من ابرشية سخا فتأخر أسقف هذه الابرشية عن الحضور فبدأت بالصلاة قبل حضوره فلما جاء غضب وهجم علي وأنا اقدم القربان المقدس وخطفه من يدي والقاه على الارض وخرج فعقدت مجمعاً حكم بقطعه من وظيفته فاضمر لي السوء ودس الى ابن طولون أن عندي أموالا كثيرة فبعث الى ابن طولون بذاك الكتاب..لا بأس ان الله لا ينصر الظالمين والسيد المسيح لا يتخلى عن رعيته»

ووقف البطريرك فجأة فوقف زكريا حالا وتحفز للخروج فامسكه البطريرك بكتفه وقال « تعال معي » ومشى به نحو الحاجز الذي كان البطريرك وراءه فادخله الهيكل ولم يقع بصر زكريا على ماهنالك حتى اجفل وتراجع والتفت الى البطريرك لفتة استغراب وعيناه شاخصتان من الرعب فقال له البطريرك « لا تخف يا بني ان هذه الجثث التي تراها امامك هي جثث آبائنا الابرار اسلافنا البطاركة الذين تقدموني على هذه الديار (١) وقد حفظت محنطة هنا احتفاظاً ببقاياهم ولما اشتد بي القلق في الليل الغابر بكرت في هذا الصباح ففتحت هذه التوابيت وجعلت اتفرس بهذه الوجوه لاقترب بتصوراتي من العالم الثاني وأعملت الفكرة عسى ان يفتح على برأي ينقذني

(١) Butler, I. 304

وينقذ أولادي الاقباط من هذه الورطة وشعرت وانا منفرد بهذه الرمم كأني في مجلس شورى مجرد عن العالم . . وكم تمنيت لو نطقت الجثث ولكني استرشدت بارواحها »

الفصل السابع والاربعون

حديث زكريا

وكان زكريا واقفاً وهو يرتعد من هول ذلك المنظر الرهيب ولم يكن يعلم ان البطاركة تحفظ جثثهم هناك على هذه الصورة . . وتفرس بها فرآها لاتزال محفوظة كما تحفظ محنطات الفراعنة واذا هو بالبطريرك قد تناول قلنسوته وكان قد وضعها على المذبح فلبسها وقد اشرق وجهه وذهب انقباضه فلما رآه زكريا منبسط الوجه سري عنه وآن له ان يفاتحه بما جاء من اجله ولكنه تمهل حتى يرى فرصة مناسبة

أما البطريرك فتحول للخروج من ذلك المعبد وهو يقول « لقد آن لك أن تقص علينا ما جئت من اجله يا زكريا »

فاستبشر وقال « هل أقول الآن »

قال « قل ولكنني لم اسألك عن هذا الثوب الذي عليك . . أي متى دخلت الرهبنة » قال ذلك ومشى وزكريا الى جانبه والوراء

قال « لم اترهب ياسيدي ولكنني تنكرت بهذا اللباس في اثناء الطريق وقد أخذ اولئك اللصوص سائر ثيابي فلم استطع تبديله »

قال « اتعلم أن هذا التنكر بعث على زيادة النقمة عليك »

فانتبه زكريا لما سمعه من ذلك الهجان فقال «علمت ذلك من كلمة قالها أحد اللصوص ولكنني لم افهم السبب »

فقال « أتحب ان تعرف السبب » وصفق فجاء شماسه مهرولا فقال له

« انزل بنا الى الطبقة السفلى لنستخرج الكتاب الذي جاءنا بالامس من ملك النوبة »

فمشى الشماس أمامهما وتبعاه فنزل بهما في سلم سري داخل القصر حتى بلغ الى حجرة رأيا فيها كتباً متراكمة وفي جملتها صندوق فيه ادراج كثيرة تناول الشماس كتابا منها دفعه الى البطريرك ففتحه وقال « هذا كتاب ملك النوبة ارسله الينا يدعو فيه الى خلع طاعة المسلمين والاتحاد معه عليهم باسم دولة الروم . . وقد علمت من نصه انه أرسل كتابا قبله لم يصلنا فالظاهر انه وقع في أيدي المسلمين واطلعوا عليه. وقد فهمت من رسول ابن طولون انهم عارفون بهذه المراسلات فظنوني موافقاً هذا الملك على غرضه وأنا بريء من ذلك لاني لا أرى فائدة منه فالظاهر انهم لما رأوك بهذا اللباس وانت نوبي ظنوك رسولا الي من ملك النوبة »

فانتبه زكريا لذلك السبب وقال « صدقت ياسيدي ان محاولتنا التخلص من سلطة المسلمين لا فائدة منها ولا سيما بعد ان تولى ابن طولون فانه .. »

فقطع البطريرك كلامه قائلا « انه لا بأس به ورغم ما ذكرته لك من أمره معي فاني لا احمله تبعة ذلك وانما التبعة علينا نحن فاننا نحرض حكامنا على ظلمنا بسوء تصرفنا وفساد نياتنا » قال ذلك وهو يكاد يغص بريقه . وكأنه اكبر ان يظهر هذا الضعف فعمد الى تغيير الموضوع فقال لزكريا « لقد شغلناك عما جئتنا من اجله وامتد بنا الحديث فقل ما الذي تريده منا »

وكانا قد خرجا من القصر واقتربا من غرفة البطريرك فدعا الرئيس زكريا ان يتبعه الى غرفته فتبعه فدخل البطريرك وجلس واشار الى زكريا ان يجلس ويقول مايريده فجلس وأخذ يقص حديث دميانة وما قاسته من معاملة والدها وخطيبها حتى هرعت الى حلوان وكيف سطا البجة على هذا البلد ونهبوه وسبوا أهله وفي جملتهم دميانة وانه جاء ليوسطه في استنصار ملك النوبة لانقاذها

وكان البطريرك يسمع الحديث وهو مطرق يهز رأسه حيناً بعد حين استنكافاً من تصرف مرقس أو اسطفانوس فلما سمع خبر اسر دميانة بغت

وقال « دميانة . . . اسرت ؟ . . انها لا تستحق ذلك لانها تقية ورعة . . كأن فيها بركة من سميتها القديسة دميانة عليها السلام . ولكن الله يجرب خائفيه .. والآن سمعتك تطلب وساطتي لدى ملك النوبة ؟ »

قال « نعم يا سيدي ان لم يكن في ذلك ثقلة عليك »

قال « ذلك واجب علي من عدة وجوه أولا لاني انما قبلت هذا المنصب لاخدم مصالح شعبي وأبذل ما فيوسعي لراحتهم وسعادتهم ثانياً لاني أحن الى هذه الفتاة واحبها لتقواها وورعها . ثالثاً اني احب أن اجيب ذلك الملك على كتابه ولا أثق بمن يوصل كتابي اليه وأنت ولدنا وتعرف تلك البلاد فسأكتب كتابا ارد فيه على ما كتبه الي بشأن القيام علىالدولة اقبح رأيه هذا وادعوه الى الطاعة واذيل الكتاب بالتوصية اللازمة حتى يساعدك في ما تريده »

فطأطأ زكريا رأسه اذعانا وارتياحاً وسكت . فصفق البطريرك فجاء الشماس فقال له » اكتب الى ملك النوبة كتابا فحواه كذا وكذا (وذكر الفحوى) وذيله بالوصاية بولدنا زكريا ليساعده فيانقاذ بنتنا التقية دميانة»

فأشار مطيعاً وخرج ثم عاد وبيده صحيفة من القباطي وقد كتب عليها بالقبطية شرحاً طويلا وتناولها البطريرك وقرأها ووقع عليها وأعادها الى الشماس فطواها والفها بمنديل وختم المنديل ودفعه الى زكريا فتناوله وقبله واكب على يد البطريرك يقبلها ووضع المنديل في الكيس تحت ابطه مع الاسطوانة العزيزة وقد تهلل وجهه فرحاً وظل واقفاً كأنه ينتظر أمر البطريرك فقال له يظهر انك في عجلة .. »

قال « ألا ترى يامولاي ان اتعجل الوصول الى بلاد النوبة لانقاذ دميانة ..؟ فاني لا اعلم حالها »

قال « صدقت ٠٠ بادر الى المسير وليكن الله معك والسيد المسيح ينصرك ويأخذ بيدك ٠٠ » وأشار بيده اشارة البركة . ثم التفت الى الشماس وقال له « قل للرئيس ان يزود ولدنا زكريا بما يحتاج اليه في طريقه ٠٠» والتفت الى زكريا وقال « كيف تجعل طريقك »

قال « أرى أن أسير في الطريق الذي جئت به في الصحراء الى النيل ثم الازم ضفة النيل الغربيــة الى الجيزة واستلم طريق الصحراء مع بعض القوافل الى دنقلة »

قال « رافقتك السلامة ببركة سيدتنا البتول وسائر القديسين »

الفصل الثامن والاربعون

رفيق السفر

فاكب زكريا على يد البطريرك فقبلهــا ثانية للوداع وخرج والشماس معه فأعد له ما يلزم وصرفه . وكانت الشمس قد مالت عن خط الهاجرة وقال له عند الوداع « ليس عندنا ركائب نعطيك واحداً منها ولـكنك حالما تخرج من الدير تجد قوافل مارة من وادي النطرون تطاب النيــل فرافق واحدة منها »

فشكر له نصيحته وظل واقفاً وعلى كتفه كيس فيه الزاد اللازم للطريق فاستغرب الشماس وقوفه وقال له « ألعلك تحتاج الى شيء »

قال « كلا . . ولـكنني تذكرت ما أصابني في مجيئي فينبغي لي ان احتــاط منه في رجوعي . . ألا تبدلني بهذا الثوب ثوباً آخر اتنكر به ! لان الذين لاقونا في مجيئنا رأوني بثوب الرهبنة هذا فينبغي ان ابدله بثوب آخر »

قال « لقد أصبت في تخوفك . تمهل ريثما اعود اليك » ومضى ثم عاد ومعه بقجة فتحها واذا فيها قفطان وعباءة وقلنسوة وعمامة فقال « هــذه اثواب بعض الجنود وقعت لنا صدفة لعلها تفي بالمطلوب »

ففرح بها زكريا ولبسها وطلب مرآة يرى بها وجهه فاعطاه فنظر فيها فاذا هو قد تغيرت قيافته ولـكن وجهه ما زال ينم عليه عند التفرس فاقتنع بما كان وودع الشماس فرافقه الى باب الدير وفتحه له فخرج

فلما رأى نفسه في الصحراء أكبر امره وتصور دخول الظلام عليه وهو منفرد يمشي على قدميه لا يدري اين يبيت ولا اين يلتجىء فوقف حائراً وكادعزمه يتحول عن السفر وحده ثم تذكر نصيحة الشماس فطلب طريق وادي النطرون وهو على مقربة منه . وقبـل أن يشرف عليه سمع أنيناً قريباًفوقف وتلفت ثم مشى الى جهة الصوت فلما اقترب منه رأى رجلا ملقى على الارض ويداه ورجلاه مشدودة بحبال وهو يستغيث وحالما رأى زكريا قال له بالقبطية « انجدني ايها الجندي . . بحرمة الذي تعبده »

فعلم زكريا انهيخاطبه بالجندية لما رأى لباسه لباس الجند فاسرع اليهفاذا هوشاب قمحي اللونعليه ثياب التجار فاخذ في حل الحبال فلما افلتالرجل هم بيدي زكريا يقبلهما وهو يقول جزاك الله خيراً ياسيدي »

فقال زكريا « من انت وما هو حديثك »

قال « اني تاجر احمل الملح والنطرون من هـذا الوادي ولي قافلة اسيرها بامان ففي هذه المرة جئت مع القافلة فحملنا الاحمال وخرجنا من الواديفيهذا الصباح واذا بجماعة سطواعلينا فساقوا القافلة برمتهاوتركوني مقيداً كما رأيتني » وكان يتكلم وهو يكاد يبكي من الاسف

فاثرت حاله في زكريا وازداد خوفاً على نفسهمن الخطر فقال« لا بأس عليك ياصاحبي الحمد لله على سلامتك . والان ماذا تريد ان تفعل »

قال « لا اريد شيئاً لاني واثق بضياع اموالي واحمالي وأظن اللصوص سيقتلون رجالي ولا آسف على شيء ما دمت حيا واني اشكر الله على لقائك وانت جندي فهل تعدني انك ترفع هذا الى صاحب مصر ؟ »

فاعتقد زكريا ان تنكره انطلى على الرجل فوعده انه سيفعل ذلك متى وصـل الفسطاط ولـكنه احب أن يستعينه في امر هذا الرجوع فقال « وكيف السبيل الى الرجوع الان فقدكان معي جمل تاه مني واصبحت راجلا كما ترى »

فاطرق الرجل هنيهة ثم قال « اظنني اقدر ان احصل على جمل من مكان قريب وراء هذه الاكمة كنت قد ربطته هناك قبل هجوم اللصوص

ولعلهم لم يعرفوا مكانه فيكون باقياً فنركبه »

ففرح زكريا وقال « امكث هنا وانا اذهب للتفتيش عن الجمل »

قال ذلك واسرع وقلبه يخفق فرحاً بهذه الصدفة حتى دنا من الاكمة فسمع جعجعة الجمل فلم يتمالك عن الضحك من شدة الفرح ووثب حتى قبض على زمامه وحل عقاله وساقه الى الرجل فوجده في انتظاره فشكره فقال زكريا « ان الله قد ارسلك لانقاذي من العذاب في هذه الصحراء »

فقاطعه الرجل وقال بل انت الذي ارسلك الله لانقاذي اذ لولاك لمت مقيداً فانا مدين لك بحياتي ولا اقدر ان اكافئك سوى ان تركب الجمل وانا أقوده »

فقال زكريا « حاش لله ان اقبل بذلك.. ولا حاجة بنا اليه فاننا نركب معاً والجمل يحمل ثلاثة واربعة كما تعلم

قال « كما تشاء » وأخذا في معالجة الرحل حتى يسعهما وعلق زكريا كيس الزوادة به وركبا وسارا على حذر الى المساء فباتا بعد ان تحادثا ملياً وزكريا لا يرى من ذلك الرجل الا كل لطف فشكر الله على هذه الصدفة وتعب ضميره لانه خدعه بتنكره وحدثته نفسه ان يبوح له بحقيقة أمره لكنه تراجع خجلا من الاعتراف بالكذب وأجل ذلك الى آخر الطريق وكان زكريا يخاف ان يلتقي بلصوص الامس فلم يلتقيا باحد

وبعد يومين وصلا الى ضفة النيل فقال التاجر « هل تحب ان نسافر الى الفسطاط في النيل »

قال« مالنا ولنزول الماء دعنا نواصل السير على هذا الجمل فقد استحسنت مشيته »

قال « كما تشاء واذا كنت قد استحسنت هذا الجمل فمتى وصلنا الى الفسطاط تركته لك هدية »

فسر زكريا لهذه الهبة لشدة احتياجه اليها وتوهم ان الرجل يبالغ في اكرامه طمعاً في مساعدته لدى ابن طولون وكان يتألم من ذلك لان ضميره

حتي يأبى ان يعتقد الناس ما ليس فيه أو يتوقعوا منه ما لا قدرة له عليـه وانما أصبح همه ان يتخلص من ذلك الرفيق وهم ان يبوح له بحقيقة غرضه مراراً ثم تراجع . وما زالا راكبين يسير بهما الجمل على صفة النيل الغربية يقتربان من النيـل ساعة ويبتعدان اخرى وزكريا يزداد استئناساً بالرجـل وامتناناً له حتى اطلا على الاهرام فلم يبق لزكريا حيلة بالسكوت وقد بلغ الجمل الى محاذاة الهرم الكبير ولم يبق الا ان يتحولا نحو الجيزة ويعبرا الجسر الى جزيرة الروضة ومنها بجسر آخر الى الفسطاط

وصلا الهرم نحو الاصيل والرجل يستحث الجمل حتى يدرك الفسطاط قبل الظلام فقال زكريا « ما افخم هذه الاهرام وما أجمـل الجلوس عندها والاشراف على البساتين والمياه تتخللها » ففهم ذلك انه يريد النزول فقال « ننزل هنا » واناخ الجمل وزكريا يعمل فكرته ويكد قريحته ليستنبط حيلة يستبقي بها الجمل معه هناك. وهو في ذلك قال له رفيقه «بالحقيقة ان المبيت هنا جميل فاذا وافقتني عليه قضينا هذا المساء هنا وفي الصباح نمضي معاً الى الفسطاط أو كما تشاء »

فاستحسن مسايرته وقال « لقد نطقت بالصواب . ولا أخفي عنك اني لا أقدر ان انزل معك الى الفسطاط لان لي غرضاً احتاج الى قضائه وراء الجيزة »

فابتدره قائلا « شعرت انك تريد شيئـاً تكتمه عني فنحن اخوان لا ينبغي ان تكتمني امراً تطلبه فقد قلت لك ان حياتي منة منك وأنا انمـا أرغبك في الذهاب الى الفسطاط معي لاكافئك على صنيعك فان المال لاقيمة له عندي فاذا كنت تستثقل النزول فامكث هنـا وأذن لي أن اغيب عنك ساعة ثم اعود اليك بهذا الجمل وازودك بتذكار يدل على اعترافي بفضلك »

فكاد زكريا يطير من الفرح لما آنسه من السهولة في معاشرة ذلك الرجل فلم يعد يعرف كيف يشكره وقال « لا فضل لي فى شيء فعلته بل الفضل لك في نقلي من تلك الصحراء على جملك »

فقطع كلامه قائلا « بل هذا جملك استأذنك في ركوبه الى الفسطاط

واعود اليك به فهل اجدك هنا ؟ »

قال « تجدني عند قاعدة هذا الهرم الكبير » فودعه ومضى

الفصل التاسع والاربعون

الخيانة

ومكث زكريا كانه في حلم وافتقد الاسطوانة والكتاب تحت اثوابه فوجدها هناك ضمن الكيس المعلق في عنقه . فاطمأن باله وأخذ يتمشى حول الهرم ثم تجاوزه الى اهرام كثيرة مبعثرة هناك حتى وصل ابا الهول فتأمله حيناً ثم عاد ورأى الشمس تنحدر وتكاد تغيب فاحس بالوحشة لانفراده في تلك الرمال ثم غربت الشمس وأخذ الظلام يتكاثف فاستبطأ صاحبه وندم لانه لم يسأله عن اسمه ومسكنه . على ان ذلك لم يهمه بقدر اهتمامه بالحصول على الجمل لان الدراهم ذهبت منه في بادية النطرون قبل دخوله الدير واصبح لايملك شيئاً وعد عثوره بذلك التاجر نعمة خصوصية من نعم الله

ومل زكريا الانتظار وتعب بصره من التشوف عن بعد لعله يرى صاحبه قادماً ثم صعد على بعض درجات الهرم الكبير حتى وصل الى مدخله فوقف بباب المدخل وعيناه شائعتان نحو الجيزة لعله يرى شبحاً أو يؤانس نوراً ويده لا تكاد تفارق ابطه يلتمس الكيس الذي فيه الاسطوانة والمكتوب . ونظراً لانفراده في ذلك الخلاء سرحت افكاره في عالم الخيال فتصور أن اسطفانوس علم بوجوده هناك فارسل من يقبض عليه فلما تصور ذلك اختلج قلبه في صدره لانه اعزل ولا طاقة له بالدفاع وانما يهمه من أمر الدفاع ان لاتذهب الاسطوانة منه ومد يده واستخرج الكيس من تحت ابطه وتفقد ما فيه جيداً مخافة أن يكون قد خدع باللمس فرأى الاسطوانة والكتاب . وهو يهم ان يعيد الكيس الى عنقه سمع

خربشة فاقشعر بدنه لانفراده ووحشة المكان وكثرة الافاعي والحشرات في تلك الخرائب فاصاخ بسمعه والكيس لايزال في يده وقد جمد الدم في عروقه فاذا هو يسمع وقع اقدام يتخلله همس فانزوى في مدخل الهرم وهو يحاول الاختفاء لان المدخل المذكور ضيق وعميق كأنه قناة مربعة لا يدخله الانسان الا سحفا وهو جالس أونائم . فتربع زكريا عند المدخل وتنصت وشاعت عيناه لجهة الصوت فرأى بضعة رجال قد تزملوا بالعبي يتقدمهم رجل يخاطبهم همساً وهو يقول «قد تركته هنا ولابد من وجوده لعله نائم »

ولم يكد زكريا يسمع الصوت حتى عرف انه صوت صاحبه التاجر فانتبه لنفسه وشك في ذلك الرفيق وبالغ في الانزواء وقد توسد المدخل مستقبلا أرضه بصدره بحيث يكون رأسه مطلا الى الخارج . والمدخل مائل نحو الداخل بانحدار نخاف اذا تراخى ان يزلق الى جوف الهرم وهو لا يعرف قراره والناس يتحدثون ان الجان تسكنه . ولا مست ساقه ارض المدخل فاقشعر بدنه من برده وخيل له انه لمس حشرة ولولا اشتغال خاطره بما سمعه من تهامس الرجال لما تجاسر على المكوث هناك لحظة . كل ذلك وهو قابض على الكيس بيده وكان القوم قد اقتربوا نحوه وهم يتفرسون فيما حولهم ولم يخطر لاحد منهم ان الرجل الذي يبحثون عنه في واجهة الهرم وانه مختف في مدخله ولا هم يعرفون له مدخلا يختفي فيه الرجل والرجلان . فلما رآهم على مقربة منه امسك نفسه واصاخ بسمعه فاذا أحدهم يقول « اين هو اننا لانرى بشراً كانك خدعت المعلم اذ ربما لم يكن الرجل هو وقد خدعك »

فقال « لاريب انه بعينه وقد رأيت الاسطوانة في عنقه وسترونه وترونها »

ثم رفع بصره الى أعلى كانه ينظر الى المدخل واستولى الخوف على زكريا لعلمه انه لايقوى على الدفاع ولا الفرار وخصوصاً بعد ان تبين القوم وتحقق أنهم مدججون بالسلاح ولم يبق عنده ريب أن رفيقه بالامس

جاسوس استمهله ريثما وشى به الى المعلم مرقس فبعث من يقبض عليه . وعلم ان المعلم مرقس لا يهمه من أمر ذلك القبض الا الحصول على الاسطوانة التي أخذها زكريا من منزله لان كل آماله فيها وهي ساعتئذ في يده فاخذ يفكر فيما ذا يعمل بها . واذا ببعضهم يتسلق الاحجار كانه يهم بالصعود الى باب الهرم فازداد خفقان قلب زكريا وضاق نفسه حتى كاد يغمى عليه وعلم انه غير ناج من ذلك الشرك فاخذ على نفسه اذا ظفروا به ان لا يظفروا بالاسطوانة لعلمه ان مرقس اذا ظفر بها معه قتله حالا وأما اذا قبض عليه بدونها يستبقيه ليساعده في البحث عنها . فتلمس الحائط الى جانبه فوجد حفرة أو هو شق بين الاحجار عميق فأدخل الكيس فيه وغطاه بحجر حتى تحقق انه لا يظهر لاحد . ثم تلملم وتجمع حتى جلس القرفصاء بباب الهرم كأنه يتحفز للوثوب وكان الرجل الصاعد بعد أن تسلق درجتين أو ثلاثاً وقف على حجر مرتفع ونظر الى ما حوله ثم خاطب دليلهم قائلا « ان اليهود لم يصدقوا عمرهم حتى يصدقوا اليوم .. ها أنا عند الهرم فأين الرجل المطلوب . . . ووالله اذا لم نجده لتذوقن العذاب »

فعلم زكريا ان صاحبه يهودي احتال عليه . فتولته الرعدة وأمسك أنفاسه مخافة ان يدهمه عطاس أو سعال فينكشف امره واذا هو بالقوم قد تحولوا من هناك وهم يقولون « انه ليس هنا فلنبحث عنه فى مكان آخر » ومشوا نحو الهرم الثاني فما صدق زكريا انهم تحولوا من أمامه حتى خرج من المدخل وتنفس الصعداء ومشى مشية المتلصص ونزل حتى صار على الارض امام الهرم الكبير فتربص حيناً وهو قاعد حتى ظن القوم بعدوا فنهض ومشى يطلب الفرار نحو البساتين يختبىء فيها الى الصباح فاذا نجا يعود الى الكيس

ولم يكد يمشي خطوات قليلة حتى سمع منادياً يقول له « قف عندك والا قتلت »

فلم يجبه وظل ماشياً كأنه يتجاهل وركبتاه ترتعدان وإذا بالرجال

أسرعوا اليه وحدثته نفسه بالفرار ولكنه يعلم عجزه عن ذلك لتعبه وضعفه على أثر تلك الرعبة فرأى ان يقف وقوف المتجلد فالتفت الى جهة الصوت وقال « من تعني ؟ »

فتقدم اليه أربعة رجال علم من قيافتهم عن قرب انهم من الجند المصري ومعهم ذلك اليهودي وهو يقول هذا هو امسكوه »

فنظر زكريا اليه وقال « تباً لك من خائن . . . » ثم التفت الى الرجال وقال « لا حاجة بكم الى القبض علي فاني أسير بين يديكم وأنا أعزل »

فتقدم أحدهم وبيده حبل وبجانبه رجل آخر وأخذا يشدان وثاقه ويقولان « قد امرنا ان نأتي بك موثقاً »

فلما شدوا وثاقه ساقوه بين أيديهم الى مكان آخر وراء الهرم كانوا قد خبأوا فيه افراسهم واركبوه واحداً منها وهم حوله يخفرونه وساروا يطلبون الفسطاط

الفصل الخمسون

مرقس

وصلوا الفسطاط في اواخر الليل وادخلوا زكريا غرفة منفردة وقاموا يخفرونه الى الصباح . أما هو فمع خوفه على حياته كان يجد تعزية في انقاذ الاسطوانة من يدي مرقس فبات بقية تلك الليلة وهو يفكر فيما مر به وكيف وقع في هذه الشراك بعد ان اوشك ان ينجو وعلم ان المكيدة كلها من ذلك اليهودي وادرك انه مرسل من قبل مرقس أو اسطفانوس ليتعقبه. واستغرب كيف انطلت عليه حيلته حتى وقع في الاسر ولكنه شكر الله على نجاة الاسطوانة

وفي الصباح باكراً سمع الباب يفتح ودخل عليه رجل لم يقع بصره عليه حتى اجفل لانه المعلم مرقس لكنه تجلد ولم يبد حراكا فقال له مرقس « أهذا جزاء التربية والخبز والملح ؟ تفسد علي ابنتي وتفر بها حتى

أضاعت مستقبلها وأصبحت شريدة طريدة ؟ »

فظل زكريا صامتاً مطرقا فحسبه مرقس ندم على عمله فازداد جرأة عليه فقال « بماذا أجازيك على هذا العمل ان القتل خفيف بجانب ذنبك »

فرفع زكريا بصره اليه وقال « ان القتل لا يخيفني ولا انت تستطيعه . . ومن كان مثلك لايخشى بأسه . . »

فغضب مرقس وقال « تخاطبني بهذه الجسارة وانت خادمى ؟ »

قال « حاش لله أن أكون كذلك . انما أنا خادم تلك الفتاة الطاهرة . . ذلك الملاك الارضي . انا خادم دميانة وعبدها اكراما لوالدتها المسكينة وطوعا لصاحبة الامر . . ولولا تكفلي بالثبات في تربيتها لتركتها فراراً من عشرة ابيها الظالم »

فحمي غضب مرقس وقال « تقول اني ظالم ؟ »

قال « ألا تعرف نفسك ؟ هل تجهل معاملتك لابنتك التي تزعم انك نقمت على في سبيل الدفاع عن مصلحتها وانت تعلم من هو الذي أضاع حقها . . »

فاستاء مرقس من هذا التعريض وفهم مراد زكريا لكنه تجاهل توصلا الى مرغوبه فقال « اراك تهذي بكلام لا معنى له.. أتعلم لماذاساقوك الى هذا المكان وبعد قليل يحملونك الى السجن المظلم اذ تسلم لابن طولون.. أتعلم لماذا ؟ »

قال « انت تعلم »

قال « انا اعلم . . ساقوك لانك سرقت منزل سيدك وأخذت منه التحف والجواهر وفررت بها . . وايضاً لانك تساعد البطريرك مخائيل على تواطئه مع النوبة للقيام على المسلمين »

فلما سمع زكريا قوله هز كتفيه وظل مطرقا لا يظهر اهتماماً فاستغرب مرقس ذلك منه وقال « يظهر انك لم تدرك مقدار ما يهددك من الخطر

بسبب هذه التهم . وانامع كثرة اساءتك الى لا ازال اميل الى الرفق بك اكراما للخبز والملح وعليه فقد أوصيت الجند أن يأتوابك الى هنا قبل حملك الى ابن طولون لعلي استطيع انقاذك . واعلم ان نجاتك انما هي في يدي اذا شئت اطلقتك واذا شئت سلمتك الى الحكومة . وانا ميال الى اطلاق سراحك اذا ظهر لى ندمك على ما فرط منك وسلمت الى ما أخذته من منزلى . . . ليس كل ما أخذته فانا اكتفي منك بالاسطوانة فان فيها أوراقاً تهمني ولا فائدة لك منها فاذا اطعتني وسمعت نصيحتي نجوت من هذه الساعة والا فاني مسلمك الى ابن طولون وانت تعلم عاقبة ذلك »

فقال « أما ندمي فاني لم اعمل عملا اندم عليه وأما الاسطوانة فلا علم لى بها كما اني لا أعرف شيئاً عن الجواهر التي ذكرتها . وانت تعلم اني لم آخذ شيئاً ولا انا ممن يطمعون بالاموال وليس للاموال قيمة عندي اذ ليس لى ولد أورثه واياي أصبحت قصيرة لا تستحق حشد الاموال ولا مطمع لى في ملاذ الدنيا وشهواتها مثل غيري »

فقطع مرقس كلامه قائلا « مالنا وللجواهر اني اكتفي بالاسطوانة التي فيها الاوراق هاتها وعليك الامان »

قال « من أين آتى بها ؟ ليس عندي اسطوانات ولا ورق »

قال « أو تنكر أيضا ؟ انها في جيبك »

قال « كلا ليس معى شيء »

فصفق مرقس فدخل جندي كان واقفاً بالباب فأومأ مرقس الى زكريا وقال « فتشه فانك تجد معه اسطوانة هاتها »

فتقدم الجندي واخذ يفتش أثواب زكريا قطعة قطعة ومرقس يقول له « فتش تحت أثوابه وبين ذراعيه وجنبه » وهو يفتش وزكريا باسط ذراعيه ومرقس يراعي حركاتهما ويتفرس ويدقق حتى اذا تعب الجندي من التفتيش ولم يجد شيئاً أشار اليه مرقس ان يخرج فخرج وعاد الى زكريا

وقد امتقع لونه من الغضب والفشل لانه كان على ثقة من وجود الاسطوانة معه فقال « أين ذهبت بالاسطوانة يا زكريا »

قال « ليس عندي اسطوانات ولا أفهم ما تقول »

فاطرق مرقس وخطر له انه اعطى الاسطوانة الى دميانة اذ ليس ثم من يثق به سواها فقال « اين دميانة ؟ »

فضحك زكريا ضحكة استخفاف وقال « تأخرت في السؤال عن مكان ابنتك يا أيها الوالد الشفيق . . وأنت تسألني عنها الآن لا غيرة عليها ولكنك تظن الاسطوانة عندها فكن على يقين انها لا تعرف شيئاً من أمرها »

فاعاد مرقس السؤال « أين دميانة ؟ »

قال « دميانة . . لا اعرف مقرها »

قال « كيف وانت فردت بها .. ماذا جرى لها ؟ »

فحدثته نفسه أن يخبره عن مكانها لكنه خاف أن يستعين مرقس بذلك على الفتك بها فيذهب سعيه هدراً فقال « لا أعرف أين هي الآن »

قال « يظهر انك تبحث عن حتفك بظلفك . اصبر وسترى عاقبة أمرك » قال ذلك وخرج وأغلق الباب وراءه بشدة فعلم زكريا انه مأخوذ الى السجن بعد قليل وفي الواقع لم تمض هنيهة حتى جاء الجند فحملوه الى القطائع وزجوه في السجن ريثما يطلب . فلنتركه تحت التحقيق ولنعد الى دميانة مع البجة

*

الفصل الحادي والخمسون

البجة ودميانة

البجة جيل من الناس كانوا يقيمون في الصحراء بين النيل والبحر الاحمر تبدأ بلادهم من الشمال بقرية يقال لها حزبة معدن الزمرد في صحراء قوص وبين هذا الموضع وبين قوص نحو ثلاث مراحل . وكان لذلك المعدن شأن في التاريخ القديم يستخرجون زمرده من مغار بعيدة مظلمة يدخل اليها بالمصابيح وبحبال يستدل بها على الرجوع خوف الضلال ويحفر عليه بالمعاول . وآخر بلاد البجة أول بلاد الحبشة وأبعد بلادهم قرية يقال لها هجر . وهم بادية يتبعون الكلأ حيثما كان للرعي ويقيمون باخبية من الجلود وكانت أنسابهم من جهة النساء [1] أي ان الرجل منهم ينتسب الى والدته وهي الامومة في الاجيال المتوحشة . وهم قبائل كثيرة على كل قبيلة رئيس وكانوا من عهد الفراعنة يهاجمون ضفاف النيل في الصعيد فينهبونها ويعودون الى البادية فلا تقوى الدولة على اللحاق بهم . وكانت توادعهم لانها تحتاج اليهم في استخراج المعادن ليحفروا المناجم أو يكفوا أذاهم عنها وكذلك الروم لما ملكوا مصر . ولما فتح المسلمون مصر لم يحاربوهم حتى كانت أيام ابن الحبحاب في اوائل القرن الثاني للهجرة فهادنهم على مال يؤدونه الى بيت المال وتوالت المخابرات والغزوات بينهم ولما اختل شأن مصر في أوائل الدولة العباسية تطاول البجة في تعديهم حتى صاروا يسطون على ضواحي الفسطاط فلما تولى ابن طولون صار يتقي غزواتهم بحامية يقيمها وراء المقطم

فاتفق في أثناء اقامة دميانة في حلوان ان شرذمة منهم سطت عليها ونهبتها وقتلت كثيرين من أهلها وفي جملتهم قعدان العربي وحملوا ابنته ودميانة معها سبيتين — حملوها على الجمال وهي سريعة الجري شديدة

(١) المقريزى ١٩٤ ج ١

العدو صبورة على العطش يسابقون بها الخيل ويقاتلون عليها وتدور بهم كما يشتهون ويقطعون عليها من البلاد ما يتفاوت ذكره ويتطاردون عليها في الحرب فيرمي الواحد منهم الحربة فان وقعت في الرمية طار اليها الجمل فاخذها صاحبها وان وقعت على الارض ضرب الجمل بجرانه الارض فاخذها صاحبها

فلما رأت دميانة نفسها على الجمل وقد ادير رأسه نحو البادية انتبهت لهول المصاب واخذت تبكي وتستغيث وتتضرع الى الله ان ينقذها وكانت لما رأت أولئك القوم دهشت لخشونتهم لانها رأت وجوهاً صفراً واجساماً رقاقا وبطونا خماصا اكثرهم عراة الصدور يدهنون جلودهم بالشحم وشعورهم متلبدة متكاثفة بما عليها من آثار الشحم يحملون رماحاً طول الواحد منها سبعة اذرع عوده اربعة اذرع وحديده ثلاثة . يحملون درقاً من جلود البقر مشعرة وبينها درق مقلوبة من جلود الجواميس وبعضهم يحملون قسيا عربية غلاظاً من السدر والشوحط اذا عدا احدهم تحسبه من الجن لدقة ساقيه وسرعة جريه

فلا تسل عن حالها من الدهشة والخوف ولم تعلم برفيقتها فانها كانت على جمل آخر . ولم يمسهما أحد بسوء وانما حملوهما في جملة السبي وتبطنوا الصحراء وهم يتراطنون بلغة ليست بالقبطية ولا النوبية ولا العربية فلم تفهما ما يقولون . ولما امسى المساء حطوا الرحال ونصبوا خيمة نزل فيها رئيس تلك العصابة وهو يمتاز عنهم بلباسه الملون وبسدرته المزركشة وقد تقلد سيفه مفضضاً وكان راكباً جواداً اصهب وانزلوا السبايا في خيمة . فلما اجتمعت دميانة بابنة قعدان واسمها عليا استأنست بها وجلستا تتباكيان وكل منهما تعزي الاخرى ولا يعزي دميانة غير الامل بالنجاة باعجوبة من الله

ولما غربت الشمس وساد الظلام أوقدوا ناراً بين يدي الخيام للاستضاءة واتى رجل يعرف القبطية تقدم الى دميانة ورفيقتها واخذ يطمئنهما ويحبب اليهما تلك الصحراء . ثم اتاهما بالطعام وهو اللحم واللبن فعافت نفس دميانة الطعام ولكنها اضطرت من العطش الى شرب اللبن . ولما سمعت كلام

الرجل سكن روعها لانها آنست منه تشجيعاً ورأت فيـه اريحية فقالت له «الى أين انتم سائرون بنا ؟ »

قال « اننا سائرون الى مولانا الامير أبي حرملة كبير امراء البجة »

قالت « اين هو ؟ »

قال «هو على مسافة بضعة ايام من هذا المكان.لا تخافي اذ لا يستطيع أحد منا أن يمسك بسوء ومثلك يا جميلة لا ينالها الا الامير»

فلما سمعت قوله اقشعر بدنها ولـكنها تجلدت والتفتت الى عليا فرأتها مطرقة ولم تكن في مثل ذعرها لانها تعودت عيشة البادية وعرفت بعض طبائع البدو . أما الرجل فلما رآها تلتفت الى رفيقتها ضحك فبانت اسنانه بلا قواطع مع صغر سنه فكان له منظر غريب ثم قال « اما هـذه العربية فربما اختار الامير ان تكون عنده او لعله يهبها الى أحد امرائه أو يستخير الآلهة في شأنها..» ثم تفرس في فم دميانة وقال «ما أجمل فاك لولا وجود القواطع فيه فان الاسنان الامامية منه تشوه منظره لان هذه القواطع لا تلزم إلا للبهائم » واشار الى فمه وقال لها انظري الى اسناني فاني من قبيلة تقتلع هذه القواطع لئلا تتشبه بالحمير وليس كل البجة يفعلون ذلك..أما أميرنا فانه يحب ذوات الاسنان البيضاء والا فانه كان يقلع اسنان نسائه»

فاستغربت دميانة حديثه واستخفت روحه ولـكنها مازالت في اضطراب وقلق . وأحس الرجل بخطوات خارج الخيمة فوقف عن الحـديث وتململ وتحفز للخروج واذا برجل آخر دخل هـو رئيس تلك العصابة له عينان براقتان ووجه نحيف ولـكن دلائل الصحة والقوة بادية فيه وتعرف رئاسته من لباسه . ولما رأى ذلك الرجل هنـاك نظر اليه نظر التوبيخ وقال له بلسانهم كلاماً لم تفهمه دميانة ولا عليا ولـكنهما فهمتا انه يوبخه ثم قال له قولا وأومأ اليه ان يقوله لهما فقال «ان مولانا القائد يلومني لاني احدثـكما وهذا ممنوع عندنا ويقول لـكما ان يطمئن بالـكما ولا تخافا »

فأومأت دميانة برأسها ايمـاء الشكر وعيناها قد احمرتا من أثر البكاء

في أثناء الطريق . فأوعز اليهما بواسطة الترجمان ان ترتاحا وتناما على جلد فرشوه لهما هناك وخرج

فنامت دميانة بعد ان صلت وتضرعت الى السيد المسيح ان يرعاها ويحرسها

وفي صباح اليوم التالي جاءهما الخدم باللحم واللبن فاكلت عليا حتى شبعت أما دميانة فلم تأكل الا قليلا . وكانت قد تعودت تلك المصيبة نوعا فانتبهت لنفسها في الصباح ونظرت الى ما حولها فرأت انها في صحراء رملية قاحلة وان تلك العصابة مؤلفة من بضعة وعشرين رجلا معهم الجمال والخيول. ولما أشرقت الشمس ركبوا وجعلوا يطوون البيداء وبالغ اولئك البجة باكرام تينك البنتين والتخفيف عنهما شأن أهل البادية في المحافظة على العرض إلا ما يحللونه لانفسهم فى الحق من الغنائم

الفصل الثاني والخمسون

الاستخارة

قضوا يومين آخرين على هذه الصورة وفي اليوم الثالث اشرفوا نحو الظهيرة على معادن الزمرد فرأوا المناجم وهي حفر يشتغل فيها اناس من البجة بينهم بعض اهل النوبة على نحو ما وصفناهم من العمل تحت الارض وهم عراة إلا ما يستر العورة . فلم يهم دميانة النظر الى اولئك القوم وكيف يشتغلون في استخراج الزمرد . ولم يقف الركب الا ريثما ساقوا معهم بعض الماشية مما كانوا قد اختزنوه هناك يكفيهم بقية الطريق الى مقر الامير أبي حرملة ورجاله . وفي اليوم التالي نحو الاصيل وصلوا الى نجع كبير عرفوا عن بعد انه نجع الامير وهو مؤلف من عدة خيام من الجلد في وسطها خيمة واسعة مزخرفة وبجانبها خيمة اخرى بشكل القبة من الجلد أيضاً . وبجانب النجع مسارح للماشية من الضأن والبقر ولحظت دميانة ان تلك البقر تمتاز بقرونها الطويلة مما لم تر له مثيلا في مصر

ولم يكن يهمها شيء من ذلك وانما كانت تحدث نفسها فيما ذا عسى ان يكون شأنهـا مع الامير الذي قالوا لها انها ستكون عنده . واخـذ الركب بالتحول واتى بعض الخدم اناخوا جمل دميانة وانزلوها عنه فمشت وفرائصها ترتعد خوفاً وقلبها يخفق ووقفت مطرقة لا تدري ما ذا تعمل فاذا بالرجل الترجمان اتى وقال لها «تقدمي معنا الى المعبد حيث نتبرك بالكاهن ونستخير الآلهة على يده لمن تكون هـذه الغنائم » وقال بصوت ضعيف سمعته هي وحدها « فعسى ان يكون نصيبك للامير لانك اهل له »

فوقعت تلك الكلمات في اذنيها وقوع الصاعقة ولكنها اطرقت وجعلت تصلي سراً وتطلب الى الله أن يشجعها ويأخذ بيدها لتستطيع النجاة من هذه التجارب واحست بعد تلك الصلاة أنها في حرز حريز لا خوف عليها كأن لها جنداً من الملائكة يحرسها

أما سائر الركب فانهم ترجلوا وسار قائدهم امامهم الى تلك القبة بجانب الخيمة الكبرى ولما اقتربوا منها فتح بابها وأطل منه كاهن بلباس مزخرف على رأسه شبـه تاج من الريش وعلى كتفه شملة مطرزة وحول وسطـه حزام من جلد محجر بالزمرد والياقوت تحته قباء من القباطي الابيض وبيده صولجان من خشب الابنوس في اعلاه شبه رأس الفرس من الذهب وحالما فتحت الخيمـة تصاعدت رائحة البخور . ولمـا أطل الكاهن على النـاس سجدوا جميعاً وكانت دميانة وراءهم تسايرهم في المشي الى جهة القبة . فلمـا رأتهم يسجدون وقفت ولم تطعهـا نفسها على السجود ولم ينتبه لها الكاهن ثم دخلوا القبة وفي صدرها تمثال من نحاس لعله مأخوذ من اصنام المصريين القدماء قد اقاموه على دكة من الحجر وزينوه بالحلي فتحول الكاهن نحوه وسجد له فسجدوا جميعا خلفه ثم تمتم قليلا وتمتموا ودميانة واقفة تستغفر الله على هذه المشاهد

وبعد الفراغ من الصلاة أشار الكاهن الى الوقوف فخرجوا جميعـاً وخرجت دميانة ورفيقتها وهما مطرقتان حياء لغرابة حالها بين اولئك البدو . ثم تقدم الترجمان فاستوقفها فوقفت ووقف الكاهن بباب القبة ثم دخلهـا

مستدبراً واقفلها وراءه وأشار القائد الى دميانة وصاحبتها ان تبقيا واقفتين. وبعد قليل سمعنا جرساً يدق في القبة ثم رأينا الباب فتح وخرج الكاهن عاريا وظهرت الصور الملونة على صدره وذراعيه وقد تغيرت سحنته وتحولت عيناه فلايشك الناظر اليه انه مجنون او مصروع فاجفلت دميانة عند رؤيته وغطت وجهها بكفيها وكادت تصيح من الخجل

ولكنها تجلدت واذا هي تسمع الكاهن يتكلم بصوت عال مع اختناق كأن شخصاً آخر يتكلم في جوفه وهم يعتقدون ان الهاً يتكلم عنه ولما أتم كلامه أجابوه بكلمتين كأنهم يؤمنون على أقواله ولما عاد الى القبة أشار القائد الى الترجمان أن يكلم دميانة بما قاله الكاهن فوجه كلامه اليها قائلا « اعلمي يا جميلة ان الكاهن قد استخار الآلهة بك فاشارت أن تكوني من نساء أبي حرملة أميرنا الاكبر وهذا قائدنا يهنئك بهذه النعمة » والتفت الى عليا وقال لها « وانت نصيب هذا القائد الباسل » وأشار اليه

وكانت دميانة وهم يصلون لالهتهم تصلي لالهها وتتوسل اليه أن يشجعها ويقويها فلما سمعت ما تلاه عليها الترجمان لم يجفلها وان كان قد وقع عليها وقعاً شديداً ولكن الايمان الصحيح يقوي القلوب وهو أكبر تعزية لبني الانسان في الشدائد العظام

وفى الحال بعد ان قال الترجمان ما قاله ذهب ثم عاد ومعه رجل نوبي حالما وقع نظرها عليه استخفت روحه ولم تدرك سبب ذلك لاول وهلة والواقع انها استأنست به لانه يشبه خادمها زكريا فتقدم واشار اليها ان تتبعه الى خيمة الامير . وذهب الترجمان الآخر مع عليا الى خيمة القائد ولم يكن الامر عظيما على عليا ولا غريباً عندها لانها ـ تعودت البادية واهلها

الفصل الثالث والخمسون

أبو حرملة

أما دميانة فمشت في أثر ذلك النوبي وهي تقدم قدماً وتؤخر أخرى وتستعين الله ومريم العذراء والقديسين على ما تخافه هناك . وسمعها النوبي تذكر مريم العذراء على سبيل الاستغاثة فشعر بانعطاف نحوها لانه ربي تربية نصرانية في بلاده والنوبة يومئذ كلهم مسيحيون فتباطأ في مشيه حتى حاذاها وقال لها « يظهر انك نصرانية فهل انت قبطية ؟ »

فلما سمعت استفهامه استبشرت وقالت « نعم اني قبطية ووالدي من وجهاء القبط »

قال « يظهر عليك ذلك .. فلا ينبغي ان تنزعجي..هل انت متزوجة هناك ؟ »

فظهر الخجل في وجهها وسكتت ودل سكوتها على انها عذراء فقال لها « اذا كنت غير متزوجة فلا أجد سبباً لاضطرابك فانك مسوقة الى خيمة أمير البجة وهو أكبر أمرائهم واشجع قوادهم ومن حسن حظك انك وقعت في نصيبه من الغنيمة وسيكون لك مقام رفيع عنده لاني لا أعرف بين نسائه واحدة في مثل ما أنت فيه من الجمال والكياسة وهو يفهم اللغة القبطية نوعاً فالافضل ان تسلمي امرك الى الله وتقنعي بهذا النصيب

وكانا قد اقتربا من باب الخيمة فتقدمها النوبي وأشار الى حاجب بالباب أن ينبيء الامير بقدومه فدخل الحاجب وعاد وقد اذن في الدخول فدخل النوبي ودميانة في اثره وقد صبغ وجهها الحياء وتولاها الخوف واصطكت ركبتاها فرأت النوبي حالما دخل انحنى كأنه يسجد لايقونة . ووقع نظرها على أمير جالس في صدر الفسطاط خفيف العضل خفيف الشعر أسود اللون حاد العينين تظهر الامارة بلباسه وهيبته وقد جلس الاربعاء على بساط من

السجاد الثمين فوق مقعد سوداني (عنقريب) وارتدى بكساء من الحرير الملون وعلى رأسه عمامة شبه التاج وبين يديه سيف قبضته من الذهب وحول عنقه عقد من الحجارة الكريمة بينها قطع من الذهب بصور تماثيل صغيرة لبعض الآلهة وفي أصابعه الخواتم . سلم النوبي على ابي حرملة بلسان البجة فاجابه به ولم تفهم دميانة شيئاً ولا هي استطاعت ان تسجد كما فعل الترجمان لكنها سمعت ابا حرملة ينادي النوبي «سمعان» وهو اسم نصراني فاطمأن بالها لاعتقادها انه نصراني مثلها ـ وجامعة الدين من أشد الروابط علاقة بالقلب لانها تشترك بالوجدان وهي امتن في العامة من جامعة الوطن وغيرها

ووجه ابو حرملة نظرة الى دميانة وتفرس فيها فاطرقت ثم سمعته يخاطب سمعان وتحول سمعان نحوها يترجم كلام الامير فقال « ان مولانا الامير قد أعجب بما شاهده فيك من الجمال والهيبة ويقول لك انه سيبذل جهده فيما يرضيك فلا ينبغي لك ان تعدي نفسك سبية أو غريبة فانه يعدك من أفضل نسائه »

فلم تجب ولكنها زادت اضطراباً لانها أصبحت داخل العرين ولا يلبث الاسد أن ينشب أظافره فيها فاستعاذت بالله وظلت ساكتة. فاشار ابو حرملة الى سمعان وخاطبه فتحول الى دميانة وقال لها « تفضلي معي ياجميلة الى الخباء فقد أوصاني الامير أن أعدلك خيمة خصوصية تقيمين فيها على الرحب والسعة »

قال ذلك وخرج فخرجت في اثره وهي تتعثر باذيالها فلما صارت خارج الخيمة أحبت أن تستغيث بسمعان فقالت « يظهر لي يا سمعان انك نصراني مثلي فاستحلفك بالسيد المسيح أن تنشلني من هذه الحفرة »

فابتسم سمعان وخاطبها وهو ينظر في الارض لئلا يلحظ أحد انه يكلمها خوفاً من الامير وقال « إن لم أكن نصرانياً كما ظننت فقد ولدت في بلد النصارى فسموني باسم من اسمائهم وأنا أعرف كثيرين منهم في مصر والصعيد والنوبة وقد رأيتك شديدة الخوف وأنا أؤكد لك انك ستكونين معززة مكرمة . فاصرفي خوفك وثقي بي فانا أكون لك أخاً أبذل جهدي في راحتك . . »

فاستأنست بوعده وقالت «اذا كنت تعدني أختاً لك فارجو ان تساعدني على الخلاص .. هذا غاية ما أرجوه منك.. واذا أنقذتني كان لك فضل كبير لايضيع عندي ولا عند أهلي »

قال « ياحبذا ولكن الخلاص على هذه الصورة لايستطاع ونحن بين رجال كالاعمار يختطفون بسرعتهم الابصار فاصبري . ولا ريب عندي انك تكونين مسرورة بعد قليل »

وكان سمعان يقول ذلك عن إخلاص وهو لا يعرف ما في خاطر دميانة وما الذي يثقل على طبعها من تلك الصحبة . فقد كانت فضلا عن تمسكها بالعفة وحرصها على صيانة نفسها عالقة القلب بسعيد وكل من السببين يكفي لدى الحر أن يفتدي بالحياة . فلما يئست دميانة من نصرة سمعان وتحققت وقوعها في الفخ علمت انها لم يبق لها مخرج الا بما وراء الطبيعة فعادت الى الايمان وأخذت تراجع في ذهنها مواعيد الكتاب للمؤمنين في أيام الشدة وسكتت وهي ماشية وسمعان لايتكلم فتجاوزا فساطيط الرجال حتى اشرفا على الاخبية وقد دنت الشمس من الغروب . وكانت الاخبية عديدة بينها خباء فخم توجه سمعان نحوه وأشار الى دميانة أن تتبعه فتبعته حتى أطل على باب الخباء فنادى فخرجت له عجوز طويلة القامة شديدة العضل وملامحها أقرب الى الرجال مما الى النساء عليها الدمالج والاساور والعقود وقد فاحت منها رائحة الطيب وابرقت عيناها واحمرتا فاثر منظرها في دميانة اكثر من تأثير منظر ابي حرملة ووقفت مبهوتة وابتدرها سمعان قائلا « نحن الآن عند خباء الامير وهذه قهرمانة بيته وهي التي ربته من صغره وتعد نفسها والدة له وقد عهد اليها العناية بنسائه وكأني بك قد خفت منظرها فلا تخافي وانا أوصيها بك خيراً » ثم التفت الى القهرمانة وكلمها بلغة البجة كلاماً بهذا المعنى . فنظرت الى دميانة وابتسمت ابتسامة فلما استأنست دميانة بها لكنها لم تجد بداً من السكوت وأشارت القهرمانة اليها أن تدخل فدخلت وهي تنظر الى سمعان والدمع ملء عينيها كأنها تستغيث به وقد أثر منظرها فيه لكنه كان يعتقد انها لاتلبث أن تمكث بضعة أيام مع الامير حتى تعتاده وتألف البقاء معه

الفصل الرابع والخمسون

الصلاة تعزية

دخلت دميانة باب الخباء فاستطرقت منه الى عدة غرف من الجلد في كل منها امرأة أو نساء وبينهم النوبيـة والبجاوية والحبشية والقبطية بين سرية وخادمة وجارية والـكل وقفن احتراماً للقهرمانة حتى وصلت بهـا الى غرفة ليس فيها احد في بعض جوانبها بساط من جلد ووسادة من جلد محشوة بالقش وبجانب البساط وعاء كالجراب مفتوح وفيه آنية (التواليت) السواك والمشط وحق الطيب . وقد تعلق بجـدار الغرفة ركوة من جلد وبجانبها قربة مملوءة ماء فلما صارت دميانة في وسط الغرفة والقهرمانة معها شعرت بانقباض شديد لم تعـد تملك معه نفسها فجعلت دموعها تنحدر على خديها ونفسها تطلب البكاء وهي تملك احساسها واذا بالقهرمانة تقول لها بلغة قبطية مكسرة « اجلسي يا بنية على هـذه الوسادة » وربتت لها على كتفها تحبباً فلم تعد دميانة تمالك فالقت نفسها على الوسادة واخذت بالبكاء بصوت عال كالاطفال ونسيت موقفها

فاستغربت القهرمانة بكاءها بغتة وأخذت تسألها عما تريده فقالت «هل تحتاجين الى شيء »

فلم تجبها

فقالت «هل انت خائفة ? لا تخافي يابنية ان الامير يحبك كثيراً وبعد قليل يأتي اليك . . قومي اصلحي شأنك . . هذه الاطياب وهـذا السواك وهذا المشط وانا اساعدك » قالت ذلك ومدت يدها الى الجراب وهي تنظر الى دميانة فاذا هي تزداد بكاء ولا تنتبه لقولها فعادت الى تطييب خاطرها وملاطفتها وما زالت بها وهي تارة تلاعبها وطوراً تمازحها وآونة تهددهـا أو تمنيهـا او تطمئنها حتى سكن روعها ولم يطمئن بالهـا ولـكنها تجلدت

وأظهرت انهـا تريد الانفراد فتركتها القهرمانة ومضت وقـد خيم الظلام فازدادت دميانة انقباضاً ووحشة وكانت تستأنس بنار موقدة بين يدي الخباء انارت الخباء نوراً ضعيفاً . فلما خلت بنفسها ركعت على ذلك البساط ركعة مؤمن صادق الايمان وبسطت يديهـا نحو السماء ورفعت بصرها الى العلى وأخذت تصلي كأنها تخاطب شخصاً تراه بعينيها وتثق انه يجيب طلبها وجعلت تتضرع الى الله وتستجير بالمسيح ومريم العذراء وسائر القديسين تطلب الخلاص من هذه التجربة التي أوشكت على الوقوع فيها. وكانت تصلي بحرارة ودموعها تتساقط على خديها وهي تتلو الصلاة بصوت خافت تتخلله نبرات عند التوسل والالحاح عند الرجاء . وقد حلت شعرها وكشفت عن صدرها واستغرقت في تضرعاتها ومناجاتها حتى نسيت موقفها فصارت تطلب وتتضرع بصوت عال تعترضه غصة أو بحة وتقرع صدرها وتعيد الطلب والدعاء كأنها تجردت عما يحيط بها

وكانت القهرمانة قـد تركتها ولم تبعد عن غرفتها فسمعت صلاتهـا فاسترقت الخطى اليها حتى وقفت بجـانب الباب بحيث ترى موقف دميانة وتسمع تضرعاتهـا ومع غلظ قلبها لم تتمالك عند رؤية دموعهـا المتساقطة وسماع صوتها المخنوق من الانعطاف اليها لـكن غلب عليها الاستغراب وكانت على موعـد من قدوم ابي حرملة بتلك الساعة وعليهـا أن تهيء العروس وتصلح من شأنها قبـل قدومه فهمت أن تدخل وتوقفها عن الصلاة واذا هي تسمع خطوات عرفت انها خطوات الامير فتحولت نحوه وأشارت اليه باصبعها أن يمشي الهوينا ليرى حال دميانة بعينيه. أرادت بذلك أن تستلفت استغرابه

فمشى حتى اطل على الفتاة بحيث يراها ولا تراه فرآها جاثية وشعرها محلول وقد انتفش واسترسل حتى غطى كتفيها وأعلى صدرها ووقع نظره على جانب وجهها فرأى الاحمرار قد جلله والدمع بلله وهي تبسط يديهـا نحـو السماء تارة وتقرع بهما صدرها تارة أخرى فنظـر ابو حرملة الى القهرمانة نظر الاستغراب وهي نظرت مثل نظره ولـكنه حمل ذلك من

دميانة محمل الاستيحاش لبعدها عن أهلها وعزم على اكرامها حتى تستأنس به وقد زاده منظرها في تلك الساعة رغبة فيها فتراجع وأوصى القهرمانة في تطييبها واعدادها له وانه عائد بعد قليل ومضى

أما دميانة فقد طالت صلاتها ولم تمل ولكنها شعرت بعد حين بتعب يديها فانتبهت لنفسها واذا هي قد سري عنها وذهب ماكان أحدق بها من الهموم والمخاوف وشعرت بشجاعة واطمئنان وتحققت ان لا خوف عليها من حبائل الشيطان

وهي تتحفز للوقوف دخلت القهرمانة ضاحكة وهمت بدميانة فقبلتها فاشتمت دميانة منها رائحة خصوصية كانت تشتمها من ذلك المعسكر على الاجمال ولكنها أحست بها قوية من وجه القهرمانة وهي رائحة بعض الاطياب الخاصة باهل البادية. أما القهرمانة فامسكت دميانة بيدها واجلستها على الوسادة بجانبها وقالت لها « قد آن لك أن تتطيبي للقاء عريسك وهذه شمعة قد اختصك بنورها وكان قد حفظها لاعز أوقاته وأمرني ان أضيئها في هذه الغرفة ليرى وجهك الجميل بها . . . ويجب ان تعتبري ذلك اكراماً خصوصياً فانه لم يفعل مثله مع سواك من نسائه . . » قالت ذلك واستخرجت قضيب شمع غليظاً مغروساً في شبه القاعدة واستخرجت القداحة وولدت النور بواسطة الزناد واضاءت الشمعة ووضعتها على منضدة أو كرسي صغير في بعض جوانب الغرفة . وتناولت الجراب واستخرجت المشط والسواك وحقوق الاطياب وأخذت تشتغل باصلاح شعرها وتمشيطها وتطييبها ودميانة ساكتة لا تتكلم ولا تمانع وقلبها مطمئن هادىء

الفصل الخامس والخمسون

موقف هائل

ولما فرغت من تمشيطها وتطييبها اتتها بثوب من الحرير الملون كان أبو حرملة قد بعث به اليها مبالغة في اكرامها فلبسته وهي ساكتة فظنتها القهرمانة راضية مسرورة فخرجت الى أبي حرملة فاستقدمته فاتى وكان قد خفف ملابسه واتشح بثوب من الحرير يشبه ذاك وتطيب . ولما دخل الغرفة أشار الى القهرمانة فخرجت ثم عادت وبيدها ركوة من جلد وقدح من خشب وضعتهما بين يديه وخرجت وبقي هو ودميانة ليس في الغرفة سواهما . فلما شعرت دميانة بذلك الانفراد اختلج قلبها في صدرها رغم استسلامها واتكالها بعد الصلاة واستأنفت الاستغاثة في سرها

أما هو فقعد على البساط وتناول الركوة فصب منها في القدح وقدمه الى دميانة وهو يقول بلغة قبطية مكسرة « اشربي يا عروسة . اشربي من هذه المريسة فانها تنعش القلب وتذهب الحزن .. »

فظلت ساكتة مطرقة لا تعلم ما ذا تقول فقال لها « انا اشرب هذا القدح عنك » فشربه وصب قدحاً آخر وقدمه لها وقال « خذي اشربي .. » وأدنى القدح من فيها فنفرت منه وظهر الاشمئزاز في وجهها فقال « يظهر انك لم تتعودي هذا الشراب » ووضع القدح من يده وسحف على البساط حتى دنا منها ووضع يده على ركبتها فاقشعر بدنها ولم تتمالك على النهوض بغتة ونفرت فاخذ يضاحكها فقال « ما بالك . . لماذا تخافين مني وانا أحبك كثيراً » ومد يده ليمسك يدها ويجذبها اليه فتباعدت فتطاول حتى أمسك يدها فاذا هي باردة كالثلج وشعر بعجار كهربائية زادته رغبة فيها . وأما هي فلما لمسها قف شعرها وكاد الدم يجمد في عروقها . ولم تجد فائدة من النفور فاطاعته وقعدت وهي تتجنب أن تلمسه وخاطبته والدمع في عينيها قائلة

« أتوسل اليك يا سيدي ان تتركني وشأني »

قال « ولماذا .. ألاترضين أن تكوني من نسائي »

فلما سمعت سؤاله خافت أن تجيبه «لا» فيغضب فقالت « اني جارية حقيرة لا أستحق هـذا الاكرام وأنت في غنى عني بمن عندك من النساء الـكثيرات فاتخذني جارية أخدم في مطبخك أو ارعى الماشية أو أي شيء آخر »

قال « لا. لا. بل أنت أفضل النساء عندي وسأجعل لك المقام الاول فلا تجزعي فما أنا وحش وان لم أكن من أهل المدن نظيرك »

فقالت « يظهر لى من كلامك ومن علو منزلتك انك طيب السريرة اذ لا يمكن أن يبلغ مقام الامارة أسافل الناس.. فاتقدم اليك أن تسمع كلمة أقولها لك .. هل أقول ؟ »

قال «قولى»

قالت «أنا أعلم ان حظوتي عندك من أسباب الشرف العظيم الذي يتمناه كثيرون ولـكنني أحب أن تعفيني من تلك الحظوة . وانا أسيرة عنـدك استخدمني بما تشاء فاني أكون خادمة أوراعية أو جارية للطبخ أو الغسل أو الحرث أو أي شيء غير الزواج .. اسمح لى .. اعفنى . . استحلفك بمن تعبد أو بمن تحب أن تتركني وشأني »

قال « كيف أتركك وشأنك وقـد وقعت لي من الغنيمة بعد استخارة الآلهة ورأيت فيك جمالا لم أشاهده في سواك . . فانا أنصح لك أن ترجعي عن خطئك وتأتي راضية أولى من ان تأتي مكرهة . . وانت تعلمين ان أبا حرملة صاحب هذه القبيلة لا يعجزه ما يريده منك »

فشعرت بثقل تهديده وهي تعلم أنه اذا عزم على أمر لا يردعه رادع فاطرقت واعملت فكرتها ولم تجب فاستبطأ جوابها فقال « هل رجعت عن غيك ياقبطية . . هل شعرت اني ادعوك الى السعادة ؟ »

فرفعت عينيها اليه وقد تكسرت اهدابهما من البكاء وذبلتا من الحزن والقنوط وقالت «قلت لك ان كثيرات من أمثالي يتمنين الحصول على هذه

السعادة ومع ذلك فاني استعفيك منهـا . . واطلب مني ما شئت غير ذلك .
قلت لك اني أكون خادمة جارية راعية أكون أي شيء تريده غير الزواج»
فقطع كلامها قائلا «راعية خادمة ؟ ان الخدم كثيرات فانا نبيع الارقاء بالمئات »

الفصل السادس والخمسون

الدهان السري

فانتبهت دميانة لفكر طرق في ذهنها فجأة وحالما خطر لها بان البشر في وجهها فقالت والجد باد في محياها وقد ذهب خوفها «انت أمير كبير وا كثر اشتغالك بالحروب »

قال « نعم»

قالت « واظنك تخسر كثيرين من رجالك في أثناء القتال »

قال « كثيرين »

قالت «وانت طبعاً لا تكون في مأمن على نفسك ايضاً »

قال « اني لا أخاف الموت »

قالت « لم أقل انك تخاف الموت ولـكن ألا تكون معرضاً للقتل »

قال « طبعاً . . ولـكن ما معنى هذا الـكلام وما دخله فيما نحن فيه ؟ »

قالت« تمهل ايها الامير وستسمع النتيجة.. ألا تعلم من الجهة الاخرى بما في مصر من العلوم السرية التي ورثناها عن أجدادنا الفراعنة ؟ »

قال « اسمع بشيء كثير .. وماذا يهمني من العلم »

قالت « ألا يهمك أن تنجو أنت ورجالك من القتل ولو تساقطت عليكم الحراب كالامطار أو وقعت عليكم السيوف كالجنادل ؟ »

فضحك حتى بانت أسنانه البيضاء وهز رأسه وقال « بلى يهمنى ولـكن هل في علم المصريين ما يمنع الموت ؟ »

قالت « نعم ايها الامير .. وذلك سر لا يعلم به الا القليلون »
فشخص ببصره اليها شخوص المستغرب وقال « وهل تعرفينه انت؟»
قالت «اعرفه»
قال «اذا تحتالين في النجاة»
قالت « اسمع لي .. أنا لا أقول جزافاً ولا أطلب منك التسليم بدون تجربة . . ان سر هذا الدواء محصور في بعض الاديار بمصر وقد تعلمته وعرفته »
قال « وما هو ؟ »
قالت «دهن اصطنعه وأقرأ عليه اذا دهن الرجل جلده به أمن الموت اذ لا يقطع فيه سيف ولا رمح ولا نصال»
فقال « دعينا من الكلام الهراء ان هذه الاكاذيب لا تنطلي علي »
قالت «انها ليست أكاذيب يا سيدي انه سر في يدي لا أبيح به لك الا بشرط ان تعاهدني على كتمانه وتقسم بما تعبده انك تفي لي .. »
قال والجد يتجلى في جبهته وعينيه « اتقولين الحق ؟ »
قالت « نعم »
قال « اذا صدقت وكان عندك مثل هذا الدهان فاني اعطيك ما تطلبينه »
قالت « لا أطلب شيئاً غير اطلاق سراحي وايصالي الى بلدي واهلي وان لا تطالبني بالزواج أو غيره »
قال « لك ذلك . . واقسم بالهي اني مبر بقسمي ولكن كيف نعرف صحة هذا الدواء ؟ »
قالت « نجربه على رجل تدهن جسمه به وتضرب عنقه فاذا قطع كان الدواء كاذبا.. واذا ذهبت الضربة ضياعاً ولم يصب الرجل بسوء ألا تصدق قولي وتفي لي ؟ »
قال « بلى . . ولكن من يرضى ان نجرب ذلك عليه ويعرض نفسه لهذا الخطر ؟ »

قالت « اذا لم نجد أحداً انا اجربه بنفسي »

فاطرق أبو حرملة وقد دهش لهذا الكلام وقال « طيب . . ومتى تصنعين هذا الدهان ؟ ومتى نجربه ؟ »

قالت « غداً ان شاء الله »

فنهض وهو لا يصدق ما يسمعه وقال « لنصبرن الى الغد » ثم وقف وقال لها « اني منصرف الساعة فاصنعي العقار وفي الغد نجربه فاذا صح فاني فاعل ما تريدين »

قالت «لا أريد غير اخلاء سبيلي وارجاعي الى اهلي »

قال «حسناً» وخرج وقد تولته الدهشة وسار تواً الى فسطاطه

أما دميانة فلما خرج من عندها تنفست الصعداء وأخذت في اعداد الدهان فمزجته من الاطياب التي بين يديها واضافت اليها أشياء اخرى غير معروفة حتى صار بقوام الشحم وجعلته في القدح الذي عندها وباتت تلك الليلة مضطربة لهول الامر الذي هي مقدمة عليه ولكن ايمانها كان قويا

وفي اليوم التالى جاءتها القهرمانة فرأتها مشغولة بالصلاة فاتتها بالطعام فأكلت قليلا ثم جاء سمعان النوبي الترجمان يطلب دميانة من القهرمانة فسلمتها اليه . فلما رأته ارتاحت الى رؤيته وابتسمت ابتسامة حزين يائس فاثر منظرها في نفسه ولكنه قال لها « ارجو ان تكوني قد غيرت رأيك في أميرنا »

فتنهدت وارسلت دمعتين انحدرتا على خديها وهي ساكتة تمشي في أثره حتى بلغت الى خيمة الامير وقد خبأت قدح الدهان في جيبها فامر ابو حرملة بادخالها عليه وحدها فدخلت واراد سمعان ان يدخل معها فاشار اليه الحاجب ان يبقى خارجاً فمكث وهو يتعجب من تلك الخلوة مع حاجة الامير الى مترجم

الفصل السابع والخمسون

اضرب بسيفك

أما دميانة فدخلت الفسطاط وقد علقوا على اعمدته اسلحة وادراعا وجلس ابو حرملة على عنقريبه متكئاً وقد مد رجليه وقدماه حافيتان وليس على رأسه الا عمامة صغيرة لا كها بلا نظام وبيده خيزرانة يتلاهى بها. فمشت دميانة الى وسط الفسطاط ووقفت فأشار اليها ان تتقدم فتقدمت حتى اقتربت منه فاومأ اليها ان تقعد فقعدت فقال لها « ذهبت امس الى خبائك فاطمعك ذلك في وبعث على نفورك فاردت ان استقدمك الى فسطاطي لعلك تغيرين عزمك ألا تزالين خائفة ؟»

فقالت « لست خائفة ياسيدي ولكننا اتفقنا مساء أمس على شيء هل نسيته ؟ »

قال متجاهلا « وما هو »

قالت « ألم تعدني باطلاق سبيلي اذا استحضرت لك الدهان الذى يمنع القتل ؟ »

فضحك وقال لها « لا أحسبك تقولين الجد . . دعينا من الادهان وارجعي الى رشدك »

قالت « انما اقول الجد ووعد الامير مقدس »

فاعتدل فى مجلسه وقال « تصنعين دهانا يمنع القتل ؟ ما هو؟ »

قالت « نعم يامولاي » ومدت يدها الى جيبها واستخرجت القدح ودفعته اليه فتناوله ونظر في ذلك الدهان فاذا هو خثر كالشحم وله رائحة الطيب فقال « هذا الدهان يقي من القتل ؟ »

قالت « نعم اذا دهنت به عنق الرجل لا يقطع فيه سيف ولا خنجر » فهز رأسه وهو يتأمل بما في القدح تارة وينظر اليها تارة أخرى وهي

مطرقة تنتظر أمره فقال « ينبغي لنا ان نجرب ذلك »

قالت « جربه »

فقال بلحن التهديد « اجربه بك انت »

قالت « جربه يا سيدي بمن شئت فانا على يقين من صدقه »

فرد القدح اليها وقال « خذي ادهني المكان الذي تريدينه وانا اجرب ضربه بسيفي هذا » ووضع يده على سيف الى جانبه

فتناولت القدح من يده وهي تقول « جرد سيفك » ورفعت شعرها الى أعلى رأسها وكشفت عن عنقها وأخذت بعض الدهن برأس سبابتها وجعلت تمرح عنقها واعلى صدرها . فلما فرغت من العمل جثت بين يديه وقالت « اطلق حسامك جرب قوتك .. »

فنهض واستل حسامه وقال « أأضرب ؟ »

فقالت وهي مطرقة وقد كشفت عن قفا عنقها «اضرب»

فوقع نظره على بياض جلدها ورأى انكسارها فأبت نفسه ان يؤذيها لانه لم يطلق حسامه على عنق إلا براه بري القلم فتراجع وقال « راجعي نفسك اني لا أظنك الا مقتولة »

قالت «لا تخف .. اضرب .. ان يدك سترتد خائبة ..»

فاخذه الغضب وقال « ترتد خائبة ؟ » ورفع يده وهم بالضرب واذا بصوت يناديه من الخارج «لا تفعل يا مولاي » وسمع خطواً فالتفت فرأى سمعان داخلا مسرعا حتى حال بينه وبين دميانة فقال أبو حرملة «مابالك؟»

قال « ما ذا تفعل يا مولاي ؟ »

قال «اجرب دهاناً اصطنعته هذه القبطية تقول انه يمنع القتل وا كدت لي ذلك حتى ارادت ان اجربه في عنقها »

قال « وهل صدقت قولها ؟ »

قال « لم أصدقها ولذلك اردت ان اجرب ذلك فيها »

قال « انك قاتلها »

قال « هي تقول ان الدواء مجرب لا ريب في صدقه . ولولا ذلك لم

تعرض نفسها للقتل فقد رأيتها تستحثني على الضرب بكل قوتي »

فلما سمع الترجمان قوله ابتسم وأدار وجهه حتى استقبل دميانة بوجهها وهي لا تزال جاثية مطرقة وشفتاها تتحركان كأنها تصلي فلما اقترب سمعان منها رفعت بصرها اليه وعيناها تتلألآن بالدمع فقال لها « أتصدقين فعل هذا الدواء »

قالت « كيف لا وها اني اطلب تجربته في نفسي دعه يضرب ثم يرى ما يكون »

فضحك سمعان وقال « ذلك لا يجوز عليَّ يا دميانة . . . فقد عرفت قصدك» وتحول نحو الامير وقال «لا تصدقها يا سيدي ولا تطلق حسامك الا اذا كنت تريد قتلها وهي تعلم يقيناً ان الدواء لا فائدة منه وان الضربة من يدك تقضي عليها »

فقال والدهشة ظاهرة في عينيه « تعرف ذلك وتعرض نفسها للقتل؟. لا لا هذا لا يكون .. دعني اجرب »

فصاحت دميانة « دعه يجرب وسترى صدق قولي فأستريح من هذا الاسر لانه سيرجعني الى اهلي »

قال « لا تفعل يا سيدي انها تريد الموت .. »

قال « كيف تسعى بنفسها الى القتل ؟ »

قال « تفعل ذلك فراراً من امر يحرمه دينها عليها وانت تطلبه منها فلما لم تجد وسيلة للنجاة بالحسنى فضلت الموت على الرضا به »

فجعل ابو حرملة ينتقل بنظره من سمعان الى دميانة ومن دميانة الى سمعان كأنه يتفحص ما يضمرانه ثم قال « وكيف عرفت ذلك ؟ »

قال « عرفته لانه حدث قبل هذه المرة بصعيد مصر منذ أكثر من مائة سنة في دير من ديارات الراهبات وقد سمعته اثناء مروري هناك»

فلما سمعت دميانة قوله نظرت اليه نظرة عتاب ولسان حالها يقول «لقد وقفت في سبيل نجاتي من العار»

فقال ابو حرملة « وكيف ذلك »

قال «لما قام العباسيون على بني أمية وأرسلوا جيوش خراسان لمحاربتهم هرب كبير بني أمية مروان الى مصر وجعل يهاجم اديار الراهبات والرهبان فاتفق ان رجاله وجدوا في بعض الديارات فتاة جميلة الصورة فاحضروها اليه فاعجبه جمالها فارادها لنفسه وهي تأبى ذلك لان النصارى يتفاخرون في المحافظة على العرض ولا سيما الراهبات فان الفتاة منهن تستنكف أن تمس عفتها بشيء وتفتدي عفتها بنفسها . فلما أرادها الامير وعلمت انه غير تاركها احتالت عليه وزعمت مثل زعم صاحبتنا هذه ان عندها دواء اذا دهن به الجسم ارتدت عنه السيوف القواطع وانه اذا وعدها باطلاق سراحها دلته على ذلك الدهن فرضي بقولها واشترط ان يجرب ذلك فيها فرضيت ودهنت عنقها وامر الجلاد فضربها فاطاح رأسها عن بدنها فعلم انها فعلت ذلك تفضيلا للموت على أن تمس عفتها[1] .. وتحدث أهل مصر بهذا الحادث العجيب زمناً طويلا »

الفصل الثامن والخمسون

سلطة الفضيلة

فلما سمع ابو حرملة قوله رد سيفه الى غمده وهو مطرق ثم رمى السيف على البساط وتقدم الى دميانة وقال لها « قومي يا أخية .. قومي.. هل انت تريدين الموت ؟ »

فصاحت وهي واقفة وقوف المستعطف والدمع يتلألأ في عينيها « نعم افضل الموت على ما تطلبه مني . . . اذا كنت لا تزال على عزمك الاول فاقتلني حالا »

فاظهر الغضب وقال « تفضلين الموت على أن تكوني عندي »

قالت « كلا يا سيدي لا أشكو من شخصك فانت أمير كريم الاخلاق

(١) الخريدة النفيسة ج ٢

ولكنني اتجنب شيئاً آخر .. » واطرقت حياء

فتصدى سمعان للكلام وقال «انها انما تريد المحافظة على عفتها حسب اعتقادها وليس بالنظر الى رجل معين »

فاحس أبو حرملة كانه غلب على امره وشعر بقوة فى تلك الفتاة الضعيفة السبية لم يكن يشعر بمثلها فى كبار الرجال . وسر قوتها احتقارها هذه الحياة ومحافظتها على عفافها وثباتها في المبدأ الذي شبت عليه ولم يمنعها خطر الموت عن البقاء فيه . والتمسك بالعفاف ونحوه من الفضائل يكسب اصحابه قوة ومهابة حتى في الامم المتوحشة فلم يتمالك أبو حرملة عن النظر الى دميانة نظر الاحترام وقال « كيف تفضلين الموت . . »

قالت « افضله لانه ينجيني من ارتكاب ما اعتقده مخالفاً لارادة الله وتعاليم السيد المسيح »

فالتفت أبو حرملة الى سمعان وقال « فهي اذاً نصرانية على مذهب سيدك صاحب النوبة .. »

قال « نعم يا مولاي والنصارى يعدون المحافظة على العفة من أكبر الفضائل »

قال « فلك النوبة اذاً أولى بها منا اكراماً لهذا الثبات قد عفوت عنها.. لكنني لا أتكلف ارجاعها الى مصر ونحن بعد أيام قادمون الى النوبة فنسلمها الى ملكها ...»

فلما سمعت دميانة كلامه اشرق وجهها وذهب انقباضها وتناثرت دموع الفرح من عينيها وهمت بيد الامير لتقبلها فزاده هذا الشعور شفقه عليها واعجابا بها لانه لم يكن يتصور انه يوجد في الدنيا امراة تأبى ان تكون زوجة له فكيف انه رآها تفضل الموت على التفريط بعفتها فقال لها « قد تركتك وشأنك ونحن قادمون بعد ايام الى النوبة فنكون على مقربة من دنقلة عاصمة ذلك الملك فادفعك اليه .. هل يرضيك ذلك ؟ »

فاشارت برأسها وعينيها انها تشكره على هذه المنة وهي لا تعرف كم تبعد

دنقلة عن ذلك المكان ولكنها كانت تود التخلص من تلك الشراك باية وسيلة كانت . أما سمعان فيعرف البلدين وما بينهما من البعد فقال « واذا كان الامير يرى ثقلة بيقائها في معسكره وأنا نوبي وقد اشتقت الى بلادي فيأذن لي بالانصراف اليها فآخذ الفتاة معي واوصلها الى النوبة »

فضحك الامير وقال « لقد طالما لحظت رغبتك في فراقنا وقد سنحت لك فرصة فامض واهد سلامي الى ملك النوبة وقل له اننا باقون على العهد. وقل لغلامي ان يهيء لكما الركائب اللازمة وخذوا خادماً أو ما شئتم » والتفت الى دميانة وقال لها « اسبلي ذيل المعذرة على ما حملناك من التعب يا جميلة واذكرينا عند أهلك بالخير متى بلغت الى بلدك »

فتذكرت رفيقتها عليا فارادت ان تسأل عنها لعلها تصحبها معها وتكافئها على جميل والدها فقالت « اشكرك أيها الامير وسأنشر في الملأ ما لقيته من نجدتك وكرم أخلاقك . . ولكن لي رفيقة كانت معي منذ أخذنا من حلوان .. »

فنظر أبو حرملة الى سمعان كأنه يستفهمه فقال « أظنك تعنين عليا فهذه قد تزوجها ذاك الامير وهي راضية لانها تحققت موت والدها وسائر أهلها وهي من بنات البادية »

قالت « لعلها تحب أن ترافقني »

قال « وقد سافرت في هذا الصباح مع زوجها ..»

فسكتت دميانة وخرجت مع سمعان واتكلت عليه في اعداد ما يلزم للسفر .. وحدثتها نفسها ان تطلب اليه ان يحملها الى مصر بدل بلاد النوبة فتصل الى اهلها . فلما خرجا نظرت اليه وهي لا تصدق انها نجت من تلك الحبائل بعد ان كادت تقتل وشعرت ان له الفضل في ذلك اما هو فلعله كان أكثر سروراً منها لانه انقذها من الموت. فلما رآها تنظر اليه ضحك وقال لها « هل انت مسرورة يا سيدتي ؟ »

قالت « الفضل لك يا سمعان في حياتي ...»

قال «لا فضل لى فاني فعلت الواجب وقد شعرت من أول لحظة رأيتك

فيها ان علي فرضاً واجباً نحوك »

فقالت « وأنا حالما وقع بصري عليك شعرت بارتياح لرؤيتك ثم تحقق ظني بما آنسته من طيب عنصرك كانك مسيحي مثلي»

فضحك وقال «وانا كذلك .. اني ربيت تربية مسيحية ولذلك رأيتني عرفت حركاتك »

وكانا يمشيان وأهل المعسكر ينظرون اليهما وقد بلغهم الخبر ان الامير عفا عن تلك المـرأة وأمر بتسريحها . فظل سمعان ماشياً حتى أتى خيمته وأمر الخادم ان يهيء الاحمال ودعا دميانة الى الجلوس وأمر لهـا بطعام يعرف انها تأكله فاحست باستئناس كثير ولما سمعته يأمر باعداد الاحمال قالت «الى أين نحن ذاهبون»

قال « الى دنقلة يا سيدتي» وضحك

قالت « وأين هي من هنا ؟ »

قال « تبعد بضعة عشر يوماً على الجمال »

قالت « هل هي من جهة مصر ؟ فاذا وصلنا اليها نقرب من الفسطاط ؟ »

فضحك وقال « ان مصر الى يميننا ودنقلة الى يسارنا فاذا كنا الآن بعيدين عشرين يوماً عن مصر فمتى صرنا في دنقلة نصير على مسافة أربعين يوماً عنها »

فبغتت وانقبضت نفسها وأطرقت فابتدرها سمعان قائلا « لا تجزعي اننا لا نذهب الى دنقلة وانما نحن ذاهبون الى اسوان وهي على يوم وبعض اليوم من هنا » وخفض صوته وقال «لاني عرفت من بعض المارين بنا أن ملك النوبة قدم الى جوار اسوان متنكراً ومتى صرنا هناك لا نكون بعيدين عن مصر كثيراً »

فاشرق وجهها وقالت « بورك فيك . فاتقدم اليك بعد وصولنا اسوان أن ترافقني الى مصر لاكافئك على صنيعك »

قال « سأكون في خدمتك حتى تصلي مأمنك »

فشكرته وصممت اذا هو رافقها الى مصر ان تكافئه أحسن مكافأة . وفي الحال تذكرت ما كان من أمرها في الفسطاط وكيف اضطهدها أبوها ولا تعرف ما يكون مصيرها لانها لم تعلم بما دار بين زكريا وسعيد وكان زكريا قد تركها في حلوان وذهب لاستجلاب الاسطوانة ولقي سعيداً وكلمه ولما مضى ليخبرها بما حدث وجدها قد أخذت . فلم تكن دميانة تعرف شيئاً من حال أهل مصر ولكنها كانت تتوقع ان تكتشف الحقيقة وتوسمت في سمعان الرغبة في خدمتها فارادت أن يصحبها الى مصر لتستخدمه في التفتيش عن زكريا أو سعيد واخذت تتأهب للرحيل الى اسوان

الفصل التاسع والخمسون

اسوان

وكانت اسوان آخر حدود مصر من جهة الجنوب وتبتدىء بعدها بلاد النوبة وهي مدينة آهلة فيها تجارة واسعة لما يتبادل من السلع والحاصلات بين مصر والسودان يجتمع فيها التجار على اختلاف الملل . وكثيراً ما كان النوبة يسطون عليها ليضموها الى بلدهم فيحاربهم المسلمون ويردونهم . وفيها مغارس النخيل الخصبة وعندها يبتدىء الشلال الاول من النيل وهي جنادل تعترض مجرى الماء فيسمع لها دوي وخرير ويعسر سلوكه بالسفن فيجرونها باللبان جراً ويحملونها حملا حتى تتجاوز تلك المضايق . وعند اسوان كثير من آثار الفراعنة اهمها هيكل أنس الوجود المشهور . وكان في عهد روايتنا دير تجاه اسوان في البر الغربي يقيم فيه بعض الرهبان لا تزال آثاره باقية الى الآن . وناهيك بالجبل المجاور لاسوان من جهة الصحراء وفيه المناجم الصوانية التي كانوا يقطعون منها الاحجار الاسوانية وتراها الى الآن باقية وفيها الاحجار المقطوعة والحفر المنقورة

وكان ملك النوبة يومئذ يسمى فيرقى (أو قيرقى) وكان طامعاً بملك مصر

واخراجها من أيدي المسلمين واعادتها الى ملك الروم . فكانت المخابرات جارية بينهما سراً بواسطة أسقف مقيم في اسوان تأتيه رسل الروم فيبعث بالكتب أو بالرسل الى ملك النوبة . وأحب ملك النوبة في ذلك العام ان يأتي بنفسه للمخابرة شفاهاً مع الاسقف . فتنكر ونزل في مسلحة على حدود النوبة وراء اسوان ولا يعرف به غير نفر من خاصته . وبلغ ذلك الى سمعان من جماعة كانوا مع قافلة الملك عند خروجها من دنقلة وتركوها قاصدين مناجم الزمرد فلقي سمعان رجل منهم يعرفه فقص عليه الخبر سراً

وبعد يومين أعدت الركائب لدميانة وسمعان ومعهما خادم وجمل يحمل مؤونتهم والمسافة الى اسوان قصيرة . واشرفوا عليها في الاصيل فقال سمعان «اننا على مقربة من اسوان وهذا جبلها المشهور الذي يقطعون منه الاحجار وينحتون التماثيل فينبغي لنا ان نتجاوز اسوان نحو الجنوب»

قالت « ولماذا لا ننزل فيها فقد بلغني ان فيها ديراً ذا كرامة احب ان ازوره »

قال « ان الدير على البر الآخر لا نتصل اليه الا بعد ان نقطع النيل ولا بد من ذهابنا اليه أما الآن فعلينا ان نقابل الملك »

قالت « وأي ملك ؟ »

قال « ملكنا .. ملك النوبة »

قالت « أليس هو في اسوان ؟ »

قال « كلا انه لا ينزل اسوان لانها ليست داخلة في مملكته ولكنه ينزل في مسلحة وراء الشلال فيها حامية من رجاله »

فتنحنحت وسكتت وظهر من ملامحها انها تكتم أمراً تحب اظهاره فقال « اظنك تتعجلين السفر الى مصر »

فضحكت وقالت « هل تلومني على ذلك ؟ وقد فارقت أهلي يبكون على فراقي وربما يئسوا من وجودي »

قال « لا ألومك يا سيدتي . ولكننا بسفرنا الى مصر لا نستغني عن

نجدة الملك وزد على ذلك اني مكلف برسالة من أبي حرملة اليه لا بد من تبليغها »

قالت « افعل ما بدا لك »

وكانا راكبين على الجمال وقد أشرفا على النيل عن بعد فرأيا سطحه يلمع كفرند السيف وتحده الجبال من الضفتين ويتخلل ذلك انقاض الهياكل الفرعونية فيها الجدران والاساطين ولما اقتربوا من اسوان سمعوا هدير الماء عند الشلال من تزاحمه في سيره بين الجنادل — مر على وادي النيل دول شتى وتوالت عليه أحوال مختلفة من عز وذل ونزل ذلك البلد ملوك وقواد من عهد الفراعنة العظام الى اليونان فالرومان فالمسلمين وهدير ذلك الماء واحد ومجراه على وتيرة واحدة لا يمل من الجري ولا يمل جاره من السمع

مروا بالقرب من الجبل وقد كادت الشمس تدرك المغيب فقال سمعان «لا نزال بعيدين عن المسلحة فارى ان نبيت هنا الليلة هل تريدين ؟»

قالت « لا رأي لي يا عماه — افعل ما تشاء »

فاشار الى الخادم ان ينصب الخيمة وهي صغيرة كالمظلة تبيت دميانة تحتها ويبيت سمعان خارجا والخادم يعقل الجمال وينام بينها فقال الخادم « أين أنصبها »

قال « انصبها في سفح هذا الجبل في مكان ممهد » قال ذلك وترجل وانزل دميانة عن الجمل وقد تعبت وأخذ يحدثها ليشغلها عن التعب وألقت أنظارها الى ما هنالك من المشاهد الطبيعية وهي لاترى شيئاً لانها حالما وقع نظرها على النيل تنسمت رائحة الفسطاط وتذكرت حبيبها وتاقت نفسها الى اللقاء لترى ما يكون من امرها

وبعد قليل جاء الخادم وأنبأهما بنصب الخيمة على مصطبة من الصخر في سفح ذلك الجبل فقال له سمعان « امكث انت هنا مع الجمال الى الصباح وكن مستيقظاً لئلا يسطوا عليك اللصوص »

قال « حسناً » ومضى

وصعد سمعان ودميانة للمبيت تحت تلك المظلة وهي لا ترى بأساً من الانفراد بسمعان لانها كانت تعده مثل خادمها زكريا وقد آنست فيه لطفاً وخصوصاً لانها عرفته وهي في أشد الضيق وتوسمت فيه طيب العنصر وانه نصراني والدين من اهم أسباب التقارب

حمل سمعان معه بعض الزاد وجلسا تحت المظلة فتناولا شيئاً من الطعام ثم غلب عليهما النعاس فنامت دميانة على بساط فرشه لها سمعان تحت المظلة وتوسد هو ارضاً رملية على بضعة أذرع منها وجعل رأسه على ذراعه . وهو يوشك ان ينام سمع دوياً فالصق اذنه بالارض جيداً وتنصت فاذا هو يسمع وقع خطوات قريبة فرفع رأسه وقد خيم الظلام واصاخ بسمعه فسمع لغطاً بعيداً فنهض وتمشى حافياً نحو الصوت وهو يتلمس طريقه حتى أطل من وراء الجبل على خيام منصوبة ونار مشبوبة وتفرس فاذا هي خيام نوبية الشكل فلم يشك في انها مضارب الملك فحدثته نفسه ان يسير اليها لانه يلاقي فيها اكراماً وحفاوة ويبلغ رسالته . ولكنه خاف ان يترك دميانة منفردة فعزم ان يسير بها في الصباح الى هناك وعاد الى متوسده ولم يكد ينام حتى سمع دويا قريباً فنهض فرأى ثلاثة فرسان يسوقون افراسهم في طريق يؤدي الى ذلك المضرب فتنصت وتفرس بالمارين فلم يعرفهم لانهم متنكرون فعاد الى منامه

وقبيل الفجر جاءه الخادم فسأله هل شاهد أحداً ماراً في ذلك الليل

فقال «شاهدت ثلاثة رجال ومر بي خادمهم فسألته اذا كان منهم خوف عليكم فقال «كلا . لا خوف منهم.. لانهم أسقف المدينة واثنين من رجاله» وبالواقع قد رجعوا في آخر الليل ولم نشعر بهم»

فلما سمع سمعان قوله «اطرق هنيهة يفكر ثم ابتسم واشار اشارة معناها «عرفت السر» ثم التفت وقال له «امكث هنا بالجمال والثياب حتى نعود اليك» وقال لدميانة «هل تريدين مرافقتي الى هذه الخيام وراء هذا الجبل فانها مضارب ملك النوبة فنقابله ونستأذنه في السفر ثم نعود »

قالت « اذا كنت ترى فائدة من ذهابي اذهب »

قال « الافضل ان تأتي معي وأظنك تحبين مشاهدة ملك النوبة فان الناس يتمنون رؤيته » وأشار ان تتبعه فمشيا حتى تجاوزا الجبل الى بقعة منخفضة فيها بضع خيام احداها كبيرة فتقدما حتى اقتربا من الخيمة الكبرى فتصدى لهما رجل نوبي غليظ البدن قوي العضل حافي القدمين قد التحف شملة لف بعضها حول حقويه وارسل باقيها من جهة صدره الى كتفيه فظهره وقد علق سكيناً في كوعه وشك سهاما في شعره المتلبد وعلق قوساً في كتفه . ولما رأى القادمين تصدى لهما فتقدم سمعان اليه وكلمه بلسانه فبغت الرجل عند رؤيته وتولته الدهشة وصاح « سمعان » وهم به فضمه الى صدره وصافحه مثنى وثلاث بين المصافحة والتي تليها يقبل كل منهما يده على عادة النوبة في التسليم . فاخذ سمعان يخاطبه بالنوبية أشياء لم تفهمها دميانة ومشيا وهما متصافحان وكلم سمعان الرجل وهو يشير الى دميانة فاسرع اليها ودعاها ان تتبعه فاستشارت سمعان بنظرة فأومأ اليها ان تتبع الرجل فذهب بها الى خيمة فيها نساء استقبلنها أحسن استقبال

الفصل الستون

ملك النوبة

أما سمعان فسار الى الخيمة الكبرى فاستأذن له رفيقه في الدخول فأذن له فدخل واذا هناك فيرقى ملك النوبة وكان بديناً كبير الهامة عليه لباس مزخرف وعند رأسه زنجيان يحملان مراوح من ريش النعام يروحان له وهو جالس على جلد أسد لا يزال رأس الاسد معلقاً فيه وقد عولج حتى يظهر للرائي كأنه أسد رابض. ولم يكن فيرقى في لباس الملك لانه جاء متنكراً ولكنه وضع على رأسه قبعة بشكل التاج وعلق في صدره صليباً من الذهب المرصع واتشح بمطرف من الخز عليه صور ملونة أكثرها صور القديسين وخصوصاً صورة القديس جاورجيوس لابس الظفر . وقد جلس الملك

الاربعاء ووضع السيف في حجره واصلح من شأنه فاكتحل وتطيب ونزع النعال من رجله . وكان في أواخر الكهولة وقد شاب شعره مع خفة ولكنه كان صحيح البدن مشرق الوجه . وقد احاط خصره بمنطقة من الخز لم يعهد مثلها في تلك البلاد . فلما رأى سمعان داخلا رحب به وقال «مرحباً بخادمنا الامين سمعان »

فاكب سمعان وهو جاث حتى قبل ركبة الملك فاشار اليه أن ينهض ودعاه للجلوس فجلس بين يديه على حصير من سعف النخل جميل وتأدب فقال الملك « من أين انت قادم ؟ »

قال « من المهمة التي انفذني سيدي الملك بها »

قال « من بلاد البجة ؟ من هو صاحبها الآن وكيف وجدته ؟ »

قال « هو أبو حرملة و ... »

فقطع الملك كلامه قائلا « ابو حرملة ؟ النوبي »

قال « كلا يا سيدي ان صاحب البجة تسمى بهذا الاسم تقليداً لذلك القائد العظيم .. »

قال « وكيف وجدت سياسته ؟ هل هو معنا ؟ »

قال « لم يكن معنا في بادىء الرأي ولكنني جعلته يصير نوبياً أكثر من النوبة... لان اولئك القوم انما يهمهم النهب فاذا علم ان محاربتنا المسلمين تجيز له النهب جاء معنا .. »

قال « هل افهمته الغرض الاصلي من مناوأة المسلمين ؟ »

قال « ان هؤلاء لايفهمون معنى الانضمام الى الروم لانهم لا يدينون بالنصرانية .. وانما قلت له انه اذا قامت حرب بيننا وبين المسلمين كان هو بجانبنا .. ورأيت منه انعطافاً »

فضحك وقال « ان البجة أصدقاء النوبة من عهد أسلافنا واذكر اني في عهد أبي الملك الجليل ارسلت في مهمة كان رفيقي بها رئيس للبجة غير هذا فذهبنا الى بغداد كرسي المسلمين للشكوى من سوء معاملة المسلمين في اقتضاء الجزية والبقط ـ وكنت غلاما فلقيت من خليفتهم يومئذ كل رعاية واهدانا

الهدايا والتحف ووهبنا القصور وبالغ في اكرامنا وقد شاهدنا من خيرات العراق ما لا مثيل له هنا ولما رجعنا اهداني فرساً وسرجا ولجاما وسيفاً محلى هذا هو وثوبا ثميناً وعمامة من الخز لم البسها وهي هذه (وأشار الى المنطقة حول خصره) غير ما أعطى الى سائر حاشيتنا من الهدايا واهم من كل ذلك ان الخليفة نظر الى شكوانا فوجد عامله بمصر يأخذ منا فوق ما يجب فامره أن يخففه [1] وبالجملة فقد لقينا من ذلك الخليفة خلقاً عظيما واستتب الحال في عهده ثم تغيرت الاحوال بانتقال الخلافة الى سواه فعاد عامل مصر الى مناوأتنا . وحق العذراء ان ملك الروم خير لنا من هؤلاء المسلمين فانهم على دين غير ديننا ولا يدخرون وسعاً في سبيل قبض أموالنا واسترقاق رجالنا . ولا أظنني في حاجة الى زيادة التفصيل يا سمعان »

فاحنى سمعان رأسه مؤمناً على قول الملك ثم قال « فالبجة معنا الآن وقد آنست من رئيسهم كل ميل الى ذلك وهو لا يعلم اني جئت لاتجسس أحواله وانما اتخذني مترجماً له وقد اغتنمت فرصة سنحت والتمست منه السفر الى دنقلة وانا اعلم ان مولاي الملك هنا »

فقال الملك « نعم لاني اتيت متنكراً لمشافهة اسقف اسوان فقد كان وسيلة بيننا وبين ملك الروم في المخابرة كما تعلم وقد جاءني مساء الامس وتداولنا ملياً فرأيت منه سعياً حميداً . بقي أمر البطريرك مخائيل في مصر » قال ذلك وتنهد

فقال سمعان « ألم تخابروه بعد ؟ »

قال « قد خابرناه مراراً ولم يأتنا منه جواب لنعلم هل هو معنا أم لا .. »

قال « طبعاً هو معنا لانه .. »

فقطع الملك كلامه وقال « لا تقل طبعاً . . فلو كان معنا لاجابنا على كتبنا اليه .. »

قال « ربما ضاعت الكتب في ذهابها اليه أو ضاع الجواب في مجيئه الينا »

---

(١) المقريزي ٢٠١ ج ٢

فاطرق الملك حيناً وهو يحك عثنونه الشائب بسبابته ثم رفع بصره اليه وقال « صدقت ان الكتب قد تضيع في الطريق فهل تكون رسولي الى البطريرك مخائيل تبلغه الامر شفاها وتأتيني بالجواب النهائي ولك ان تستخدم مهارتك في اقناعه .. هل تفعل ؟ »

فاحنى سمعان رأسه مطيعاً وقال « أفعل ذلك يا سيدي »

قال « أتعلم مقر البطريرك مخائيل ؟ »

قال « أظنه الآن في دير ابي مقار في بادية النطرون »

قال « هل تعرف الدير وهل انت واثق من وجود البطريرك هناك »

قال « أعرف الدير . . واذا لم يكن البطريرك فيه اذهب اليه حيثما يكون .. كن مطمئناً . وانما وازرنا بالدعاء »

فابتسم الملك وقال « انك محب صادق وسنكافئك احسن مكافأة . . واذا ظفرنا بما نؤمله كان لك جزاء حسن »

فوقف سمعان وانحنى انحناء الشكر وقال « اني لا ألتمس على خدمتي أجراً وانما افعل ذلك حباً بمولاي الملك وتأييداً للدين »

قال « أي متى تسافر ؟ »

قال « متى أمر الملك . . . ولكنني أرفع الى مقامه ان معي فتاة من قبط مصر وقعت سبية عند البجة وعهد الي أن اعيدها الى اهلها فأحب أن اصطحبها ويكون سفرنا في قافلة بالبر الغربي اذ يكون طريقنا تواً الى وادي النطرون »

قال « اصطحب من شئت ومهما احتجت اليه في سبيل ذلك خذه وسنأمر صاحب بيت مالنا أن يدفع اليك ما تريده من المال او الركائب »

قال « لا حاجة يا مولاي الى الركائب فان الطريق الذي ذكرته لا يخلو من قوافل التجار مارة باحمال الريش والصمغ والعاج الى مصر فنرافق واحدة منها بغير ان يعرف القوم غرضنا وأجعل نفسي خادما للفتاة التي ذكرتها »

قال « احسنت .. ومن هي هذه الفتاة ؟ »

قال ذكرت لمولاي انها سبية غنمها البجة من حلوان بجوار الفسطاط وأتوا بها الى أميرهم فأرادها لنفسه فأبت تمسكا بالتقوى حتى فضلت الموت على مجاراته » وقص عليه حديثها الى آخره

فأعجب الملك بما سمعه من تمسكها بالنصرانية وأثنى على عفتها وتقواها وقال له « هل هي معك هنا ؟ »

قال « نعم هي في الخيمة الاخرى .. »

فصفق الملك فدخل غلامه فامره أن يستحضر الفتاة القبطية وقال لسمعان « سأجعل سفرك الى مصر في خدمتها اكراماً لها » ثم عاد الغلام وقال « ان الفتاة بالباب » فنهض سمعان فاستقبلها تشجيعاً لها في ملاقاة الملك فدخلت وهي مطرقة فابتدرها الملك قائلا « مرحباً بالفتاة الطاهرة النقية.. لقد سمعنا بصدق تدينك وعفة نفسك فاحببنا أن نراك ونهنئك حفظك السيد المسيح وجعلك من مختاريه »

فطأطأت رأسها حياء واحتراماً فقال لها « قد اوصيت محبنا سمعان أن يذهب معك حتى يوصلك الى مأمنك» قال ذلك باللغة القبطية لانه كان يعرفها

فاستأنست دميانة وفرح قلبها لاهتمام ملك النوبة بامرها وشكرت تنازله وخرجت ومعها سمعان الى مبيتهما بالامس فاستقرا هناك حتى أتيح لهما تعدية النيل الى البر الآخر فنزلا ديراً هناك أقاما فيه أياما ينتظران مرور قافلة ذاهبة الى مصر يصطحبانها . وكان سمعان في أثناء ذلك يشتغل باعداد ما يلزم للطريق وصرف الخادم الذي جاء معه من عند البجة وأوصاه أشياء يقولها لابي حرملة وأمر خادما آخر من اهل بلده أعد لهما جملين خفيفين احدهما له والآخر لدميانة وكانت قد تعودت ركوب الجمال

*

الفصل الحادى والستون

الى الفسطاط

وخاف ملك النوبة تأخر المهمة التي كلف سمعان بها فاعد قافلة خصوصية سير فيها جماعة من رجاله يحملون بعض اصناف التجارة الى الفسطاط وأمرهم أن يسيروا في طريق البادية على البر الغربي للنيل حتى يأتوا الجيزة تجاه الفسطاط ومنها يعبرون النيل الى الفسطاط يبيعون تلك البضاعة في اسواقها فيوصل دميانة الى حيث تريد ثم يبحث عن مكان البطريرك مخائيل ويؤدي اليه مهمته. فلما اعدت القافلة سار سمعان ودميانة معها وكل منهما على جمله بما يلزم من اسباب الراحة . وفي هذا الطريق محطات تقف القافلة عندها للطعام أو الراحة أوالمنام ولم تعرف دميانة أحداً من ذلك الركب الا سمعان. وكانت تزداد استئناساً به كل يوم عما قبله وهو لا يفتر عن القيام بما يلزم لراحتها ومؤانستها بالاحاديث المختلفة وهي تقص عليه ما تعرفه او ما مر بها وتطرقت طبعاً الى سرد حكايتها وسبب خروجها من بيت ابيها وبالغت في الثناء على زكريا لما أظهره من الغيرة عليها حتى تفانى . في مصلحتها وكيف انه تركها المرة الاخيرة في حلوان فسباها البجة ولم تعد تراه ولا تعلم أين هو

فلما سمع حديثها همه أمرها فقال « والى أين تريدين الذهاب الآن ؟ »

قالت « لا أدري ولكننا اذا اقتربنا من الفسطاط نسأل عن سعيد المهندس في القطائع بين رجال ابن طولون فاذا عثرنا عليه علمنا منه ما بقي »

قال « واذا لم نقف عليه »

قالت « نبحث عن زكريا » وتذكرت مصائبها بعد ان شغلت عنها بالطوارىء التي دهمتها فانقبضت نفسها وتنهدت

وكان الجملان سائرين متحاذيين وراء القافلة على الرمال لا يسمع لخفافهما

وقع . واذا التفت الراكب الى يساره لا يرى الا رمالا وصخوراً وأما الى اليمين فيقع البصر حيناً بعد حين على المزارع عند ضفة النيل وقد يرى النيل جاريا والعمارة على ضفتيه أكثرها قرى صغيرة الا بعض المدن أهمها أسيوط والفيوم وغيرها

ولما وصلا بحديثهما الى ما تقدم كانا قد اقتربا من الجيزة ولقيا في طريقهما الهرم المدرج . وأشرفا على اهرام الجيزة ووقع نظرهما في اليمين وراء النيل على ضفته اليمنى على حلوان وظهر لها المقطم وعليه قبة الهواء وتحتها قطائع ابن طولون فاذكرها ذلك بيوم الاحتفال الذى أخذ فيه سعيد فهاجت أشجانها وغلب عليها السكوت وبان الانقباض في وجهها وتلألأ الدمع في عينيها ولحظ سمعان ذلك منها فشاركها في احساسها وأخذ في التخفيف عنها وكان قد عرف انها بنت وجيه غني وأعجبته انفتها وعزة نفسها فقال لها « لا بأس عليك يا سيدتي اشكري السيد المسيح على نجاتك من الاسر والعار »

فقالت « اشكره كثيراً . وهو الذي سخرك لانقاذى وهذا من نعمه الكبيرة . . غير اني لما أتذكر شقائي وتعاستي وكيف اني طريدة لا أخ لى ولا أخت ولا أم وقد عاداني ابى واضطهدنى أقرب الناس الي . . لما أتذكر ذلك تنقبض نفسي . ولكن . . (وتنهدت) ولكن ... آه . . »
وسكتت وظهرت في وجهها ملامح الخجل واليأس معاً لانها تذكرت سعيداً وارادت أن تذكره وترجو لقاءه فغلب عليها الحياء ولحظ سمعان ذلك فيها فاحب أن يخفف عنها وقد تذكر مصائبه وكان قد تناساها مع الزمان فقال « ان الانسان يا سيدتى عرضة للمصائب والمسيحي الحقيقي يتشبه بالسيد المسيح الذي تألم وصلب من أجلنا واحتمل كل ذلك بالصبر فينبغي لنا أن نصبر »

فلما سمعت احتجاجه بالدين اقتنعت وأحست براحة ولكنها ما زالت محبوسة العواطف وتود ان تقول شيئاً عن سعيد والحياء يمنعها

فقال سمعان « ولا يخفى علي انك تضمرين أمراً يمنعك الحياء من

التصريح به . . ان سعيداً هــو مرجع آمالك واذا لقيته نسيت كل شقاء أليس كذلك . . »

فاجابت وقد غلبت على أمرها « نعم صدقت . هل ألاقيه ؟ أين هو يا ترى . . أفي السجن أم اطلق سراحه أم اصيب بشيء آخر ؟ . سعيـد سعيد . حبيبي سعيد » »اطلقت لنفسها عنان البكاء نخاف سمعان ان يسمع أحد من الركب صوتها فاخذ يتبطأ في سيره وهي تجاريه حتى سبقتهما القافلة مسافة بعيدة وصارت على مقربة من اهرام الجيزة وكانا قد اشرفا عليها وعلى أبي الهول عن بعد واستبشرا بقرب الوصول

أما دميانة فرفعت الـكلفة بينها وبين سمعان واتخذته عوناً لها كما كانت تعامل زكريا وزادها تعلقاً به مشابهته اياه في ملامحه واخلاقه فقالت « وهل تظنني أنسى هذه المتاعب يا سمعان ؟ »

قال « أرجو ذلك من الله . واعلمي اني غـير تاركك حتى ابلغك مأمنك ويطمئن بالي عليك . . » قال ذلك وتنهد وقد تغيرت سحنته وسكت فلحظت فيه ذلك فسألته عما طرأ عليه فقـال « اني لا أمر من هـذا الطريق وانظر الى الفساط الا وتتقبض نفسي وتهيج أشجاني . . لحادث أتذكره مع رغبتي في نسيانه . . فلا تهتمي بهـذا الامر . . عودي الى حديثنا عن سعيد المهندس » قال ذلك وهو يمازحها لاذهاب ما خامرها من الانقباض

فضحكت ولـكنها زادت ميلا الى معرفة حديثه وحسبت الحاحها عليه بكشفه يعد من قبيل الرغبة في التخفيف عنه فقالت « لقد شغلت خاطري بما ظهر عليك من الانقباض فلعل لك حديثاً غريباً »

قال « حديثي غريب ولـكنه قديم وقد كدت انساه »

قالت « ألا تقصه علي نقطع به بعض الطريق ؟ »

الفصل الثانى والستون

الهجوم

قال « أقصه عليك اذا كان في قصه ما يسليك وخلاصته اني نشأت في صغري مع اخ لي أصغر مني في بلاط ملك النوبة جد هذا الذي رأيته بالامس وكنا في رغد وراحة لاهم لنا غير الاكل والشرب واللعب وقد جعلنا من خاصة خصيانه . واتفق ونحن غلامان ان خليفة المسلمين الذي يسمونه عبد الله المأمون اتى الى هذه البلاد لامر اقتضى ذلك وتبودلت المكاتبة بينه وبين ملكنا وكان ملكنا يشكو من سوء معاملة صاحب مصر في تحصيل الخراج فاغتنم مجيء الخليفة وتقرب اليه بالهدايا من العاج والريش والرقيق وارسلني انا وأخى في جملة الهدية فجيء بنا الى هذه المدينة (الفسطاط) فقبل المأمون الهدية وفرق بعضها في رجاله واطلق بعض الارقاء وانا في جملتهم وكنت أحسبه يطلق أخي معي أو يأخذنا جميعاً لاني كنت شديد التعلق باخي لكنه لم يفعل فبكيت كثيراً وبعد قليل علمت بسفر المأمون الى الارياف وانه أخذ أخي معه ثم علمت انه سافر الى بغداد فشق علي ذلك ورجعت الى الملك وأقمت في خدمته ولا أزال . . . وما زلت منذ أتيت الفسطاط لا أسمع اسمها الا انقبضت نفسي فكيف اذا رأيتها . . »

فقالت « يحق لك الاسف يا عماه على ضياع أخيك . . . » ثم انتبهت لامر خطر لها فقالت « وما هو اسم أخيك ؟ »

قال « اسمه ابراهيم .. »

وهمت ان تستزيده ايضاحا فاذا هو ينظر نحو الاهرام نظر المتفرس وقد تغيرت سحنته فالتفتت فرأت القافلة قد تبعثرت واحاط بها شرذمة من الفرسان علمت من البستهم انهم من الجند فقالت « ويلاه ان الجند سطوا على القافلة »

فقال سمعان « قبحهم الله قد سطوا عليها وسلبوها ... ان الجند وضع لحماية السابلة وليس لقطعها .. اني أراهم يسوقون الرجال والاحمال جميعاً .. الافضل لنا أن نلتجىء الى مكان نختفي فيه لئلا يصيبك سوء ولوكنت وحدي مارضيت التخلف عن الرفاق ولكنني أفعل ذلك رغبة في صيانتك »

قال ذلك وتحول وهي تتبعه الى انقاض بناء قديم من بقايا الفراعنة وهي كثيرة هناك فترجلا وأدخلا الجملين الى مخبأ وجلسا على بعض الاحجار ودميانة ترتعد من الخوف وسمعان يخفف عنها ويشجعها الى ان قال « لاتخافي ان الجند لا يأتون هذا المكان وهم لم يرونا ولا أظنهم يريدون القبض على أي كان . . وبعد قليل تغرب الشمس ويخيم الظلام فنخرج خلسة فنمر من وراء الاهرام حتى ننزل الجيزة فنبيت في خان هناك ونصبح في الغد الى الفسطاط »

قالت « أخاف أن يلاقينا أحد من هؤلاء »

قال « لا تخافي . . قبل ذهابنا نتجسس الطريق ونتشوف فاذا رأينا أحداً اختبأنا »

قعدا في تلك الخربة وفيها الاساطين والتماثيل مهملة مبعثرة وكأن الجملين هالها المنظر فتهيبا فأخذا في الجعير وسمعان يسكتهما لئلا ينم جعيرهما على المكان . فوضع لها العلف يشغلهما به ولم يمض يسير حتى مالت الشمس نحو الافق فأخذت الاظلال تستطيل حتى اذا توارت الشمس اختلطت الاظلال وصارت ظلاماً فاستولت الوحشة على تلك الخرائب فلجأت دميانة الى الصلاة تستجير بالمسيح ومريم العذراء وأخذ سمعان يهتم بالانتقال من ذلك المكان لوحشته وانفراده وهو لايخلو من الحشرات السامة فضلا عما يعتقدونه من وجود الجان أو العفاريت فيه ولولا الايمان والصلاة لما اطاقا المكوث هناك لحظة فضلا عما قاسياه من العطش فان قرب الماء كانت محمولة مع القافلة وأخذت معها

فلما تكامل الظلام قال سمعان « هيا بنا نركب نحو الاهرام اني لا أرى شبحاً ولا أسمع صوتاً ولا ريب أن القوم رجعوا إلى الفسطاط »

فنهضت دميانة فاركبها جملها وركب جمله وربط زمام جملها برحل جمله بحيث تبقى هي في أثره

سارا على تلك الصورة مدة لا يتكلمان وقد تهيبا للسكوت التام المستولي على تلك الرمال وما يجاورها من المغارس فاذا التفت الناظر إلى يساره رأى الافق تعترضه التلال الرملية والصخرية أو الى يمينه فيرى البساتين الى النيل ووراءه المقطم وفي سفحه القطائع والفسطاط وعلى ضفتي النيل شجر النخيل يناطح السحاب. ولم تكن تلك الصخور واضحة لتغلب الظلام فكان الناظر اذا أرسل بصره الى الاغراس والاشجار والمنازل لم ير واضحاً منها الا أعاليها

الفصل الثالث والستون

شبح غريب

وكان سمعان وهو على جمله يتطاول بعنقه ويشخص ببصره ويتفرس فيما بين يديه مخافة أن يكون هناك متربص من اللصوص أو الجند فكان يرى أبا الهول والهرمين الكبيرين تقترب اليه وتنجلي صورها بالتدريج وهو يصيخ بسمعه فلا يسمع الا صوت وقع خفاف الجمل على الرمال وصوت شخيره أو تنفسه . حتى اذا اقتربا من ابى الهول أمسك سمعان بزمام جمله حتى يسير الهوينا. ولم يكد يتجاوز ابا الهول ويشرف على الهرم الكبير حتى رأى شبحاً يتسلق الهرم تسلق المتلصص الخائف وظهر له من قيافته انه من العامة ولم ير وجهه ليتبين سحنته . فلما رآه يلتصص أوقف الجمل فرأى الرجل توقف هنيهة ثم عاد الى الصعود فتأكد سمعان انه لا يخشى منه . فساق الجمل نحو الهرم المذكور حتى استقبل الجانب الذي رأى الرجل يتسلقه فرآه قد تحول نحوهما ونزل الى أسفل الهرم ووقف. فخطر لسمعان أن يسأله عن الماء ليتطرق من ذلك الى التفهم عن أحوال أخرى فقال له باللغة القبطية « من الرجل ؟ »

فاجاب « من أهل القرى ومن أنت ؟ »

قال سمعان « غرباء نطلب ماء هل تعرف مكانا فيه ماء بهذا الجوار ؟»

فتقدم ذلك الشبح وهو يقول « ان في هذا الجوار عيناً فيها ماء كثير تعاليا فادلكما عليها »

وكانت دميانة مصغية وهي تخاف ان يكون الرجل من طلائع الجند فلما سمعت صوته خفق قلبها واجفلت لانه يشبه صوت زكريا . فلما رأته مشى وتبعه سمعان صبرت لتسمع كلامه ثانية . فعاد سمعان الى سؤاله عن اقرب الطرق الى الفسطاط فقال « تنحدران من هذه الاكمة بين هذه المغارس الى الضفة فتجدان هناك جسراً من السفن المتحاذية تقطعانــ عليــه الى جزيرة الروضة ومنها على جسر آخر الى الفسطاط »

وكانت دميانة تسمع كلام الرجل وقلبها يزداد خفقاناً لانه صوت زكريا بعينه وتفرست في مشيته عن بعد فتحققت انه هو فلم تعد تعلم ماذا تقول من الدهشة والفرح فتجلدت وقالت « هل تريد أن ترافقنا في هذا الطريق يا عماه ؟ » قالت ذلك بصوت مختنق من شدة التأثر

فتعجب سمعان من تصديها ومن اختناق صوتها اما الرجل فلما سمع الصوت وقف والتفت الى دميانة والظلام يحول بينهما وكانت هي قد استعدت للتفرس فيه فلم يبق عندها ريب من أمره . وأما هو فاختناق الصوت شوش عليه حكمه لكنه اشتبه فقال « اني في خدمتكم الى حيث تشاءون فهل نذهب تواً الآن » واصغى ليسمع الجواب

فقالت « نشرب اولا ثم نسير الى دير المعلقة »

فلما سمع قولها دير المعلقة اقشعر بدنه وتراجع حتى أمسك بزمام الجمل وسمعان يستغرب رجوعه . أما هــو فامسك الزمام وقال « من أنت . . مولاتي .. دميانة .. دميانة ؟ »

فصاحت هي « زكريا ! . عماه زكريا . » وكادت للهفتها ان تقع عن الجمل فلما سمعها سمعان تذكر زكريا بهذه اللهفة ادرك انه خادمها الذي كانت تحدثه عنه فتحول عن الجمل واناخ جملها وساعدها على النزول فاكب زكريا على يدها يقبلها وكاد لولا الحياء ان يضمها اليه فقد كان يتلهف لرؤيتها ومع

ذلك فانه حسب نفسه في حلم اذ لم يخطر له وهو يحسبها أسيرة في ارض البجة أن يلاقيها في تلك الساعة الحرجة بجوار الاهرام . فاعاد السؤال والاستفهام وهي ايضاً فقال « سيدتي دميانة .. انت هنا اشكر المسيح على سلامتك كيف جئت . من انقذك ؟ »

قالت «لا تقل سيدي فانك عمي وهذا عم آخر انقذني من بلاد البجة وتكلف المشقة في ايصالي الى هذا المكان »

فصافحه زكريا وسلم عليه واثنى على فضله لكنه لم يتبينه لشدة الظلام ولم يكن سمعان أقل دهشة لهذه الصدفة فقال « الحمد لله قد انقضت مهمتي على اهون سبيل فاهنئكما بهذا اللقاء »

فقال زكريا « امكثا عند قاعدة الهرم وانا آتيكما بالماء تشربان ثم نسير الى الفسطاط معاً » قال ذلك ومضى . ثم عاد اليهما بالماء فشربا ودميانة تود ان تعرف ما تم لسعيد والحياء يمنعها عن السؤال فقالت « اين كان غيابك كل هذه المدة ؟ وكيف حالك »

فادرك غرضها فقال « ان حديثنا طويل سأقصه عليك . أما حالي فانه على غاية ما يرام والحمد لله وسيدي سعيد ينتظر مجيئك وهو على مثل الجمر وأهنئك بما ناله من الحظوة في عيني صاحب مصر فهو صاحب الكلمة النافذة والمقام الرفيع .. »

وكان زكريا يتكلم وقلب دميانة يرقص فرحاً ولما فرغ من كلامه سطت يديها نحو السماء وقالت اشكرك اللهم لانك حرسته وحفظته وقد حق علي وفاء النذور »

فقال سمعان «لا اقدر اصف لكما مقدار سروري بهذا اللقاء فان قلبي يكاد يطير فرحاً فاهنئكما بذلك واستأذنكما في المسير بطريقي »

فاعترضته دميانة قائلة « كلا يا عماه اني لا اسمح بذهابك على هذه الصورة ... ينبغي لي ان اكافئك على تعبك الجزيل .. »

قال «لا استحق المكافأة على شيء يا سيدتي وانا ذاهب الآن في مهمة لا بد لي من قضائها وسأعود بعدها اليكم »

قال زكريا « ان مهمتك يا أخي لم تفرغ بعـد وما أنا مطلق السراح لاكون في خدمتها »

فقالت دميانة « وكيف ذلك ؟ »

قال « اني سجين يا سيدتي »

قالت «سجين ! اني أراك حراً مطلقاً»

قال «ولـكني اتيت من السجن ولا بد لي من الرجوع اليه»

قالت « ترجع اليه من نفسك ؟ تكون حراً وتقيد نفسك ؟ »

قال « خرجت من السجن بضمانة رجل على أن آتي هـذا الهرم آخذ منه شيئاً أودعته فيـه وأعود الى السجن ولا بد لي من القيام بالوعد »

قالت « صدقت ان وعد الحر دين . . ولـكن كيف حبست ولماذا ؟ اني لم افهم ما تقول »

قال «حديثي طويل سأقصه عليك في أثناء الطريق واستأذنكما الآن في الصعود الى باب هذا الهرم ثم أعود »

فاذنا له فصعد ثم عاد وقال « هيا بنا الى اسفل هذه الاكمة ان حماراً لي ربطته هناك فاركبه ونسير معاً »

فنزلوا حتى ركب حماره ومشى بين الجملين وأخذ يقص ماجرى له بعد فراق دميانة في حلوان وكيف ذهب الى بيت ابيها وأخذ منه اسطوانة حتى ذهب الى دير أبي مقارومقابلة البطريرك مخائيل وكتابه الى ملك النوبة وكيف انه وضعه في الـكيس مع الاسطوانة وكيف خانه ذلك اليهودي وأتى بالجند قبضوا عليه فخبأ الـكيس بباب الهرم وحمل الى السجن . وبعد قيامه في السجن حيناً توصل الى مخابرة سعيد واخبره عن الـكيس وانه يريد ان يأتي به فتوسط له عند السجان بالخروج على ان يعود الى السجن في تلك الليلة ـ الى ان قال « فاتيت خلسة لاستخراج الـكيس من باب الهرم فرأيتـكما وخفت ان تكونا عيناً علي وجرى ما تعلمانه . ثم ذهبت الى باب الهرم واتيت بالـكيس وهو معلق بعنقي تحت أثوابي . . . وانت كيف

تخلصت من الاسر ؟ »

فقصت عليه حديثها الى آخره وأطنبت بمكارم اخلاق العم سمعان .
وكان هذا لما سمع حديث العم زكريا وما يتخلله من كلام البطريرك مخائيل عن مخالفته ملك النوبة في اخراج مصر من حكم المسلمين الى حكم الروم قد فترت همته عن الذهاب اليه ولكنه أراد زيادة الاستفهام فقال «بالحقيقة انك قاسيت كثيراً في ذهابك الى دير ابى مقار . هل البطريرك هناك الى الآن ؟ »

قال « سمعت انه قادم الى الفسطاط لمقابلة صاحب مصر ابن طولون »

قال « واين كتابه الى ملك النوبة ألا يزال معك ؟ »

قال « هو في الحقيبة (الكيس) مع الاسطوانة»

قالت دميانة « أراك كثير العناية بهذه الاسطوانة حتى عرضت نفسك للخطر من أجلها . فما الفائدة منها ؟ »

قال « ستعلمين ذلك بعد حين »

وكانوا يتحدثون والركائب ماشية حتى وصلوا الى جسر الجيزة فعدوا عليه الى الروضة ومنها الى ضاحية الفسطاط عند بابلون قرب دير المعلقة . فلما صاروا هناك قال زكريا «لا بد لي من الذهاب الى السجن الآن فاين تمكثان ريثما نرى ما يكون ؟ »

قالت دميانة « انا افضل النزول في هذا الدير »

فقطع كلامها قائلا «لا يوافق ذلك لان اهله يعرفونك فاخاف ان ينقلوا خبرك الى الاسقف المعهود أو والدك او الى اسطفانوس فيسعون في ضررنا والافضل ان تنزلي في كنيسة بابلون بهذه المحلة باعتبار انك من بعض أهل القرى ومعك خادمك هذا ريثما آتيكما »

فاستحسنت رأيه فمضى بهما الى دير بابلون وادخلهما فيه واسرع الى السجن

الفصل الرابع والستون

سعيد

وكان زكرياقدخرج من ذلك السجن خلسة بايعاز سعيد الى السجان. والسبب في هذا التوسطان زكريا سعى ثاني يوم سجنه في الوصول الى سعيد وقد علم انه صار من أهل النفوذ بعد أن أخذ في بناء الجامع فانفذ خبره اليه فبعث يسأله عن أمره فتواعدا على المقابلة بجانب السجن والسجان لا يرى بأساً في ذلك اكراما لسعيد. فاطلعه على ما جرى له وانه بعد ان اتى بكتاب التوصية الى ملك النوبة خبأ الكتاب والاسطوانة في مدخل الهرم الكبير. وقص عليه أهمية الاسطوانة بالنظر الى مصلحة دميانة. فاخذسعيد يبحث مع زكريا عن السبيل المؤدي الى انقاذ دميانة من البجة إما رأساً وهو أمر شاق لا وجه له وإما على يد ملك النوبة واتفقا أخيراً على أن يذهب زكريا لاستجلاب الاسطوانة وتوصية ملك النوبة يجعلهما عند سعيد ريثما يسعى في الافراج عنه فينفذه في هذه المهمة الى ملك النوبة. فاستأذن السجان في خروجه في أصيل ذلك اليوم على أن يعود نحو العشاء. وتواعدا ان يأتي زكريا أولا الى منزل سعيد في قصر له باطراف القطائع فيضع تلك الامانة عنده ثم يذهب الى السجن

فلما رجع بعد مفارقة دميانة وسمعان فى ذلك الليل سار يلتمس منزل سعيد أولا كما تواعدا فوصله فوجد الباب مفتوحاً فدخله على غير ريبة ولم يعترضه أحد حتى أتى الغرفة التي يقيم فيها سعيد وكان مشتغلا ببعض الرسوم يعدها لهندسة الجامع وقد استبطأ زكريا فلما أعلموه بوصوله خف لاستقباله وسأله عن سبب غيابه فلم يدر زكريا كيف يبدأ الحديث لفرط لهفته وكان السرور باديا في حركاته وسكناته وقد ذهبت السوداء التى كانت تغلبت عليه. فلم يمهله سعيد ان قعد فابتدره قائلا « لقد ابطأت عن الموعد وأنت

تعلم اني ضمنت للسجان رجوعك عند العشاء ونحن الان في منتصف الليل ولايخفى عليك أن الشكوك والظنون محيطة بنا من كل ناحية . . »

وكان زكريا يسمع قوله ويضحك كانه لايبالى بما يحدق به من الخطر فاستغرب سعيد استخفافه بالامر فقال مابالك تستخف بما أقول ألعل تلك الاسطوانة أسكرتك من الفرح . . »

قال « كلا ليس الاسطوانة بل دميانة . . »

فاجفل وصاح فيه «دميانة !. دميانة.. ماذا تعني.. مابالها .. اين هي ؟»

قال « دميانة هنا »

فلم يتمالك أن وقف فجأة وصرخ « دميانة هنا . اين . . اين هي . . اين؟ وهم بالخروج من الغرفة وهو يحسب دميانة في الدار فاستوقفه زكريا وقال «طول بالك . . . ليست في هذا المنزل وانما هي في هذا البلد . هي قريبة جداً من هذا المكان دعنا منها الان »

فنظر اليه وهو يتفرس في ملامحه وقد حسبه يمزح وقال «قل الصحيح يازكريا أين دميانة ؟ . . »

قال « قلت لك انها قريبة من هذا المكان ولكن لا سبيل اليها الان وستأتى عند الاقتضاء وفي الوقت المناسب »

قال « الآن . . اين هي ؟ »

فنظر فيه نظر الجد وقال « تربص ياسيدي حتى نتخلص من السجن وعند ذلك أجمعك بدميانة وهذه هي الاسطوانة » واستخرج الجراب أو الكيس من تحت إبطه واستخرج منه الاسطوانة والكتاب وقال « هذه الاسطوانة التي أخبرتك عنها وهذا هو كتاب البطريرك مخائيل الى ملك النوبة احتفظ بهما عندك لحين الحاجة »

فتناول سعيد الاسطوانة وأخذ يقلبها بيده وهي مختومة وتناول الكتاب. وبينما هو يقلبه سمع دبدبة في صحن منزله وقد علا صياح الخدم يستغيثون فخرج ليرى السبب فرأى شرذمة من الجند دخلوا المنزل وفي مقدمتهم رجل يقول « هذا هو اللص اقبضوا عليه » وأشار الى زكريا واكب على

الاسطوانة واراد اختطافها من يد سعيد وهو يقول « وهذه هي الاوراق المسروقة » فقبض سعيد على الاسطوانة وجذبها نحوه وعرف ان الرجل الذي يكلمه اسطفانوس فانتهره قائلا « اذهب في سبيلك يا غلام ولا تطمع نفسك بشيء من ذلك » فصاح أحد الاجناد قائلا قد أتينا بامر الوالي للقبض على هذا السجين الهارب وما معه وهذه الاسطوانة وهذا الكتاب كانا معه فينبغي ان نأخذهما ونأخذه الى السجن وفي صباح الغد ينظر الوالي في أمره »

فقال سعيد « خذوا الرجل الى سجنه وأما هذه الاشياء فانها محفوظة عندي لحين الحاجة اقدمها بين يدي الوالي أو القاضي »

فصاح اسطفانوس « بل نأخذها الآن وان أبيت أن تعطينا اياها فان هذا الجند يأخذك انت ايضاً الى السجن لانك واطأت السارق على الخروج من السجن وساعدته على اخفاء السرقة . . »

وقبل ان يتم كلامه رفسه سعيد برجله فالقاه في الخارج وصاح برجال قصره ان يخرجوه من المنزل والتفت الى عريف الجند وقال له « لا يغرنك كلام هذا الغلام الجاهل بل اصغ الى ما اقوله لك . . كنت عازما ان اسلمكم السجين تأخذونه الى سجنه وقد رأيت الآن ان احتفظ به هنا عندي الى حين الطلب فمن كان له عليه طلب يطلبه مني »

فلما سمع العريف الكلام الجد من سعيد تهيب وخرج ومعه اسطفانوس يصيح ويهدد ويتوعد ولما صار خارج البيت قال للعريف « اشهدوا ان اللص والسرقة عند صاحب هذا القصر »

وكان مرقس قد كاشف اسطفانوس بسرقة الاسطوانة وافهمه انها اذا وقعت بيد دميانة قضت على ثروته ومستقبله ووعده خيراً اذا قدر ان يحصل عليها . فاخذ اسطفانوس يراقب حركات الذين حوله فعلم بمجيء سعيد ومخاطبته وبالاذن في خروجه لكنه لم يره ساعة الخروج وانما علم انه ليس في السجن وانه سيعود اليه بعد ان يمر ببيت سعيد فاستخدم اسم والده بغير علمه باعداد شرذمة من الجند ترابط قرب بيت سعيد فاذا دخل زكريا المنزل قبضوا عليه

واتهموا سعيداً بالاشتراك معه وسارهو معهم لعله يقدر ان يختطف الاسطوانة ويخفيها ثم هو لا يهمه شيء وقد اخرج هذا التدبير الى حيز الفعل لكنه لم ينجح في القبض على الاسطوانة ولا على السجين ورجع مخذولا يبكي من غيظه وسار تواً الى مرقس وقص عليه ما جرى واستحثه على التشكي من سعيد لانه خالف القوانين باخراج اللص من السجن ثم هو أبى تسليمه الى الجند . وفوق ذلك انه مواطىء للبطريرك مخائيل على مساعدة ملك النوبة لاخراج مصر من ايدي المسلمين وارجاعها الى ملك الروم . وان كتاب البطريرك الى ملك النوبة موجود مع الاسطوانة عند سعيد وذلك يغني الحكومة عن اقامة الرابطة يقبضون على القوافل الآتية من النوبة لعلهم يعثرون فيها على مكاتبة كما فعلوا بقافلة الامس

وفي صباح اليوم التالي ركب مرقس حماره الى القطائع وطلب الدخول على المعلم حنا كاتب المادراني والد اسطفانوس فسلم عليه ثم قص عليه أمره وطلب اليه ان يساعده في حمل الوالي على مقاصة سعيد لجسارته وتعديه لانه ساعد السارق على اخفاء السرقة

ولم يكن المعلم حنا يجهل أسباب تلك المخاصمات ولكنه كان في شاغل عنها بمنصبه وأعماله ولم يكن ابنه اسطفانوس يجسر على مخاطبته بشأن من الشؤون وقد رأيت لما كلفه ان يخطب دميانة له انه كان اول من زهد اباها به فلما سمع شكوى مرقس قال له « هذا القضاء موجود ارفع شكواك الى القاضي وهو ينظر فيها ولا يضيع حقك »

فقال « ولكن ربما انحاز القاضي الى سعيد لانه حائز على رضى الوالي اليوم فلا ينصفنا »

قال « القاضي غير متهم فاذا كانت دعواك حقاً نلت حقك منها » قال ذلك وحول وجهه يتظاهر بالاهتمام بامور اخرى

فقال مرقس « يظهر انك لم تهتم بهذا الامر فربما كان من قبيل المسائل الخصوصية ولكن سعيداً وزكريا مشتغلان بمؤامرة ضد دولة المسلمين فهم يساعدون البطريرك مخائيل في ايصال كتبه الى ملك النوبة لقلب دولة المسلمين

واعادة البلاد الى ملك الروم وقد قبض الجند على كتاب عندهما من البطريرك المذكور الى ملك النوبة . وأراد الجند أن يأخذه منهما فابى سعيد تسليمه ولكنه قال إن الكتاب عنده مع الاسطوانة يقدمهما عند الحاجة »

فمل المعلم حنا من هذا الحديث وقد ساءه سعي مرقس في هذه الوشايات لكنه استنكف أن يقول له ذلك في وجهه فتلطف وقال « اذا كان عندك مثل هذه البيانات فاطلب الرجل فيقع تحت طائلة القصاص »

فخرج مرقس خجلا ولقيه اسطفانوس خارجا فاستحيا من الاعتراف بما ناله من الخجل لاستخفاف المعلم حنا باقواله فقال « ان والدك اشار على باقامة الدعوى »

فقال « معلوم . . وها انى ذاهب لاشتكيه » وكان اسطفانوس مسموع الكلمة عند ارباب المناصب اكراماً لوالده فرفع المسأله الى القاضي باسم مرقس بحجة ان الخادم زكريا الذي كان قد سجن بتهمة سرقة بيت سيده خرج من السجن خلسة بمساعدة سعيد المهندس الفرغاني ولما ذهب الجند للقبض عليه طردهم سعيد وأهانهم ولم يسلم السارق

فلما طلب من القاضي النظر في هذه القضية استدعى المتهمين فجاء سعيد وقال «اني أطلب ان تنظر دعوانا بين يدي الوالى نفسه لان المسألة ذات شأن »

الفصل الخامس والستون

المحاكمة

فلم يسع القاضي الا اجابة الطلب فرفع الامر الى ابن طولون بنوع خصوصى فطلب ابن طولون حضور الجميع في غرفة خاصة من قصره فحضر مرقس وزكريا وسعيد فامر لهم ابن طولون بالجلوس وهو يتفرس في وجوههم فتذكر انه شاهد زكريا مرة قبل هذه فقال ابن طولون « باي

لسان تتداعون » فقالوا « بالعربية فاننا نفهمها جميعاً » فقال « من منكم المدعي » فوقف مرقص وقال « انا يا مولاي »

قال « وما دعواك ؟ »

قال « لي دعوى خصوصية على هذا الخادم النوبي وقد اطلعت على دسائس ذميمة سعى فيها ضد ولي أمير المؤمنين مولانا الامير وساعده على ذلك المهندس الفرغاني »

فالتفت ابن طولون الى سعيد وتفرس فيه تفرس عتاب فرآه مطمئن البال لم يتغير مطلقاً وكان بين يدي ابن طولون كاتب امره ان يدون دعوى المعلم مرقس ثم قال له « قل لنا اولا ماهي دعواك الخصوصية على هذا الرجل »

قال « انه كان خادما في منزلي فغافلني في أثناء غيابي عن طاء النمل وسرق كثيراً من نقودي واوراقي وفي جملتها اسطوانة فيها اوراق خصوصية مختومة لا يجوز فتحها »

فالتفت ابن طولون الى زكريا فرآه مطرقاً متأدباً فقال « ما تقول يا رجل ؟ »

قال « أنا اعترف يا مولاي اني سرقت من منزله هذه الاسطوانة (واخرجها من جيبه) ولم اسرق شيئاً آخر ولا أظنه يستطيع اثبات السرقة علي »

فلما رأى مرقس الاسطوانة في يد زكريا مد يده ليأخذها منه فامتنع عن تسليمها اياه ودفعها الى ابن طولون وقال « ان لهذه الاسطوانة حديثاً سنصل اليه في أثناء الدفاع فتبقى مع مولانا الامير »

فرجع مرقس مقهوراً وزاد غضباً لنفسه فقال ابن طولون « وما الذي اطلعت عليه من دسائس هذا النوبي علينا »

قال « لما سرق هذه الاسطوانة وغيرها من منزلي فر الى دير أبي مقار فأرسلت في أثره رجلا تعقبه فعلم انه حمل كتابا من البطريرك مخائيل الى ملك النوبة جواباً على كتاب جاء من ذاك يحرضه فيه على السعي في إخراج مصر من حكم المسلمين وارجاعها الى ملك الروم »

فلما سمع ابن طولون هذه الشكوى اعتقد صدقها لانه سمع بذلك من قبل واراد ان يكون البحث فيها بحضور البطريرك نفسه فقال « وقد علمت ان البطريرك مخائيل نزل الفسطاط بالامس والاولى بنا احضاره ليكون الكلام في حضوره » وصفق فجاء غلام أمره أن يدعو البطريرك مخائيل في تلك الساعة الى الجلسة لتأدية الشهادة

فتقدم زكريا عند ذلك وقال « لا يزال بعض المدعى عليهم غائبين فاذا استحسن مولانا أن نستقدم الباقين فعل »

قال « ومن أيضاً ؟ »

قال « ابنة المعلم مرقس هـذا فانها شريكة معي في سرقة هـذه الاسطوانة »

فقال «من يحضرها ؟ »

قال « انا احضرها »

وكان لهذا الكلام وقع السهام في قلب مرقس فاراد المعارضة في احضارها فقال «لا يا سيدي اذا ذهب لا يرجع فانه سريع الهرب »

قال زكريا « يرسل مولاي من شاء من الخفر يحرسوني حتى أعود فان الفتاة على مقربة من هذا المكان »

فامر ابن طولون بعض الحراس يرافقونه ويأتون به ومكث الامير وسعيد ومرقس في انتظار مجيء البطريرك ودميانة . وابن طولون في اثناء ذلك يردد في خاطره ما سمعه من مشاركة سعيد في الدسائس على الدولة فنظر اليه وقال «سعيد .. ألم نرفع قدرك ونجعلك من خاصتنا ؟ »

قال «ومن ينكر ذلك ؟ اني غارق في نعم مولاي الامير وحاشا لله ان اسعى في غير خدمته »

قال « فالمعلم مرقس كاذب فيما يقول ؟ »

قال « سيظهر ذلك قريباً يا سيدي . . وهذا هو الكتاب الذي يزعم المعلم مرقس ان زكريا حمله من البطريرك مخائيل الى ملك النوبة »

قال ذلك ودفع الكتاب مختوما الى ابن طولون فوضعه بين يديه بجانب

الاسطوانة واراد فضه فأجل ذلك الى حضور البطريرك

وبعد قليل جاء الغلام قائلا ان البطريرك بالباب فامر بدخوله فدخل وعليه لباسه الرسمي وقد بدت البغتة في وجهه فوقف له الحضور وابن طولون أيضاً ودعاه الى الجلوس على كرسي بجانبه فجلس واول شيء وقع بصره عليه كتابه الى ملك النوبة بين يدي ابن طولون فاستغرب ذلك والتفت فوجد المعلم مرقس وكان يعرفه ويعرف قصة ابنته مع اسطفانوس وكذلك سعيد

الفصل السادس والستون

كشف السر

ولم يكد يستقر البطريرك في مجلسه حتى دخل الغلام ينبيء بمجيء زكريا ودميانة فدخلا وفي أثرهما سمعان النوبي وقف في بعض اطراف القاعة . فلما وقع نظر البطريرك على زكريا ودميانة ادرك بعض الغرض من حضوره فأول من تكلم ابن طولون فوجه كلامه الى البطريرك لان مسألته اعظم أهمية عنده من سواها فتناول كتابه بيده ووجهه نحوه وقال « اليس هذا الكتاب منك ؟ »

فنظر البطريرك في الكتاب وقال « بلى »

قال « أليس خاتمك عليه ؟ »

قال « بلى يا سيدي »

قال « هو الى ملك النوبة تخابره فيه بشأن اخراج هذه البلاد من حوزة المسلمين »

قال « نعم يا سيدي »

قال « ألهذا الحد بلغ من أمرك ان تواطيء عدونا علينا ؟ »

فتبسم البطريرك وقال « ان الامير يطالبني بما سمعه من الوشاة ..وهم لسوء الحظ من ابنائي ورعيتي .. فقد قالوا اني خائن واني اخابر وادس الدسائس وقد قبضوا على كتابي هذا على غير علم مني فما على الامير الا ان

يفضه ويأمر بتلاوته وعند ذلك يعرف الحقيقة فاما ان أكون خائناً استحق ما ضربتموه علي من الاموال التي أثقلت كاهلي أو أكون بريئاً والامر بعد ذلك للامير «قال ذلك وقد بدا التأثر في عينيه وشفتيه وصارت لحيته ترقص في صدره

فرآه ابن طولون يقول الحق ويطلب العدل فقال « صدقت » وأشار الى الكاتب بين يديه وقال « انت تقرأ القبطية ؟ »

فوقف الكاتب وقال « نعم يا سيدي »

فدفع اليه الكتاب ففضه وأخذ يقرأه ويترجمه والكل ساكتون يسمعون وهذا فحواه :

« ولدنا بالروح فيرقي ملك النوبة »

وصلنا منك عدة كتب تدعونا فيها الى خلع طاعة حكامنا المسلمين والرجوع الى سلطة الروم . ولو كان الروم خيراً لنا من سواهم ما خرجنا من طاعتهم ورضينا أن يحكمنا أي كان غيرهم . وهؤلاء العرب قد تعودناهم وتعودونا وهم خير لنا من اولئك . لا انكر عليك ان بعض الولاة المسلمين كانوا اهل ظلم وشدة ساموا أبناءنا الاقباط أنواع العذاب ولكنهم على الاجمال اهل عدل ورفق وخصوصاً اميرنا الحالى احمد بن طولون فانه ما انفك منذ تولى مصر وهو يرفع المظالم ويكف الاذى عن طائفتنا . على انك لو تدبرت ما لحقنا من الاذى في عهد هؤلاء العرب لوجدت الحق علينا نحن لفساد نياتنا وانقسامنا فيما بيننا نتهم بعضنا بعضاً ويشي بعضنا ببعض لضغائن في الصدور . واقرب شاهد وقع معنا ان بعض الاساقفة قصر في واجباته الكنسية فحرمته فلكى ينتقم لنفسه وشى الى الوالي اني صاحب أموال واشار عليه ان يطالبني بالاموال اللازمة للدولة فضربوا علي ضرائب يعلم السيد المسيح اني عاجز عن نصفها وربعها ولكن الوالى لا يصدق قولى . . هذا مثل ضربته لك فاعتبر به ورأيي ان نقنع بالرضوخ لحكامنا هؤلاء فهم خير لنا من سواهم واذا وجدنا فى بعضهم عيباً فقد كان في ولاة الروم قبلهم ما هو أشر وادهى . وفي الختام أهديك

البركة والدعاء ونطلب الى المولى ان يصلح نياتنا ويجمع قلوبنا فتحسن معاملة حكامنا لنا والسلام »

كان الكاتب يقرأ ويترجم والحضور يسمعون والبطريرك مطرق ينتظر النتيجة . ولم يأت الكاتب على آخر الكتاب حتى انبسط وجه ابن طولون بعد أن كان منقبضا فالتفت الى البطريرك وقال « لقد أسأنا عشرتك وسمعنا الوشاية فيك.. والله لو كان كل ابناء طائفتك على رأيك لكانوا أسعد حالا وأنعم بالا فوجب علينا التخفيف عنك وقد اتت هذه الشكوى لك لا عليك »

قال « هذه ارادة الرب »

فالتفت ابن طولون الى مرقس وقال « هذه دعوى يا معلم قد سقطت فأين هي الاخرى »

فوقع مرقس في حيرة لكنه اراد التخلص وتحويل الموضوع فقال « ان أبانا البطريرك قد تبرأ بنص كتابه ولكن حامل الكتاب حمله وهو لا يعلم فحواه وكان ينبغي له ان يأبى نقله ولكنه نوبي يخدم مصلحة ملكه ولو علم ان الكتاب بهذا المعنى لم يحمله »

فقال ابن طولون « الواقع ان الكتاب بهذا المعنى وقد حمله وليس في حمله الا خدمة لحكومة المسلمين جزاه الله عنا خيراً . . وبعد ذلك نرجع الى مسألتك الخصوصية لا بأس من فصلها بحضور البطريرك »

فقال زكريا « بل حضور غبطته ضروري لها »

فتغيرت سحنة مرقس وبدا الاضطراب عليه وتاعثم لسانه والحضور يصغون لسماع دعواه ولما أبطأ ولم يتكلم تقدم زكريا فقال « استأن سيدي الامير ان أنوب عن المعلم مرقس بالكلام »

فقطع مرقس كلامه قائلا « من أنابك عني ؟ انا اتكلم عن نفسي »

فسكت زكريا وتراجع ودميانة واقفة وقلبها يخفق شفقة على ابيها وطال سكوت مرقس فقال زكريا « المعلم مرقس شريك في الدعوى اذا أمر الامير باحضاره »

قال « من هو ؟ »

قال « اسطفانوس بن المعلم حنا كاتب الخراج »

فامر ابن طولون باحضاره وما عتم ان حضر فاوقفوه بجانب المعلم مرقس . وهذا لم يفتح عليه بالكلام واعتذر أخيراً بالم أصابه فنعه من التكلم . فامر ابن طولون باجلاسه والتفت الى زكريا وقال « قل يا أسمر ما تعرف من امر هذه القضية ؟ »

فتقدم زكريا وتناول الاسطوانة بيده وقال «ان الخصام كله على ما في هذه الاسطوانة . وما فيها غير رق مكتوب في مصلحة هذه العذراء الطاهرة وهي ياسيدي ابنة المعلم مرقس ماتت والدتها وهي طفلة وكان لها عرابة بمثابة الوالدة وكانت غنية غنى فاحشاً واظنكم تعرفونها اعني ماريا القبطية صاحبة قرية طاء النمل التي مر بها الخليفة المأمون عند زيارته مصر وضافها وبالغت في إكرامه . وكان المأمون لما ضافها أهدى اليها بعض الجواري والخصيان وفي جملتهم أنا فقد كنت خصياً حملت اليه هدية من ملك النوبة مع خصيان آخرين . . وربيت في منزلها وكان اسمي ابراهيم فسمتني زكريا . فلما ولدت امرأة المعلم مرقس هذه الفتاة سمتها دميانة على اسم القديسة دميانة وكانت مارية نيح الله روحها تعرف اسراف هذا المعلم فارادت ان تضمن مستقبلها فوهبتها قرية طاء النمل هذه وقرى أخرى في تلك الجوار وكتبت بذلك صكا مسجلا حفظته في هذه الاسطوانه » قال ذلك واستأذن ابن طولون بفض الختم فاذن له ففضه واستخرج رقاً مكتوبا بالقبطية ودفعه الى الكاتب وطلب اليه ان يتلو خلاصته بالعربية فتلا :

« ان ماريا القبطية وهبت ابنتها بالروح دميانة بنت المعلم مرقس قريتها طاء النمل كلها وما يلحقها من المغارس . وتبقى هذه القرى تحت مناظرة أبيها ولايحق له أن يبيع منها شيئاً . فاذا بلغت ابنته رشدها وتزوجت صارت هذه القرى لها ملكا خاصاً ليس لابيها شيء منها .. ألخ »

وكان الحضور يسمعون ما يتلوه الكاتب وعيونهم على مرقس وهو مطرق والعرق يتقطر من وجهه . وصدره يعلو ويهبط من النفس الثقيل الذي اعتراه فلما فرغ الكاتب من القراءة قال ابن طولون « أليس ثمت

من شهود ؟ »

قال الكاتب « نعم يا سيدي اني أقرأ اسمي مخائيل ومنقريوس »

فقال البطريرك « ان مخائيل اسمي وكنت لا أزال اسقفا نعم أشهد ان مارية القبطية وهبت هذه الفتاة هذه القرية . وأما منقريوس فانه قسيس طاء النمل وهو حي هناك »

فقال ابن طولون « نكتفي بشهادتك » والتفت الى زكريا وقال «هل فرغت من حديثك يا أسمر ؟ »

قال « كلا يا سيدي .. لا أزال في أول الحديث هل أتمه ؟ »

وكان ابن طولون قد توسم الصدق في لهجته فاصبح مستعداً لتصديق كل ما يقوله فقال له « أتمه »

قال « ونظراً لرغبتها في رعاية هذه الفتاة جعلتني في جملة الهبة وامرتني ان أبقى في خدمة دميانة حتى تشب وتتزوج وبالغت في الوصية فاطعتها ولازمت البنت من طفولتهـا ولا أزال الى الآن وسأبقى ما بقيت حياً . . فنشأت الفتاة على تربية حسنة غرستها فيها والدتها رحمها الله فانها كانت تقية طيبة العنصر فنشأت ابنتها مثلها تحب الصلاة والعبادة وفيهـا ميل الى البر والاحسان وبلغت هذا السن (وأشار اليها) ولم تعلم بما في هذه الاسطوانة لان والدها كان يبالغ فى اخفائها عنها وأنا صابر لعله يحسن معاملتها. فرأيته بعد انماتتزوجته الاولى والدة دميانة عكف علىالتسري واقتناءالجواري وتعاطي المسكر والانغماس في القصف والزهو والبنت تكره ذلك فيه وهو لا يلتفت اليهـا . وأخيراً أراد ان يزوجها بشاب على شاكلته هو هـذا (وأشار الى اسطفانوس) تبركا بمنصب والده مع ان والده يتبرأ منه ولـكنه تواطأ معه على اخفاء أمر الوصية والتمتع بالاموال معه وكلاهما سكير ومجان »

فلما وصل الى هنـا تنفس الصعداء ليستريح ثم تحول نحو سعيد فامسكه بيده واتم حديثه قائلا « وأما الفتاة فعرفت هذا الشهم ولا أزيدكم تعريفاً بمناقبه وكان مقيما عند جارهم أبي الحسن البغدادي وتواعـدا على الاقتران

وكان هو مشتغلا بحفر العين بالمغافر . فعلم اسطفانوس بذلك وخاف اذا نجح سعيد بحفر العين ان يعظم في عيني الامير ويأخذ دميانة كرهاً فكاد له كيداً لا يرتكبه أعظم الاشرار . . أوصى بعض رجاله ان يضع قصرية الجير في المكان الذي يعلمه الامير حتى حدث ما حدث من اجفال جواده ووقوعه وظن يومئذ مولاي ان ذلك من سعيد فامر بضربه وسجنه ثم أطلق سراحه لاجل بناء الجامع. وهل يتذكر الامير اني ذكرت له اسم سعيد وانه اقدر من يبني الجامع كما يريده ؟ »

فهز ابن طولون رأسه ايجاباً

فعاد زكريا الى الكلام قائلا « وبعد أن أوقعوا سعيداً في الفخ أرادوا اكراه الفتاة على الزواج باسطفانوس ولم يطعني ضميري على ذلك وأنا عالم بالحقيقة ففرت بها لخبأتها في حلوان وذهبت فسرقت هذه الاسطوانة لاطالب بحق الفتاة. ولما رجعت الى حلوان رأيت الفتاة قد أخذها البجة سبية فرأيت أن أوسط أبانا البطريرك . في استنجاد ملك النوبة على البجة فسرت اليه في دير أبي مقار فحملني هذا الكتاب وفي ذيله وصيته بي ليساعدني . فحملتها ورافقني جاسوس أرسله هذا المعلم في أثري كما قال ولما وصلت الى الاهرام استنجد رجالا للقبض علي فلما تحققت وقوعي في قبضتهم أخفيت الاسطوانة والكتاب في مدخل الاهرام. وقبضوا علي وسجنوني ثم احتلت في الخروج بواسطة مولاي سعيد المهندس لاستجلاب الكيس فعثرت بالصدفة على مولاتي دميانة ومعها هذا النوبي (وأشار اليه) وهو الذي انقذها من بلاد البجة . وعلم هؤلاء بخروجي فاحتالوا بالقبض على الاسطوانة فلم يفلحوا وأرادوا الشر فعاد عليهم . وأنا لا غرض لي في كل ما تقدم الا القيام بالمهمة التي عهدت الي فقد تعهدت ان أخدم هذه الفتاة واراعي مصلحتها وقد بذلت جهدي في ذلك والامر لمولانا »

قال ذلك وتراجع ووقف والجميع سكوت كأن على رءوسهم الطير ينتظرون ما يبدو من الحكم

فاذا بابن طولون يقول « ان حديثك يا أسمر مع طوله لا يمل لقد

كشفت عن خفايا كثيرة » والتفت الى مرقس واسطفانوس وقال « هل تدافعان عن نفسيكما ؟ . »

وكان مرقس مطرقا يكاد يذوب خجلا وقد ارتج عليه اما اسطفانوس فعظم عليه السكوت فقال «ان التهمة التي وجهها الي هذا النوبي لا دليل على صحتها . وكيف يتأتى لي ان أدس قصرية الجير ؟ »

فتقدم زكريا وقال«انا لا أقول اني شاهدتك تفعل ذلك ولكنني استدل من قرائن كثيرة انك انت الفاعل .. »

فقطع ابن طولون كلامه قائلا « أنا أيضاً أؤيد هذا القول بدليل تذكرته ... تذكرت الآن بعض الناس من أبناء طائفتك ولعلهم من اهلك كانوا يتبجحون عمل هذا المهندس لدي ويبغضونه الي بكل وسيلة وأنا اسمع أقوالهم باخلاص فلما أكبا جوادي في قصرية الجير جعلوا ان سعيداً فعل ذلك عمداً ليقتلني فصدقتهم وأسأت معاملة هذا الصادق (وأشار الى سعيد) وهو أولى بالمكافأة واني أشكر زكريا لانه كان وسيلة لاخراجه من السجن وبارشادي الى مقدرته في فن الهندسة .. بارك الله فيك ولله درك من خادم أمين نصوح .. »

وكان البطريرك مصغياً فلما سمع قول ابن طولون هز رأسه متعجبا وهو يمشط لحيته بأنامله وقال «سبحان الله .. ان الضرر لا يأتينا الا منا..يسيء بعضنا ببعض ويفسد بعضنا أعمال بعض ..»

فصاح اسطفانوس «ان هذا الشاب (وأشار الى سعيد) لطمني ورماني في صحن الكنيسة ليلة الاحتفال بعيد الشهيد فاغضيت عنه ولم أرد أذيته فكيف أسعى ضده ؟ »

فقال زكريا «أغضيت عن عجز ولو استطعت قتله ما تأخرت ولكنك جبان خسيس »

فصرخ اسطفانوس « تهينني في حضرة الامير وأنت خصمي القديم ؟ »

فأشار ابن طولون فسكتا فقال هو « لا حاجة الى المدافعة فان ادعاءك

ان سعيداً ضربك مع ما ظهر من خلالك يؤكد لنا انك تعمدت أذاه بوضع قصرية الجير »

الفصل السابع والستون

على الباغي تدور الدوائر

وكان مرقس يسمع ما يقولون وينتظر فرصة يتخلص بها الى الكلام ليغطي خجله فلما رأى التهمة ثبتت على اسطفانوس وجه كلامه اليه وقال « اسكت يا اسطفانوس بالحقيقة انك لئيم الطبع فقد خدعتني كما خدعت سواي فانا أشهد انك تعمدت الاذى لجارنا وولدنا سعيد — اردت بذلك ان تتخلص منه لتبقى دميانة لك .. هذا هو الصحيح »

فلما سمع اسطفانوس هذه الشهادة ضده من زميله وصديقه وشريكه بكل سيئاته حمي غضبه وقال له « اتزعم ذلك وأنت الذي اغريتني عليه وكم حببت الي الزواج بابنتك وأنا أقول لك انها لاتحبني فابيت الا ان ازوجها. لا لسبب غير طمعك بمالها »

فقال مرقس «هذا غير صحيح .. » وضحك ضحكة استخفاف وقال «طمعاً بمالها ... أليس مالها ومالي سواء »

قال « أو تضحك أيضاً ؟ وتقول ان مالك ومالها سواء ؟ ألم تخبرني بهذه الوصية وتشترط علي اذا تزوجت الفتاة نكون شركاء بالورثة وهي لا تعلم بها ؟ أنت أغريتني وغششتني ... وأطمعتني بابنتك وما كان أغناني عنها فانت وحدك سبب هذا الشقاء ... لتتمتع بالملذات والشهوات » قال ذلك وقد بح صوته وخرج من طور العقل لشدة الغضب

فانتهره ابن طولون قائلا « يكفي قد عرفنا كما جميعاً . وعرفنا فضل مهندسنا الحكيم وسنرفع منزلته ونعوض عليه ما لحقه من الاذى بسبب تلك الوشاية وسنزف اليه عروسه على نفقتنا باحتفال ينسيهما ما قاسياه ويتولى عقد الاكليل غبطة البطريرك الجليل » قال ذلك ونظر الى دميانة وكانت

جالسة على مقعد بالقرب من زكريا تسمع ما يدور من الاحاديث ولا تفهم الا نتفاً قليلة لجهلها اللغة العربية فكان زكريا يترجم لها باختصار . على أن اشتغال قلبها بسعيد وتتبعها حركاته وسكناته كانا يشغلانها عن سماع كل شيء. فقد مضت عليها مدة وهي لم تره واتفق انها رأته المرة الاولى في تلك الجلسة فاضطرت ان تغالب عواطفها وتصبر نفسها الى آخر الجلسة . وقد همها من الجهة الاخرى الاطلاع على ما كان محدقا بها من الاسرار ولا سيما مسألة الاسطوانة وما فيها فلما اطلعت على فحواه طار قلبها من الفرح وازدادت فرحا لما سمعت ماقاله ابن طولون لخطيبها وكيف انه سيرفع قدره وينفق على العرس من ماله . فان ذلك فوق ماكانت تتمناه

على ان سقوط والدها تحت غضب ابن طولون نغص عيشها وكدرها . وزادها حزناً وأسفاً ما شاهدته في ابيها من الانكسار والتذلل بعد ظهور الحق عليه. ونسيت ما قاسته من استبداده وعنفه وما أراده من ضياع حقها فلما قال ابن طولون ما قاله ووجه خطابه اليها بغتت وهي تحدث نفسها بتلك الامور والتفتت الى والدها فرأته ينظر اليها بعين الحزين الدليل فنهضت وتقدمت خطوتين حتى وقفت ووجهت كلامها الى الامير وتكلمت بالقبطية قائلة:

« اني لا استطيع التعبير عن أفكاري بالعربية فأقولها بالقبطية وأتقدم الى أبينا البطريرك ان ينقلها اليكم بالعربية . قد غمرتنا أيها الامير بفضلك وأنا شاهدت العصي تتساقط على سعيد (وأشارت اليه) شاهدتها بعيني ولم يخطر لي أن أضع الحق عليك وقد علمت من ذلك اليوم انها دسيسة . . انك أيها الامير أتيت نعمة لبلادنا كما قال أبونا البطريرك وأحمد الله لانه أظهر الحق على يد العم زكريا فان لهذا العم الطيب القلب فضلا كبيراً في كشف هذه الاسرار وقد فعل ذلك لا لمطمع غير القيام بوعده ونصرة الحق . . »

ثم بلعت ريقها وظهرت دمعتان في عينيها وأشارت بيدها نحو والدها وقالت « نعم ان والدي قد أساء التصرف معي ولا أدري أكان ذلك من

تلقاء نفسه أو باغراء من سواه وعلى كل حال فاني أتقدم الى مولاي الامير أن يعفو عنه فاني لا أكون سعيدة ما لم يكن والدي ايضاً سعيداً »

فترجم البطريرك كلامها باختصار . أما والدها فلما سمع قولها غلب عليه البكاء لفرط ندمه وقال لها « لقد جمعت ناراً على رأسي . . اني قد أسأت اليك من كل وجه ولا شك ان عنصرك أطيب من عنصري فقد كنت أريد أن اكون سعيداً ولو شقيت أنت أما أنت فتقولين انك لا تسعدين ان لم يكن أبوك سعيداً . فاصفحي عن زلاتي واستشهد الامير وسائر الحاضرين انى سأرجع عن كل ما يسوءك من طرق المعيشة في بيتي وأكون طوع ارادتك لانك أقرب مني الى الرشاد وأدنى الى الصواب »

فلما رأى اسطفانوس ما جرى صاح « وأنا يا دميانة وانا ؟ »

قالت « اني أترك أمرك الى سعيد فانه صاحب الشأن معك »

فتقدم سعيد وقال اذا جاز لى يا مولاي الامير ان أتكلم فاني اتقدم اليه ان يصفح عن اسطفانوس فانه فعل ما فعله مندفعاً بضعف الانسان ولا يجديني أن اراه يذوق العذاب لا سيما وقد ظهر انه ندم »

فقال اسطفانوس « نعم ندمت . ومن يرى هذه الاخلاق العالية وهذه الصدور الرحبة ولا يندم . . . اني أحب أن أكون من أحقر أصدقائك »

فقال « دعنا من الصداقة فقد صفحت عنك والسلام »

فأشار ابن طولون اشارة سكت لها الجميع واصغوا لما يقول فقال « يسرني انكم تصالحتم وسأؤيد هذا الصلح باحتفال العرس الذي سأقيمه بعد قليل بحضور الاب البطريرك »

الفصل الثامن والستون

بالرفاء والبنين

وفهم الحضور انه يريد الانصراف فنهضوا واذا بصوت خرج من طرف القاعة فالتفت الجميع فرأوا سمعان النوبي وكان واقفاً يسمع ما يدور وكان لما سمع ما قاله زكريا عن اصله وانه كان في جملة هدية ملك النوبة المأمون علم انه اخوه الضائع واحب ان يتصدى للكلام فلم يسعفه المقام فظل صابراً حتى فرغ القوم من المحاكمة فتقدم وقال « يأذن لي الامير بكلمة : اني رسول ملك النوبة الى هذا البطريرك لا كلفه ما كلفه به سواي من قبل اما بعد ان شاهدت من عدلك وعظيم خلقك فاني ارى غير رأيه وانا عائد الى ملكي اثنيه عن عزمه واعيد العلائق بينه وبين المسلمين ان شاء الله »

فقال ابن طولون بغير اكتراث « لك ذلك » وتحول وخرج من باب خاص في تلك القاعة وبقي الحضور يتصافحون ويتصالحون والبطريرك يباركهم ويخفف عنهم فقبلت دميانة يد والدها فقبلها هو وبكى ووعدها ان يخرج ما في منزله من السراري والجواري وان يعيش لله ولها ويكون طوع ارادتها . وتقدم اسطفانوس الى سعيد يستغفره ويصالحه فقال له : « ليس في نفسي شيء عليك وقد صفحت عما فعلته لكنني لا اميل الى مصادقتك لان من كان لا يغضب لنفسه ولا يحفظ كرامتها لا يليق بالصداقة » فلما سمع اسطفانوس قوله كاد يذوب من الخجل وتحول وخرج وهو يبكي فاشفق سعيد عليه فناداه وقال له : « اذا شئت ان نتصادق فاصغ لما يقوله والدك فانه من اطيب الناس قلباً واحسنهم خلقاً فاذا عملت برأيه كنت من اصدقائنا »

واما سمعان فلم يصدق انه اطلق بعد خروج ابن طولون حتى اكب على زكريا وجعل يقبله ويقول له : « اخي ابراهيم ! ابراهيم ! »

فبغت زكريا والتفت الى سمعان وتفرس فيه وقال : « اخي سمعان . . . اخي حقيقة . . » وتعانقا

واجمل منظر بين اولئك المجتمعين اجتماع سعيد بدميانة فقد تخاطبا وتشاكيا طويلا بلسان لا يفهمه سواهما اعني لسان العيون فضلا عن الكلام وطال وقوفهما وفرغ الآخرون من احاديثهم وهما غارقان في المشاكاة وقص الاحاديث . فتقدم زكريا اخيراً وقال : « هل تريد مولاتي ان تخرج والى اين ؟ »

فانتبهت لنفسها وسألت سعيداً فقال : « هل تأتون إلى قصري هنا ؟ »

فخجلت دميانة من هذه الدعوة وادرك زكريا خجاها فقال : « نذهب الآن إلى دير المعلقة لان سيدتي تحب الاديار واظن ابانا البطريرك نازلا هناك ؟ » فأشار البطريرك أن نعم فقال : « فنحن ذاهبون إلى هناك للتبرك به ريثما يأمر الامير بالاكليل فنجتمع ونقيم في قصر المهندس الفرغاني »

فصاح ابوها : « بل تقيم في قريتها طاء النمل تأمر وتنهى »

ففرحت بتصريح ابيها على هذه الصورة ومشت هي وزكريا والبطريرك الى دير المعلقة ومعهم سمعان وذهب سعيد الى قصره ومضى اسطفانوس كاسف البال الى ابيه يستغفره ويرجو عفوه . وبقي مرقس فقال لابنته : « الا تأذنين ان أرافقك الى الدير ؟ »

فضحكت وقالت : « ان لهذا الدير فضلاً عليَّ فقد بدأت متاعبي فيه ولكن قد مضى ما مضى فتفضل انت والدي وسيدي » فمشى معهم الى هناك واحتفلت رئيسة الدير بقدومهم

وبعد أيام امر ابن طولون باعداد معدات العرس لزفاف دميانة الى سعيد فبعث سعيد إلى مربيه أبي الحسن البغدادي فأتى وقد فرح بما جرى وبعثت دميانة إلى الاب منقريوس قسيس قريتها ليفرح معها فأتى . فزينوا القطائع كلها بالانوار والرياحين وكان احتفالا مثل احتفالات الملوك وظل اهل الفسطاط يتحدثون به اعواما . وسكنت دميانة مع سعيد في قصره اياما ثم انتقلا الى طاء النمل وسكنا في قصر أبيها أو هو قصر مارية القبطية وكان قد

أخلاه ابوها من السراري والجواري وجعله لائقاً بذينك العروسين الطاهرين

وقضى مرقس بقية عمره يبذل مافي وسعه لرضاء ابنته وزوجها. وكان أبو الحسن من أعظمهم سروراً بذلك وعاش زكريا بقية عمره معززاً مكرما واما اخوه سمعان فانه سافر الى بلاد النوبة يثني ملكها عن مناوأة المسلمين فأفلح وعاد واقام في طاء النمل . وأما الاب منقريوس قسيس تلك القرية.. فقد فرح بظهور الحق لانه كان في جملة الذين شهدوا وصية مارية [1]

« انتهت الرواية »

---

(١) اختلف المؤرخون في مصير ابن كاتب المادراني فقال بعضهم ان ابن طولون غدر به وهو يبني الجامع وقال آخرون انه قضى بقية حياته بهناء وراحة وليس هنا محل تحقيق ذلك